

مختارات قصصية

١٩٤٧ - ١٩٩٢



تأليف: جابريل جارثيا ماركيث

ترجمة وتقديم: على إبراهيم على منوفى

مراجعة: صلاح فضل

المشروع القومي للترجمة

جابريل جارشيا ماركيث

«مختارات قصصية»

(١٩٤٧-١٩٩٢)

تأليف

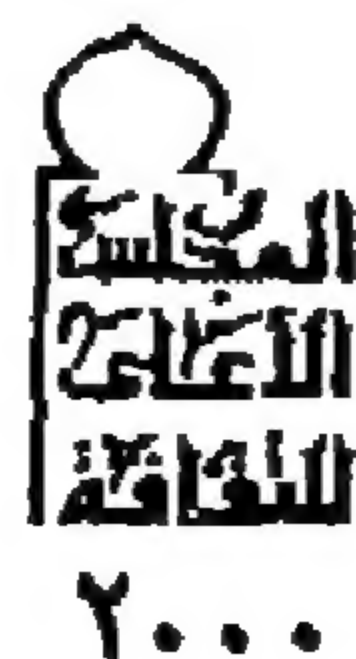
جابريل جارشيا ماركيث

ترجمة وتقديم

على إبراهيم على منوفى

مراجعة

صلاح فضل



مدخل

لا يجد القارئ أو الباحث صعوبة شديدة عندما يحاول الاطلاع على بعض جوانب الإبداع الأدبي - خاصة السرد القصصى الروائى والقصة القصيرة - فى أمريكا اللاتينية أياً كانت لغة الدراسة أو الأعمال الأدبية (فقد ترجم الكثير من هذه الإبداعات القصصية إلى العديد من لغات العالم) وتتحول سهولة الاطلاع إلى الطريق الصعب عندما يلاحظ الباحث والقارئ معاً أن البحث مسلط فى الحقبه الأخيرة على الرواية الأمريكية اللاتينية - باستثناء البرازيلية - ابتداء من الأربعينيات من هذا القرن وحتى اليوم مروراً بأقصى درجات الازدهار خلال الستينيات والذي ربما يرجع إلى عوامل كثيرة منها ما يتعلق بالبنية القصصية وما طرأ عليها من تغير، ومنها ما يتعلق بالتجريب المستمر سواء على مستوى اللغة المستخدمة فى السرد أم على المستوى التقنى، ومنها الإلحاح المستمر من جانب المبدع على حقه فى ابتكار واقعته التخيلى الخاص به وطرائقه فى سبر أغوار الواقع القريب والمعاش، ومنها التنوع الشديد فى الموضوعات التى يتم تناولها^(١) هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى أشار إليها بعض الباحثين، يتعلق بعضها بسياسة دور النشر فى أمريكا اللاتينية وأسبانيا.

إلا أن هذه الوفرة فى المراجع والدراسات حول هذه الفترة تعانى فقراً واضحاً عندما يتعلق الأمر بالقصة القصيرة سواء من الناحية النظرية أو فيما يتعلق بالدراسات التى تتناول هذا الإنتاج بأبعاده المختلفة.

لكن إذا ما كان علينا أن نقارن بين القصة القصيرة فى أسبانيا - من حيث دائرة الانتشار والصعوبات الجمة التى يواجهها الكاتب الإسبانى عندما يحاول نشر مجموعة قصصية^(٢) وتلك التى يواجهها واحد من الكتاب فى أمريكا اللاتينية، لفاز الثانى على الأول من حيث قلة الصعوبات وسعة دائرة الانتشار. ومع ذلك فالأمر الهام الذى لم يبرزه النقد الأوروبى حتى الآن بالشكل المطلوب، هو المكانة التى تتبوؤها القصة القصيرة فى إطار تطور وازدهار فن السرد القصصى فى تلك البقعة من العالم، وربما كان السبب فى ذلك سوء الفهم الذى لا يعتمد على سند من الواقع والذى يتلخص فى أنه على مدى سنوات طويلة أُريد للقصة القصيرة أن تظهر على أنها النوع الأدبى التابع، أو الجزء المكمل للرواية رغم أنها فى حقيقة الأمر لا تقوم بهذا الدور أو ذاك فهى نوع أدبى له ملامحه الخاصة يرتفع صوته مدوياً ويطالب بإعادة تصنيف المادة القصصية^(٣).

القصة القصيرة فى أمريكا اللاتينية هى أوفر حظاً - رغم العقبات - عنها فى أسبانيا خصوصاً عندما نقوم بالمقارنة بينهما خلال فترة الخمسينيات والستينيات، وهذا لا يرجع إلى فقر أو قصور فى العملية الإبداعية بين الأدباء الأسبان، وإنما يرجع إلى ظروف خارجة عن إرادتهم مثل مساحات الحرية السياسية والأيدولوجية المتاحة وقلة دور النشر المستعدة لطبع المجموعات القصصية، هذا بالإضافة إلى قلة المجلات الأوروبية التى كانت مستعدة لنشر مثل هذه الأعمال الأدبية، وسيطرة الرقابة ... الخ^(٤).

توجد ملاحظة أخرى متعلقة بمعالجة القصة القصيرة ضمن باب السرد القصصى بصفة عامة حيث لا يكاد أحد يتطرق لها، وإن حدث

ذلك فإننا نجد أنه من الناحية العملية مثلما توجد تيارات وتوجهات متنوعة في الرواية هناك "ترجمة لها في ميدان القصة القصيرة"^(٥) ويرجع البعض هذا النوع من التداخل في المعالجة - رغم الاختلافات البنيوية بين هذا النوع الأدبي وذاك - إلى " التطور الشكلي للرواية الذي لم يتم إلا من خلال القوالب الخاصة بالقصة القصيرة، كما أن هذه الأخيرة كانت الورشة الأولى التي تعلم فيها العديد من الروائيين، إذ كان عليهم مواجهة كيفية خلق لحظة إبداعية"^(٦).

نظرية القصة القصيرة

كما سبق القول هناك القليل من الإسهامات في ميدان التنظير للقصة القصيرة بصفة عامة ورغم ذلك يمكن أن نبرز ثلاثة من القصاصين من أمريكا اللاتينية عبروا إما بشكل فيه نوع من التفصيل، عن رؤيتهم وهم أوراثيوكيروجا H.Quiraga وخوليو كورتاثار J.Cartazar وإنريكي أندرسن إمبرت E.A.Imbert.

أ- أوراثيوكيروجا:

كانت لهذا الكاتب العملاق إسهاماته الإبداعية التي أثرت ميدان القصة القصيرة من خلال تأليف العديد منها. وفيما يتعلق بالجانب النظري يتفق الكثير من النقاد على تأثره بالملاحظات التي كتبها آلان بويه "إذ تعلم منه التقنيات التي تجعل القصة القصيرة نوعاً أدبياً مستقلاً"^(٧) كما جاءت إسهاماته التنظيرية في مقالين موجزين يحمل أولهما العنوان التالي: "دليل كاتب القصة القصيرة المتكامل" أما الآخر فيحمل عنواناً مشابهاً: "الحيل التي يتبعها كاتب القصة القصيرة" ولا

يخفى على القارئ النغمة الهزلية في العنوانين المذكورين، وربما كان أبرز ما ذكره كيروجيا في مقالیه المذكورين مشكلة بداية القصة القصيرة وأن على الكاتب المبدع حقاً أن يضع في اعتباره أن الهدف منذ البداية هو أن يعرف المقصد الذي يرمى إليه فالكلمة الأولى يجب أن تكتب وعينها على النهاية، وهناك نقطة أخرى تتعلق بالتفاصيل فالمجال أمام كاتب القصة القصيرة ليس متسعاً مثلما هو الحال في الرواية وبالتالي عليه أن يلجأ إلى ذلك الإيجاز المتمثل في تلك الجماليات الحقيقية والتفاصيل التي تتضمنها قصته وبحيث تكون ضرورية، ويضاف إلى ما سبق ما يسمى "بالجو العام المصغر" الخاص بالشخصيات وأن يأخذ الكاتب بأيدي شخصياته ويظل على هذا الوضع حتى النهاية وبحيث لا ترى تلك الشخصيات أى شيء آخر إلا الطريق المرسوم لها^(٨).

هناك عناصر أخرى جوهرية وهي التكثيف ورسم الشخصيات وكلها تفصح عن التأثير الفاعل للعلامة الأمريكى آلان بويه.

ب - خوليو كورتاثار :

أجرى الكثير من النقاد والصحفيين العديد من الحوارات مع كورتاثار وتحدث كثيراً وباستفاضة عن الكثير من جوانب الإبداع الأدبي سواء بالنسبة للرواية أو القصة القصيرة^(٩) وسوف نعرض هنا لمقال مطول نشر له أكثر من مرة بعنوان : "بعض جوانب القصة القصيرة"^(١٠) وينوه في البداية إلى أن التنظير شيء والعمل الأدبي شيء آخر "فلا يمكن لأى تعليق نظري أن يحل محل العمل الأدبي، وأن تعليقاته النظرية ترتبط أساساً بمفهومه عن العالم وبطبيعة إبداعه الأدبي "الواقعية السحرية" والقصة القصيرة تخلو من كل ما يعتبر إضافة أو حشواً، فلا

يمكن لكاتب القصة القصيرة أن يلجأ إلى حيلة تراكم العناصر " فالزمن ليس فى صالحه والطريق الوحيد الذى عليه أن يسلكه هو العمل فى العمق أى أخذ قطاع رأسى. كما أنه لا توجد موضوعات جيدة وغير جيدة" فإما أن تكون القصة كذلك (جيدة) أم لا. ومع هذا فالموضوع لابد أن يكون به غموض "يشع شيئاً ما يتجاوز حدوده البسيطة" ولا يمكن أن يكون للمنطوق معنى إلا إذ ربطناه "بالتكثيف والتوتر" فهذان العنصران لا يشيران إلى الموضوع فحسب بل إلى المعالجة الأدبية وإلى التقنية المستخدمة فى تطويره، وفيما يتعلق بالتناول أو المعالجة يرى أنها تكسب الموضوع رحابة تتجاوز الواقع الظاهرى، الأمر الذى تحدث تأثيره الفعال فى المتلقى. ثم يتناول بعداً آخر يمكن أن ينطبق سواء على الرواية أو القصة القصيرة ألا وهو الخاص بالقارئ ذلك "الكائن السلبي والأقل حرصاً وبقظة" فما يكتبه المؤلف ليس بالضرورة أن يستثير القراء ومن يظن هذا يكون كمن يرى ابنه جميلاً ويعتقد أن الآخرين يرونه كذلك. ومن أجل الوصول إلى التأثير فى القارئ لابد وأن تتوفر "الحرفية والمهنية" فى المؤلف والتي يتمثل أحد جوانبها فى خلق هذا الجو، الذى يشير إلى قصة عظيمة، ويدفع القارئ إلى مواصلة جهد القراءة ويملك عليه لُبّه ويعزله عما حوله ثم يعود به بعد ذلك إلى الواقع بعد أن أصبح أكثر ثراء وعمقاً أو ربما أكثر جمالاً. إنهما عنصرا التكثيف والتوتر حيث تتضافر العناصر الشكلية والتعبيرية لتعطى صورة مرئية ومسموعة أكثر أصالة ونفاذاً. ومعنى التكثيف فى القصة القصيرة "استبعاد كافة الأفكار أو المواقف الوسيطة والبعد عن الحشو أو المراحل الانتقالية التى غالباً ما نراها فى الرواية". ويصر كورتاثار كثيراً على ضرورة المعاناة وإلا أصبحت القصة مجرد ممارسة أسلوبية ليس إلا.

د- إنريكي أندريسون إمبريت :

منذ فترة طويلة وهذا الأستاذ الجامعي والقصاص والناقد ينشر تأملاته بشأن القصة القصيرة (١٩٥٩) وقد جمع آخر هذه التأملات بعد تطويرها في كتاب "القصة القصيرة: النظرية والتقنية" وهو كتاب يتضمن ثمانية عشر فصلاً يتعلق بعضها بالأدب بصفة عامة ويتعلق البعض الآخر بفن القصة القصيرة متناولاً إياه من جوانب مختلفة سواء منها ما يتعلق بالمؤلف أو الراوى والتنويعات المختلفة للراوى وكذلك القارئ وتصنيف وجهات النظر وموقف الراوى والحدث والحبكة وعنصر الزمن في الأدب والأزمة النحوية. وقد قمنا بترجمة ذلك الكتاب الذي نشر ضمن مشروع الترجمة الذي يصدر عن المجلس الأعلى للثقافة.

إطلالة على تاريخ

القصة القصيرة في أمريكا اللاتينية

كثيرة هي الدراسات التي تتناول تاريخ الأدب في أمريكا اللاتينية - وخاصة الإنتاج الروائي- خلال الحقبة التي أشرنا إليها سابقاً. ويختلف المنظور من دراسة لأخرى، فهناك من يتناول الإنتاج الأدبي في كل دولة على حدة، وهناك من يأخذ في الاعتبار العناصر الخاصة بنظرية الأجيال، وفي هذا المقام نجد أن تلك الفترة تضم في آن واحد إسهامات "ما لا يقل عن خمسة أجيال"^(١١) وهناك دراسات أخرى تتناول هذه الفترة طبقاً للتيارات الأدبية السائدة وتفرعاتها المختلفة، وهناك من يقوم بدراسة كل أديب على حدة متناولاً أعماله ومراحل تطورها رابطاً إياها إما بجيل أو تيار أو بلد أو حقبة زمنية معينة. والحقيقة أن العملية ليست

من السهولة بمكان فاللفظة "أمريكا اللاتينية، تعنى ببساطة إنتاج خمس وعشرين دولة وتعنى أيضاً الأدب البرازيلي، ومع هذه الكثرة هناك اختلاف بين ظروف كل دولة، ومساحة الحريات المتاحة، ومدى صلة الأديب بالواقع، ومدى إطلاعه على الثقافات الأخرى، سواء الأجنبية - وخاصة الأوروبية - أو المحلية الضاربة بجذورها فى أراضى هذه المنطقة من العالم قبل وصول الأسبانيين وبقى الجنسيات إليها. لكن هذه العقبات لا تعنى استحالة العمل على إيجاد رؤية بانورامية يمكن من خلالها الاطلاع على أبرز جوانب الإبداع الأدبى وخاصة فى دائرتى الرواية والقصة القصيرة، فكل الدراسات مهما بلغت درجة الجزئية فيها تصب فى بوتقة بانورامية رغم الصعوبات القائمة.

يتفق معظم النقاد على أن النهضة بدأت فى ميدان السرد الروائى مع عقد الأربعينيات، إذ يمكن أن يرى التغيير فى التخفى التدريجى عن الاهتمام بوصف الطبيعة والمشاهد الريفية، وكذلك بدأ هناك تباعد عن أدب الإدانة المباشرة للمشاكل الاجتماعية الأكثر إلحاحاً، لكن ما الذى كان هناك فى أمريكا اللاتينية من تيارات أدبية قبل هذا العقد التاريخى ؟ لا نريد أن نعود للوراء كثيراً ونبدأ القصة من خلق آدم فهذا ليس مجالها لكن علينا أن نشير إلى وجود المدرسة الرومانسية والتي تمثلت إحدى ملامحها فيما يطلق عليه "لوحات العادات Cuadros de costumbres" حيث الوصف والتركيز عليه، الأمر الذى أدى إلى حدوث خلل فى النسيج الإبداعى، ولما كانت الرواية - نظراً لطبيعتها - يمكن أن تستوعب هذا الخلل فقد كانت ملامحه أقل "لكنها أكثر بوضوح فى القصة القصيرة" (١٢).

وبعد الرومانسية ظهرت مدرسة أدبية أخرى هى مدرسة الحداثة El modernismo حيث كان هناك جيلان أسهما فى تطويره بما

فى ذاك القصة القصيرة. وأول هذين الجيلين هو ذلك الذى يتزعمه كل من خوسيه مارتى Marti .لومانويل جوتيرث ناخيرا M.G. Nagera وروبين داريو R. Dario وأمادو نربو .. A. Nervo أمل الجيل الثانى فنذكر منهم ليوبولدولوجونس L. lugones وإنريكي لويس ألبوخار E.L. Albu-jar وأوراثيوكيروجا . H. Quiroga والاطلاع على إنتاج هذا الجيل الثانى يؤكد التنوع الشديد وبالتالى يصعب تحديد التيارات والاتجاهات المتعددة التى أخذ يسير فيها هذا النوع الأدبى^(١٣) القصة القصيرة - الأمر الذى يؤكد أن إرهاصات التغيير والتحديث بدأت منذ وقت مبكر وقبل عقد الأربعينيات.

ربما كان جوتيرث ناخيرا أحد الذين كانت لهم إسهاماتهم الإبداعية فى هذا النوع الأدبى إذ صدرت له مجموعة قصصية بعنوان "حكايات هشة" (١٨٨٣) ويلاحظ فيه "وجود تعليقات تصدر عن الراوى وكثرة علامات التعجب والجمال الاعتراضية التى يجرى من خلالها حوار بين الراوى والقراء الأمر الذى يطيل الخيوط الرئيسية للسرد (...) كما يلاحظ أن الراوى أحياناً أخرى يتقدم بشروح وتفسيرات قاطعة وأحياناً ما يتدخل فى الموضوع الأمر الذى يؤدى بالأسس التى تقوم عليها القصة القصيرة"^(١٤) إلا أن البعد الخاص باللغة الرنانة والجزالة فى الألفاظ وسعة الخيال والثراء اللغوى غير المعهود أمام الفقر الواضح فى لغة المدرسة الطبيعية، كل ذلك كان هو الجانب الإيجابى فى هذه المدرسة ويمكن أن يرى ذلك بوضوح فى اللغة التى عليها كتاب "أرزق Azul لروبين داريو الذى يتضمن عدداً من القصص القصيرة. أدت المبالغة فى هذا الجانب الإيجابى - اللغوى أدت المبالغة فيه أيضاً إلى إصابة النص بالإرهاق من كثرة الأخيلة والصور والألوان التى تظهر فى تكوينات لا نهائية.

هذه الفترة السابقة التي عاشتها القصة القصيرة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين إنما تمثل المرحلة السابقة على مرحلة الازدهار التي أخذ السرد القصصى فى أمريكا اللاتينية يعيشها ابتداء من عقد الأربعينيات، حيث تم التخلص التدريجى من عيوب مدرسة الحداثة وأخذ الكثير من الكتاب يتباعدون عن المباشرة فى تناول الواقع ولم تعد هناك موضوعات محرمة وأخذ المبدعون يجربون أنماطاً قصصية جديدة، وكثر الاتصال بالمدارس الأوروبية والأمريكية وأخذت عيون الكتاب تطوف وتجول فى تلك الأرض الخصبة بإيحاءاتها وثقافتها الأصلية، وأصبحنا نرى أمام أعيننا "واقعية جديدة" أو "قصة جديدة"، وأطلق على هذه الواقعية أحياناً مصطلح "الواقعية السحرية" *El realismo magico* وهو مصطلح أطلقه فرانز روه *Franz Roh* عام ١٩٢٥ على أحد التوجهات الفنية اللاحقة على المدرسة التعبيرية، فهو نوع من الواقعية الجديدة التى تحاول رصد ما هو دائم، أى ماهية الواقع، على نوع من المعاشية بين الواقعية والبعد السحرى الذى يتجاوز حدود الواقع. وفى عام ١٩٤٨ أطلق الناقد *A. Usler Pietri* هذا المصطلح على تيار قصصى فنزويلى فحواه الثورة على الصيغ المغرقة فى الواقعية. واعتباراً من هذا التاريخ أصبح له انتشار غير مسبوق رغم أن تطبيقاته كان بها تعسف واضح. ورغم ذلك يمكن القول أنه يتفق مع سمات "الواقعية الجديدة" إذ تتم محاولة تجاوز الواقع وإضافة بعد آخر له "السحرى وما هو عجيب وغامض". هذا البعد الآخر يحاول رصد عناصر الواقع "الآخر" بطريقة استعارية وهو ما يمكن أن يطلق عليه ما تحت جلد الواقع، الجانب الذى أهملته المدرسة الواقعية^(١٥).

وهناك مصطلح آخر هو الواقعية العجيبة *Lo real maravilloso* الذى استخدمه أليخو كاريينتو عندما نشر قصته "مملكة هذا العالم" عام

١٩٤٩ حيث يشير إلى وجود فوارق بين ماهية ما هو عجيب على الطريقة السريالية في شطحاتها الأدبية والكتابة الأتوماتيكية واللجوء إلى اللاشعور وما هو عجيب على الطريقة الأمريكية اللاتينية فهو واقع من نوع خاص تشكل بعض الأحداث الغامضة والعجيبة جزءاً لا يتجزأ من نسيجه، وقد أشار جارشيا ماركيث إلى هذه النقطة في أكثر من حوار أجرى معه وسوف نعرض له في حينه.

وقد أشرنا سلفاً إلى أنه مهما حاول النقاد رصد بعض التيارات الأدبية في إطار الواقعية "الواقعية الاجتماعية والواقعية النفسية والواقعية السحرية - وهي الأكثر شيوعاً بتفريعاتها وتنويعاتها المختلفة - والواقعية البنائية والاتجاهات التجريبية بما في ذلك مضاد القصة an-tinovela الخ فإن من الصعوبة بمكان الإلمام الشامل بها، كما أن من طبيعة المبدعين رفض الدخول في إطار ما يسمى بالجيل أو التيار أو الزمالة .. ربما رغبة منهم في التميز والتفرد، إذن المحاولة لا تعدو مجرد رسم خطوط عامة ورصد ما يمكن أن يسمى بالظواهر مع الأخذ في الاعتبار السمات المميزة لكل مبدع يدخل في إطار هذه الظاهرة أو تلك.

القصة القصيرة عند جارشيا ماركيث

قبل أن نبدأ معالجة القصة القصيرة عند ماركيث تجدر الإشارة هنا إلى بعض آرائه وتصوراتهِ عن الإبداع القصصي عامة ورؤيته للواقع المحيط وفكرته عن الالتزام، فهذه جميعها تسهم بشكل كبير في إلقاء الضوء على إبداعاته في ميدان القصة القصيرة خاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار وحدة العالم القصصي، بتطوراتهِ المختلفة، سواء في القصة القصيرة أم الرواية عند جارشيا ماركيث.

من المعروف عن ماركيث أنه كاتب له توجهه الاشتراكي مثله في ذلك مثل معظم الكتاب في أمريكا اللاتينية، ومن المعروف عنه أنه واحد من الذين صفقوا للثورة الكوبية ١٩٥٩، وهو صديق لفيدل كاسترو. "أريد أن يصبح العالم اشتراكياً - يقول ماركيث - وأظن أنه سيصبح كذلك عاجلاً أم آجلاً". لكن من يقرأ العبارة التي بين الأقواس قد يخرج بنتيجة مفادها أن أدب جارثيا هو أدب "ملتزم" وهذه لفظة أدخلت عليها العديد من التنويهات. الالتزام بماذا؟ نجد لماركيث تحفظات على أدب الالتزام وخاصة ما يسمى بالرواية الاجتماعية فهو توجه لم يؤت بثمرة أو يؤدي إلى نتائج كبيرة، كما أن "الناس في أمريكا اللاتينية ينتظرون من الرواية ما هو أكثر من فضح الاضطهاد والظلم، فهم يعرفون ذلك لدرجة الملل منه". "إن الكثير من أصدقاء النشطين سياسياً والذين يعيشون في إطار شعورهم بإملاء معايير الكتابة على المبدعين إنما يتخذون موقفاً رجعيّاً لأنهم يضعون قيوداً على الحرية الفنية. وأعتقد أن رواية تتخذ الحب كموضوع لها نفس الأهمية التي لأية رواية أخرى، فواجب الكاتب - واجب الثوري إن شئنا قول ذلك - هو أن يكتب بشكل جيد^(١٦). أما الواقع فهو مصدر الفن لديه وهو النبع الأصل الذي يستقى منه المبدعون أعمالهم. والواقع في أمريكا اللاتينية يوضح لنا، من خلال الحياة اليومية، أنه ملئ بأشياء غير مألوفة، ومن هنا يمكن أن ندرك سر مقولته: "لا تحوى رواياتي سطرًا واحدًا لا يستند للواقع"^(١٧) فوجود غير المألوف وغير المعقول - الذي لا تستطيع العقلانية الأوروبية أن ترصده - يرجع بالنسبة لجارثيا ماركيث إلى عناصر كثيرة، فالجد والجدة من جليقية (أسبانيا) كانا يرويان له حكايات كثيرة تتعلق بما هو غير مألوف في أمريكا، وحكايات ما وراء الطبيعة من الموروثات الجليقية، ويرجع أيضاً إلى إرث إفريقي وخاصة على السواحل الكولومبية المطلة على

منطقة الكاريبي^(١٨). ويؤكد ماركيث إلى أن رحلته إلى أنجولا (١٩٧٨) كانت تجربة من أروع التجارب لديه. أضاف إلى ما سبق، من جذور أسبانية وأفريقية تدخل كجزء من نسيج ذلك الواقع المشار إليه، هناك مفاهيم وعقائد السكان الأصليين في المنطقة. كل ذلك شكل قدرة على النظر إلى الواقع بطريقة سحرية لدى السكان^(١٩).

يشير مرات عديدة إلى تأثير جدته عليه في فن القص والحبكة القصصية وتداخل وتنغم خيوط الواقع الذي لا يرصده العقل وهو الجزء الآخر أو البعد الآخر من الواقع الذي لا يمكن رصده إلا من خلال جرعة إيمانية هي جزء أساسي من وعي الإنسان بما حوله، والمكمل للعقل وما يرصده. وفي هذا المقام يلاحظ من يقرأ الإبداع السردي لهذا المؤلف - الرواية والقصة القصيرة - أنه الراوى - يرفض بشدة أن يكون العقل وحده هو المصدر الوحيد لتفسير الواقع. وربما كان ذلك مرجعه إلى تمادى بريق الفلسفة الوضعية في أوروبا وإلى ذلك التنوع والسحر في عالم الواقع الذي يرصده الكتاب في أمريكا اللاتينية.

ولجارتيا ماركيث رؤية خاصة بالحوار كعنصر من عناصر تكوين العملية السردية. والملاحظ قلة الحوار - كعنصر فنى فى الكثير من أعماله، فالحوار الشفهى فى اللغة الأسبانية له وقع خاص يختلف عنه فى الكلام المكتوب "إن حواراً جيداً فى الحياة اليومية لا يكون بالضرورة جيداً فى الأعمال القصصية، لهذا قليلاً ما أستخدمه"^(٢٠). وترتبط التقنية واللغة عنده بموضوع الكتاب، فاللغة المستخدمة فى قصصه القصيرة ورواياته "ليس لدى الكولونيل من يكاتبه" و"الساعة المشئومة" والكثير من مكونات المجموعة القصصية "جنازة الأم الكبرى" تتسم بأنها لغة موجزة ومحكمة وواقعية ولا تستهدف سوى التأثير. أما اللغة فى "خريف

البطريارك" فهي فى رأيه - أكثر الروايات التى ألفها اعتماداً على الفنون الشعبية وأقربها إلى الموضوع والعبارات والأغنى التى تتردد فى منطقة الكاريبى. وهناك جمل لا يستطيع أن يفهمها سوى سائقو سيارات الأجرة (٢١).

نشرت لجارثيا ماركيث أربعة مجموعات قصصية أولها بعنوان: "عينا كلب أزرق" وتضم إحدى عشرة قصص قصيرة يرجع تاريخ كتابتها إلى الفترة من عام ١٩٤٧ وحتى عام ١٩٥٥، أما المجموعة الثانية فتحمل العنوان التالى: "جنازة الأم الكبرى" وهو عنوان إحدى قصص المجموعة كما هو الحال فى المجموعة الأولى، لكن هذه المجموعة التى تضم ثمانى قصص كتبت كلها خلال عام ١٩٦٢، أما المجموعة الثالثة فتحمل عنوان واحد من أطول القصص القصيرة - إن جاز ذلك التعبير - وهى الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب إيرنديرا وجدتها القاسية"، وهى تضم سبع قصص كتبت خلال الفترة من عام ١٩٦٨ وحتى عام ١٩٨٢، وهذه المجموعة تحمل عنواناً مغايراً - أى ليس له صلة بأى من العناوين التى تتضمنها: "اثنتا عشرة قصة فى ترحال"، وذلك للإشارة إلى حالة الترحال والسفر والتعديل التى تعرضت لها قصص تلك المجموعة الأخيرة وقصص أخرى لم تر النور، إذ يشير ماركيث فى تقديمه لهذه المجموعة الأخيرة - والتى ترجمنا منها أربعة من هذه القصص - إلا أنه قد دون ملاحظات لعدد أربع وستين موضوعاً. ومع ذلك "فإن فكرة كتابة هذه الموضوعات المشار إليها بشكل متوال ومن خلال الالتزام بوحدة الإيقاع الداخلى والأسلوب إنما يمثل مغامرة مثيرة إذا ما تمكنت منها" (٢٢). كما يؤكد أن المجموعات الثلاث السابقة لا تربط بينها وحدة عضوية، فكل قصة مستقلة عن الأخرى ولها لحظة إبداعها الخاصة بها (٢٣). ومع ذلك فإن القصة القصيرة فى إجمالى إنتاجه

القصصى تمثل جزءاً من الوحدة العضوية لعالمه القصصى، والذي بدونه لا يمكن أن ندرك ملامح البدايات الأولى لهذا الإبداع أو المراحل المختلفة التي مر بها طوال حياته الحافلة بالثراء الإبداعي. وإذا ما كان ماركيث ينظر إلى إنتاجه القصصى كجزء من إجمالى الإنتاج القصصى لكتاب الرواية والقصة القصيرة "فليس هناك خمسة من الكتاب يكتبون خمس روايات، بل إنهم يكتبون رواية واحدة فى عدة مجلدات". فلا عجب إذن أن تكون المجموعات القصصية جزءاً من هذه القصة التى أسهم بها ماركيث فى تناول أحد جوانب الواقع المعاصر فى أمريكا اللاتينية.

ويمكننا أن نضيف إلى ما سبق جزئية بسيطة أخرى، وهى أننا نرى الكثير من الشخصيات تعاود ظهورها من جديد سواء فى هذه القصة أو تلك الرواية، وكأنا بذلك أمام عالم يتحرك فى أرجائه "أفراد أسرة واحدة يجيئون ويذهبون"^(٢٤) بينما تأخذ الحياة سيرها المعتاد فى ماكوندو تلك القرية الخيالية التى صورها الكاتب فى "مائة عام من العزلة".

وإذا ما كان ماركيث قد تحدث عن بعض قصصه القصيرة - الحكاية العجيبة والحزينة لطيفة القلب إيرينديدا وجدتها القاسية - ويقول بأنها "تمرينات على البيانو كوسيلة للوصول إلى الأسلوب الذى استخدمه فى الكتاب الجديد (صحيفة - Triunfo - نوفمبر ١٩٧١)، فإنه يشير فى سياق آخر، وبعد ذلك بعشرين عاماً إلى أن الجهد الذى يبذل فى كتابة قصة قصيرة كبير للغاية وكأن المرء مقبل على كتابة رواية"^(٢٥) إنها عملية إبداعية تأخذ فى اعتبارها كافة العناصر التقنية الخاصة بالقصة القصيرة كنوع أدبى. إلا أن الطول والقصر بالنسبة لعدد صفحات كل قصة أمر نسبي، فقد وصل عدد صفحات قصة "الحكاية العجيبة والحزينة ... " إلى ثمان وأربعين صفحة.

هناك أمر آخر يتعلق برؤية جابريل جارتيا ماركيث للقصيدة القصيرة، والحقيقة أنه لم يسهم بشكل مباشر فى التنظير لهذا النوع الأدبى، وأن كانت له بعض التتويهاات والتلميحات التى تتناول القصيدة القصيرة فى سياق أحاديثه الكثيرة مع الصحفيين أو النقاد، فالقصيدة القصيرة عنده ليس لها عدد معين من الصفحات أو كيفية البداية أو ما هى خاتمة القصيدة أو التكتيف... إلى آخر تلك الملامح والمواصفات التى يرددها العديد من النقاد منذ أن نشر آلان بويه ملاحظاته عن القصيدة القصيرة. "فالقصيدة القصيرة - يقول ماركيث - ليس لها بداية ونهاية : إما أن تكون أو لا تكون، وإذا لم تأت فإن الخبرة الشخصية وخبرة الآخرين تعلمنا أنه من الأفضل بدء كتابة القصيدة من جديد أو تناولها من منظور آخر وإلا فإن سلة المهملات هى مآلها" (٢٦) وهو فى هذا الموقف يذكرنا برؤية أوراثيو كيروجيا التى عرضنا لها قبل ذلك بشكل موجز والتى تتعلق بنظرية القصيدة، كما أنه - ماركيث - يتسق مع ما يردده دائماً من معارضته وضع قواعد منظمة للكتابة أو الثبات وعدم التغيير والتجريب، فذلك معناه الموت للكاتب.

وتتسم القصص القصيرة لجارتيا ماركيث بالبساطة وعدم التعقيد فى البناء الفنى، مثلها فى ذلك مثل رواياته التى حازت شهرة واسعة - وهو فى هذا يعتبر استثناءً أو شيئاً غير عادى، إلا أن كتاباته لها تأثيرها العميق حتى قبل أن ينال هذا القسط العظيم من الشهرة.

كما أن هذه القصص تمثل لدى بعض الكتاب والنقاد المدخل لعالمه القصصى، فبعد نشر قصصه: "الورقة الذابلة" (١٩٥٥) "ليس لدى الكولونيل من يكاتبه" (١٩٦١) "والساعة المشؤومة" (١٩٦٢) نشر بعد ذلك مجموعته القصصية: "جنازة الأم الكبرى" وهى مجموعة لها صلة

بالروايات الثلاث المشار إليها، كما أنها، رغم سطحيّتها الظاهرية، تحوى سخرية مرة من أمومة "الأم الكبرى" ومن الخطاية والطنطنة الرسمية التى يلجأ إليها بعض الصحفيين فى كولومبيا. وتلا ذلك الشهرة التى حازتها روايته: "مائة عام من العزلة" وكان بعدها فى حاجة إلى أخذ تسط من الراحة أو البحث عن أسلوب جديد فى الكتابة من خلال لتجريب والتطرق إلى أنماط قصصية مختلفة وذلك حتى يصل إلى الأسلوب الأمثل للبدء فى المشروع الضخم الذى أخذ يعد له، وهو روايته "خريف البطريارك" فكانت مجموعته "الحكاية العجيبة والحزينة لطيفة القلب ..." هى ثمرة هذا الجهد الذى فكر فى توجيهه فى البداية - إلى الأطفال، لكن لم تسر الأمور كما أراد. أما مجموعته: "اثنتا عشرة قصة فى ترحال" فهى الوحيدة التى أشار إليها على أنها المجموعة القصصية التى كان يصبو إلى كتابتها (٢٧).

هذه المختارات القصصية

تضم هذه المختارات اثنتا عشرة قصة قصيرة ثلاث منها تنسب لمجموعة الأولى: "عينا كلب أزرق" و"الإذعان الثالث" و"ليلة طيور لكروان"، وثلاث آخر تنسب إلى المجموعة القصصية الثانية وهى: "قيلولة الثلاثاء" التى يعتبرها ماركيث أفضل قصصه القصيرة على الإطلاق، و"الأمسية المدهشة التى قضّاها بليتثار" و"جنازة الأم الكبرى" أما المجموعة الثالثة فقد اخترنا منها قصتين: "الموت الدائم فيما وراء الحب" قصة "الحكاية العجيبة والحزينة لطيفة القلب إيرينديدا وجدتها القاسية". ما القصص الأربع الأخرى فقد جاءت من مجموعته القصصية "اثنتا عشرة قصة فى ترحال" على اعتبار أنها جزء من نسيج فكر فيه المؤلف

بعناية وحاول أن تكون هناك بعض الروابط بين قصص المجموعة التي تدور حول رؤية جارتيا ماركيث - أو إن شئت الدقة الراوى - للثقافة الأوروبية واعتمادها الكامل على العقل فها هم مجموعة من المصيفين من الدول الاسكندنافية الذين وصلوا إلى أحد الشواطئ في إقليم قطلونيا (أسبانيا) لقضاء جزء من عطلة الصيف (قصة : ربح الشمال) يحاولون إجبار أحد الفتیان من ذوى الجذور الكاريبية على الذهاب معهم إلى إحدى القرى الكائنة على الشاطئ الأسباني والتي كان قد فر منها نظرا لأن ربح الشمال تهب عليها كل عام وتصيب أهلها بالفرع وتؤدي إلى الموت دونما سبب عقلانى مقنع، الشاب يرفض وهم يصرون، رفض الشاب مؤسس على عقيدة لديه تربي عليها فى الكاريبى، أما إصرار مجموعة الشباب من السويديين والسويديات فهو مؤسس على مفاهيم عقلية محضة لا تتلاقى فى كثير أو قليل مع عقيدة الفتى، وتشير الجملة الأولى فى هذه القصة إلى النهاية المأساوية التى تتسق مع عقيدة الفتى "رأيتة مره واحدة فى كباريه "بوكاكثيو" أحد الكباريهات الحديثة فى برشلونه، كان ذلك قبل ساعات من انتهاء حياته بشكل درامى".

وها هو الراوى فى قصة "الصيف السعيد للسيدة فوريس" لا يتجاوز عمره حين وقعت تلك الأحداث تسع سنوات يشير إلى أن هذه المربية التى تعاقد والده معها على مرافقته هو وأخيه فى إحدى جزر البحر الأبيض المتوسط أثناء شهر أغسطس بينما يقوم الأبوان برحلة بحرية تطوف بموانى البحر الأبيض المتوسط، هذه المربية لا تستطيع أن تدرك حالة الفرع التى أصابت الطفل الأصغر حينما رأى أحد الثعابين البحرية "أبو مرينا" معلقاً على باب المنزل وكأنه تعويذة غجرية. كما أن رفض أخى تناول هذا النوع من السمك ليس له ما يبرره - عندها - ذلك أنه كان طعام علىة القوم كما أنها سمكة تمثل أحد الحيوانات الأسطورية

وبالتالى يجب أن تعامل بتقدير. كما أن الوالد يتعرض لانتقادات حادة من قبل الابن فهو "أحد كتاب منطقة الكاريبي كثير الخيلاء قليل الألمعية. وكان رماد المفاخر الأوروبية قد ملك عليه جماع عقله، كما كان ميالاً للتنكر لأصوله وجذوره سواء على صفحات كتبه أم فى الحياة اليومية، وفرض على نفسه وهماً هو ألا يتبقى فى أبنائه أى أثر لماضيه". كما أن هذه المربية تمثل النظام الذى يصل إلى درجة من الميكانيكية القاهرة فهناك ساعات محددة لتناول الطعام والاستيقاظ من النوم والخلود إلى السرير ومشاهدة برامج معينة والجلوس على المائدة بطريقة خاصة، وقبلها السير بدون صوت مسموع، وهناك ترتيب محدد فى الأطباق التى تقدم حتى عدد مرات المضغ لكل لقمة يتناولها. كل هذا يدخل فى صراع وتعارض مع مفاهيم سائدة فى الكاريبي ويدخل أيضاً فى صراع مع عقليات نشء فى طور التكوين.

أما البعد الآخر للجو العام الذى يربط بين قصص المجموعة الأخيرة فهو نقد - أحياناً مباشر وأخرى غير مباشر- للأنظمة السياسية فى أمريكا اللاتينية وأسبانيا، خاصة فترة حكم الجنرال فرانكو، ففي قصته : "رحلة طيبة يا سيدى الرئيس" يتناول البعد الإنسانى لحياة هؤلاء اللاجئين من أبناء الكاريبي فى أوروبا وحياة العوز والفقر وشغلهم للوظائف الهامشية فى المجتمع الأوروبى وحياة أناس آخرين هم أولئك الرؤساء الذى خلقتهم أنظمة أخرى أكثر طغياناً. هؤلاء المخلوعين لا يصلحون لأى شىء فى الحياة حتى لشغل منصب الرئاسة، لكن إذا سمحت لهم الفرصة سوف يعودون لممارسة الدور الذى فشلوا فى القيام به، فها هو الرئيس السابق يبعث برسالة إلى "هومير وزوجته لاثارا" من بنى وطنه اللذين ساعداه فى لحظات مرهقة يخبرهم فيها وقد بلغ الخامسة والسبعين "أنه يرغب فى العودة إلى بلاده ليكون على رأس

حركة تجديد فى سبيل قضية عادلة ووطن أهل للكفاح من أجله" ... إنه نوع من التفاخر التعس بأنه لم يمت فى سريرته وإنما وافته المنية وهو يكافح فى سبيل قضية "عادلة".

وهناك خيط آخر يسير ليس بشكل مواز ولكنه جزء من نسيج القصة ألا وهو ما عليه أهل الكاريبي وأهل الشرق من إيمان بقراءة الطالع سواء على الطريقة الشرقية، قراءة الفنجان أو اللجوء إلى فتح "الكوتشينة"، أو إلى غير ذلك من وسائل قراءة المستقبل يستوى فى ذلك من كان رئيس دولة ومن هو من عامة الشعب "لاثارا" التى تمارس تلك المهنة خاصة مع عليّة القوم بحثًا عن لقمة العيش.

أما قصته: "جئت لأتصل بالتليفون فقط" فهى سيدة من أصل مكسيكى تعيش فى أسبانيا وتتعلل سيارة الأجرة التى كانت تقودها متجهة بها إلى برشلونة "ذات مساء ممطر من أمسيات الربيع" وتحاول العثور على وسيلة للاتصال بزوجها فتعثر على أوتوبيس خاص ملئ بسيدات يتم اقتيادهن إلى مستشفى للأمراض العقلية وسط الغابات وهو مبنى كان ديرًا فى الأصل، فتعامل على أنها واحدة من نزيلات المستشفى، وتحاول بكل جهدها التخلص من هذا العذاب وتلك المعاملة، وتتمكن من الاتصال بزوجها بالتليفون فيحضر لكنه لا يستطيع إخراجها فقد أقنعه مدير المستشفى بأنها مجنونة وعندها هوس بالتليفون والبحث عنه للخلاص، وعند ذلك تحدث القطيعة الفعلية بينهما فقد انضم بذلك إلى صفوف القهر والظلم والطاغوت التى لا يصلح معه أى شىء من محاولات التجميل مثل ذهاب الزوج كل يوم سبت للتسرية عن النزيلات من خلال ألعابه البهلوانية. فالكارثة أكبر من محاولة تجميلها أو البحث عن الأسباب الموضوعية - ظاهريًا - التى تعلن عن وجودها ولا يصلح أى شىء معها إلا زوالها.

وإذا كانت قصص ماركيث تتسم بالبساطة فهي غالباً بساطة ظاهرية تحوى فى داخلها رموزاً معينة وواضحة، فهذه القصة "جئت لأتصل بالتليفون فقط" تبدأ بتلك العبارة "ذات مساء ممطر من أمسيات الربيع، وعندما كانت تسافر وحدها وهي تقود سيارة مستأجرة تعرضت سيارة ماريا لويث ثربانتس لعطل فى صحراء "مونيغروس" فهل ذلك المساء الممطر من أمسيات الربيع يعنى إشارة واضحة الظروف إلى التي سبقت الانقلاب العسكرى الذى قاده الجنرال الراحل فرانكو ضد الجمهورية الثانية التي علق عليها الكثير من عامة الشعب الأسباني آمالاً عريضة للخروج من الأزمة السياسية والاقتصادية التي عاشتها البلاد فى أواخر أيام ألفونسو الثالث عشر؟ وهل العطل الذى أصاب السيارة هو ذلك الانقلاب؟ كما أن الدير الذى تم تحويله إلى مستشفى للأمراض العقلية هل كان يمثل النظام الفرنكوى وبالتالي لم يكن هناك من حل إلا ذهابه وتحول البلاد إلى الحياة الديمقراطية بعد أن ترك النظام ندباً وجروحاً غائرة؟

إن المتأمل لكل أو لأغلب الإنتاج القصصى لماركيث سوف يجد صراعاً دائراً بين عنصرين فيهما إما تضاد كامل أو شبه كامل، فهي العقلية الأوروبية التي تعتمد على العقل كسبيل وحيد لتفسير كل شيء والتي تدخل فى صراع مع عقلية أخرى ترى العقل ضرورياً لكن ليس الطريق الوحيد لفهم كل ما يدور وتفسير جوهره. هناك صراع بين قوى الطغيان وقوى الحرية. هناك صراع بين الأغنياء والفقراء بين الفن والمادية، بين لحظة المخاض الغنى والحاجة اليومية للوفاء بلقمة العيش. فهي قصة "الأمسية المدهشة التي قضّاها بليتشار" تعكس لنا تلك الصراعات، إن أحداثها تدور فى فترة زمنية لا تتعدى الثمانية عشرة ساعة ابتداء من الانتهاء من صناعة "إبداع" أعظم وأجمل قفص للطيور

فى العالم، وىتم استخدام عنصر الزمن هنا بطرىقة تقلىدفة. ىنتهى بلىثار من صناعة القفص بعد أن قضى خمسة عشر يوماً ىسهم فىها كلىراً فى إنجاز هذا الإبداع الفنى ولم ىخلق ذقنه ولم ىكن ىنام بطرىقة طبقىفة. وإذا كانت زوفته مفاظلة لأنه أهمل العمل فى الورشة من أجل كسب لقمة العىش، فقد ذهب عنها الكدر فها هى القرفة كلها ىتحدث عن ذلك الإبداع الفنى العظم وهما هى الناس ىتوافد من كافة أرجاء القرفة لمشاهدة هذه ىحفة الفنىة. هذا هو نوع من الرضا الداخلى الذى سرعان ما ترجمته بمفاهمها العملية إلى محاولة للبحث عن الرخاء المادى، فعندما سألت زوفها "كم سىطلب ثمناً له؟ قال: لست أدرى سوف أطلب ثلاثفن بىزو وذلك حتى ىعطونى عشرفن. فردت علیه: علك أن ىطلب خمسفن فلقد سهرت لىال طوئلة خلال هذفن الأسبوعفن، كما أن القفص كبرى وأعتقد أنه أكبر قفص رأفته فى حفاى". لىست انىهازفة، ولكنها محاولة للخروج من عنق الزجاجة مثلما كان ىتخىل بلىثار عندما ذهب فى المساء إلى البار بعد أن سلم القفص لابن "شىبى مونىل" دون مقابى، وأخذ ىحلم وهو برفقة الصحاب والجران بأنه سوف ىقوم بصناعة أقفاص كلىرة وجمئلة وىبفعها للأغنىاء لىستولى على شىء من أموالهم وىصبع هو الآخر بدوره غنىاً. كان الجمفع ىحفظون به على أساس أنه ىمثل الأمل فى الخروج من وهدة الفقر والعوز والانىقام من الأغنىاء الذفن فقدوا الإحساس بالحفاة وىمن حولهم. شىبى مونىل ممنوع بأمر الأطباء من الانفعال - هذه لىست حفاة - وهو حرىص بشكل ىجعله ىنام القىلولة دون استخدام المروحة الكهربائفة لا لىوففر الطاقة الكهربائفة بل لما هو أخطر من ذلك وهو ألا ىغىب عن سمعه أى شىء مما ىحدث فى المنزل. لا ىرضخ أبداً أمام ىلهف ابنه على ملكفة أجمل قفص فى العالم، وعندما ىترك بلىثار القفص للطفل بلا مقابى،

وخجلاً منه يحتج ذلك الغنى بقوله متعجباً : "ما كان ينقصنى هو أن يأتى أى واحد ويصدر أوامره فى منزلى". هذا الغنى كان عليه أن يرعى الفن ولم يفعل ، كان عليه أن يكون على مستوى المسئولية نحو الآخرين ولم يفعل، أما بليتشار - فقد أخذته العزة، ودعا رفاقه إلى تناول البيرة وإلى سماع جهاز الموسيقى لمدة ساعتين. ولما لم يكن معه من النقود ما يكفى، استدان وترك ساعته رهناً ، وظل فى البار حتى ساعة متأخرة من الليل وقد انفض عنه أصحاب، وبينما هو متوجه إلى المنزل ويسير مترنحاً شعر بمن يحاول أن ينتزعه من حذاءه وكأئن البشر تحولوا إلى جوارح تلتهم الجيف، ومع ذلك لم يشأ أن ينسى أجمل حلم فى حياته ألا وهو الحلم بالتميز وتقدير المجتمع والعيش فى بحبوحة.

وإذا كانت الفئة الاجتماعية التى ينسب إليها خوسيه مونتيلى تعيش حالة استنفار من الفقر والفقراء وبعداً عن الحياة وخوفاً على أموالهم، فإن الطبيب المثقف يقف عاجزاً أمام الوفاء بما وعد به زوجته بالحصول على القفص فهو لا يملك الكثير من المال مثل خوسيه مونتيلى لكنه رجل يقدر الفن وأهله كثيراً، فقد أطرى على القفص لدرجة أنه قال: "يكفى أن يوضع القفص وسط الأشجار ليغنى" وأطرى على بليتشار قائلاً : "كان من الممكن أن تكون مهندساً بارعاً"

ولقد صور الراوى استحالة حصول الطبيب على القفص وأنه لم يرض بغيره بديلاً وإن فقدته، بأن أخذ "يجفف عرق رقبته مستخدماً منديلاً وهو يتأمل القفص فى صمت ودون أن يحرك ناظريه عن نقطة محددة كأنه إنسان يتأمل سفينة أخذت طريق السفر".

عندما يقوم ماركيث برسم ملامح الشخصيات يلجأ إلى ما هو ضرورى للغاية وذلك بغية خدمة الهدف المقصود، هذه الطريقة ضرورية

ملحة فى القصة القصيرة نظراً لأن الإيجاز والتكثيف من السمات الرئيسية لها. وقد رأينا رسم ملامح الشخصيات فى القصة التى أشرنا إليها، ويمكن أن نراه بوضوح أيضاً فى قصته "قيلولة الثلاثاء" فالمرأة يبدو أنها طاعنة فى السن وذلك لبروز "العروق الزرقاء فى منطقة الحواجب وفى أجزاء مختلفة من جسدها الصغير الطرى الذى لا تتضح معالمه" فهى عبارة عن كتلة صغيرة ليس بها أية جماليات. هذه هى الأوصاف الجسدية، أما اللبس فهو شديد البساطة عبارة عن "فستان يشبه ملابس القساوسة" أما ملامح الفقر البادية على الشخصية فقد تمثلت فى شنطة صغيرة من الجلد اللامع وقد تقشرت. إنها امرأة هادئة مثل هؤلاء الناس الذين تعودوا على الفقر، تتركب عربة الدرجة الثالثة التى تجرها قاطرة تنفث دخانها الملىء بذرات الفحم التى تدخل من نوافذ عربة القطار. طعامها قطعة من الجبن ونصف فطيرة من فطائر الذرة وقطعة بسكويت مسكرة. تمسح عرق وجهها بمسحة بأصابعها. لكنها شخصية قوية لها فلسفتها فى الحياة قامت بهذه الرحلة كنوع من تكريم ابنها الذى أصيب بطلق نارى وهو يحاول أن يسرق أحد المنازل فى تلك القرية بعد أن أعيته الحيل فى الحصول على لقمة العيش بطريقة شريفة. لم يكن الابن يفعل فى نظرها إلا الواجب المنوط به نحو إعالة أسرته رغم تعارض ذلك مع القوانين والأخلاقيات التى يخفى عليها رجال الدين. وأمام هذا الموقف استطاعت الأم بمفردها أن تواجه كافة أهل القرية التى لم يذكر جارتها ماركيث اسمها فهى مثل كل القرى بأنماط مبانيها وما فى داخلها من أثاث.

بقى لنا أن نشير إلى بعد آخر من الأبعاد التى تتجلى فى السرد القصصى لجابريل جارتيا ماركيث. ويمكن أن نذكر نموذجاً لها فى "الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب إيرينديدا وجدتها القاسية"، فرغم

أن القصة طويلة إذ تبلغ في بعض طبعاتها ثمان وأربعين صفحة فإن العبارة الأولى تفصح عن فحوى ما سيدور على سطورها. كما لوحظ انتقال الراوى فجأة من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم في مرحلة معينة من مراحل سرد هذه القصة. فالبعد الأسطورى يكاد يغزو كل شىء فيها، فالجدة قاسية القلب لدرجة لا تصدق، وهى ضخمة الجثة كأنها سبع البحر "يسبح فى حمام من الرخام" والحفيدة إيرينديدا لها قدرة عجيبة على أن تسحر البشر كافة بجاذبيتها الجنسية وهى قادرة على أن تنادى بأعلى صوتها الداخلى فيسمعها البطل - عليس - وهو على بعد كيلو مترات منها، وهى قادرة على أن تضاجع آلاف الرجال إلا أنها تحتفظ بطهارة القلب. الجدة هى تلك المرأة التى عندما تصارع البطل عليس يخرج الدم منها بلون أخضر - شىء لا يصدق - هى أيضاً "السيدة" أو "الهانم" - إن صح القول - وذلك فى إشارة واضحة إلى تأثير قصص الفروسية فى أوروبا العصور الوسطى وخاصة القصة الأسبانية "أماديس دى جولا" حتى زوجها كان اسمه "أماديس" تبلغ درجة الأسطورية فيها أن الفتاة تنام وهى تمشى، وتؤدى بعض الأعمال المنزلية. هذه الفتاة لها قدرة عجيبة على تفسير الأحلام التى تلعب هنا دوراً هاماً فى استحضار الماضى البعيد خاصة تلك التى تحلم بها الجدة، وكذلك فى التنبؤ بالمستقبل، وليس هذا فقط بل هناك وصل حميم بين حياة الوعى وحياة اللاوعى، فكلاهما مكمل للآخر، فعلاقات النوم عند الجدة هى أنها تبدأ تتحدث بصوت عال عن أمور حدثت وتحدث وسوف تحدث. هناك أيضاً عالم المهريين والقدرة العجيبة على زراعة برتقال به قطع الملس، والمنزل الملىء بالساعات التى كانت فى حاجة إلى ما لا يقل عن ست ساعات لضبطها وملئها.

إنها قصة تعكس تناغمًا عجيبًا بين عناصر الواقع سواء الممكنة الحدوث أو المستعصية.. وتناغمًا عجيبًا فيه بساطة مثيرة بين تأثير الثقافة الأسبانية والأوروبية والثقافة المحلية وهضمها كلها وإخراج عمل ينطق بأصالة الإبداع الذى هو السر الأساسى - بالإضافة إلى عناصر أخرى - فى تلك الشهرة التى طبقت الآفاق والتى استحقها عن جدارة ماركيث إلى جوار كتاب آخرين من أبناء أمريكا اللاتينية.

هوامش:

- 1 - Galvez - Marina "H. critica de la lite. Hispanica" (33)
Taurus - Madrid 1992 - pags 51 - 52 - 53 - 54
- 2 - د. على إبراهيم منوفى، "القصة القصيرة فى أسبانيا خلال فترة ما بعد الحرب الأهلية - مكتب الحسينى - القاهرة - ١٩٩٥
- 3 - P Walker Enrique Pupo
La trayectoria Y significacion del cuento Hispanamericano
- (El cuento Hispano. Ante la critica. Castalia Madrid p 1981
pags 9 - 10.
- 4 - Martinez cachero J.Ma -
Historia de la novela espanola entre 1936 y 1975
Castalic- Madrid pag. 198 y ss.
- 5 - Galvez - Marina op cit pag 17
- 6 - W.E Epupo op. cit. pag 11
- 7 - Alazraki - Jaime "Relectura de H. Q. (el cuento H. ante la critica op. cit pag 64.
- 8 - Valcarlal - Carmen de Mora enlas.
" Teoria y practica del cuento relatos ds Julio Cortazar..
Escuela de estudios hispano americanas (C.S.IC.)
Sevilla 1982 pag 23 ys.
- 9 - Par ej : Bermejo , Ernesto Gonzalez
Conversaciones con cortazar
Editotal Hermes - Mexico 1978
- 10 - Cortazar Julio
"Algunas aspectos del cuento"
Cuadernos Hispano- americanos n- 255
Marzo 197 - page 403 - 416
- 11 - Galvez - Marina, op. cit. Pag 14 y 15
- 12 - W. E. pupo op. cit. Pag 10

- 13 Munoz Antonia "Notas Sobre Los rasgos formales del cuento modernista. El cuento hispano americana ante la critica" op. cit pag. 53
- 14 Ibid pag 54
- 15 Galvez - Marina op. cit. Pag 150 - 151
- 16 د. حامد أبو أحمد، "قراءات في أدب أسبانيا وأمريكا اللاتينية" عرض تلخيص لتلك التوجهات في أكثر من موضع في هذا الكتاب - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٣ - ص ١٧١ والصفحات التي تليها.
- 17 "جابريل جارتيا ماركيث" ترجمة إبراهيم وصفي - طلامس للدراسات والترجمة والنشر - دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٦ ص ١٢٦ (ملاحظة) قمنا بنقل النص المترجم بتصريف.
- 18 نفس المصدر ص ٧٧
- 19 نفس المصدر ص ١١١ - ١١٣
- 20 نفس المصدر ص ٧١
- 21 نفس المصدر ص ٧١
- 22 Doce Cuentos peregrinos - Mondadori Barcelona - Segunda edicion 1992 pag 14
- 23 Ibid pag 14
- 24 Alazraki J. op. cit. Pag 66
- 25 Doce Cuentos .. op. cit pag. 14
- 26 Ibid pag 15
- 27 Ibid pag 15

الإذعان الثالث

(١٩٤٧)

ها هو ذلك الضجيج مرة أخرى، إنه الضجيج البارد والقاطع والرأسى الذى يعرفه كثيراً، غير أنه جاء هذه المرة أكثر حدة وألماً وكأنه، بعد انقطاعه عدة أيام، بدا وهو غير معتاد عليه. كان الضجيج يطوف فى أرجاء الجمجمة بصوت واخذ ومكتوم. كأنه خلية نحل وضعت بين الجدران الأربعة لرأسه. يزداد الضجيج ويعلو فى أشكال حلزونية متتابة، ويضربه بعنف لدرجة تهتز معها فقرات عمود الظهر اهتزازاً غير منتظم وغير متسق مع الإيقاع الطبيعى لجسده. لقد اختل شىء ما فى هيكله كإنسان ثابت البنيان. وهذا الشىء كان يؤدى عمله بانتظام "فى المرات السابقة" إلا أنه يدق الرأس من الداخل بعنف بضربات قوية ومكتومة من خلال عظام يد هيكل عظمى، وكأنه يذكره بكافة منغصات الحياة.

واتته الرغبة الغريزية فى إطباق قبضتى يديه والضغط على الصدغين اللذين تبرز منهما الشرايين الزرقاء والمحمرة بدرجة تتوافق مع ضغط الأمل الذى لا يتوقف. كم كان بوده أن يمسك بكفى يديه ذلك الضجيج الذى كان يحفز اللحظة مستخدماً إبرة حفر ماسية. وصدرت عنه حركة كأنه قط

أليف انكمشت عضلاته عندما تصوره، وكأن أركان دماغه الساخنة والمفزوعة تطارده. كان سيمسك به. لا. كان جلد الضجيج ناعماً لا يكاد يُحسّ. إلا أنه على استعداد للسيطرة عليه مستخدماً استراتيجيته التي تعلمها جيداً والضغط عليه طويلاً وبشكل حاسم كأنه إنسان فقد الأمل، ولن يسمح للضجيج أن يدخل مرة أخرى عبر أذنيه. وأن يخرج من فمه ومن كل مسامه أو من عينيه اللتين قد تهتزّان بشدة عند خروجه، وربما تفقدان الرؤية وهما تحدقان في هروب الضجيج من أعماق ظلمته الكثيرة. لن يسمح له بالاستمرار في الضغط بعنف على زجاج العين المطحون، وعلى البريق الصادر عنها وعلى الجدار الداخلى للجمجمة. هكذا كان ذلك الضجيج، لا يتوقف وكأنه طفل يضرب رأسه في حائط أسمنتى، مثله في ذلك مثل تلك الضربات الموجعة التي توجه ضد المكونات الثابتة في الطبيعة. لكنه لن يخيفه مرة أخرى إذا ما استطاع حصاره وعزله. ثم تقليص تأثيره والضغط عليه هذه المرة بشكل حاسم. وبعد ذلك يقوم بكل ما أوتى من قوة بالإلقاء به على البلاط، وأن يطأه برجليه بعنف حتى لا يستطيع الحراك حقيقة، ثم يقول وهو يلهث إنه استطاع قتل الضجيج الذى كان يؤرقه ويصيبه بالجنون، وها هو الآن ملقى على الأرض كأنه شيء مهمل مات موتاً كاملاً.

لكن كان من المستحيل عليه أن يضغط على صدغيه، إذ انكمش ذراعاه حتى أصبحا ذراعى قزم. هما ذراعان ممتلآن

صغيران. حاول أن ينفض رأسه فتمكن من ذلك وعندئذ ظهر الضجيج بمزيد من القوة داخل الجمجمة التى تصلبت وكبر حجمها وأصبحت ثقيلة جداً بفضل قوة الجاذبية. كان ذلك الضجيج قوياً وثقيلاً لدرجة أنه إذا ما تمكن منه وقضى عليه فكأنه يقوم بنزع أوراق وردة من رصاص.

كان يشعر بذلك الضجيج "فى المرات السابقة" بنفس الإلحاح، مثلما حدث له يوم أن مات لأول مرة، عندما رأى الجثة وأدرك أنها جثته.

أحس بأنه غير ملموس، ولا يحتل حيزاً، وغير موجود. كان جثة بالفعل، وكان يشعر بمرور الوقت على جسده الشاب السقيم. ازدادت وطأة الجو المخيم فى المنزل كله كأنه امتلأ بالأسمنت عن آخره. وفى وسط هذه الكتلة - التى ترك فيها الأشياء وكأنه جو ملىء بالهواء - كان موضوعاً هناك بعناية داخل التابوت الأسمنتى الصلب والشفاف. كان "ذلك الضجيج" فى تلك المرة داخل رأسه. يشعر آنذاك بأن باطن قدميه بعيدتان وباردتان. وفى الجانب الآخر من التابوت توجد مخدة، ذلك أن الصندوق كان لا يزال كبيراً عليه وكان من المناسب ملاءمة وضع الجسد الميت لللبسه الجديد والأخير. لقد لفوه بالقماش الأبيض وربطوا فكاه لرأسه بواسطة منديل، يشعر بأنه وسيم وهو ملفوف فى كفنه، بدرجة مميتة.

كان مسجى في نفسه ومجهزاً للدفن، ومع ذلك كان يعرف أنه لم يكن ميتاً، وإذا حاول النهوض لاستطاع ذلك بكل سهولة ولو بشكل "روحي" لكن لم يكن الأمر يستحق، إذ كان من الأفضل أن يترك نفسه ليموت هناك، يموت "بالموت" إذ كان ذلك داءه. لقد قالها الطبيب مباشرة لوالدته منذ زمن :

- سيدتى : إن طفلك مريض بداء خطير : إنه ميت، ثم واصل قائلاً، لكن سنفعل كل ما فى وسعنا للحفاظ على حياته فيما بعد الموت، وسوف نتمكن من أن تستمر وظائفه العضوية من خلال نظام معقد للتغذية الذاتية، وما سوف يتغير فقط هو تلك الوظائف الدافعة أى الحركة الطبيعية، سوف نعرف مسار حياته من خلال النمو الذى سيسير فى طريقه المعتاد، إنه مجرد "موت حى" هو موت فعلى وحقيقى.

كان يتذكر الكلمات ولكن بشكل فيه إبهام، وربما لم يسمع هذه الكلمات أبداً ولم تكن إلا بدءاً من وحي خياله عندما ترتفع حرارة جسمه بسبب حمى التيفود.

أى عندما يلفه الهذيان، وعندما يقرأ تاريخ الفراغة المحنطين، وعندما ترتفع حرارته، كان يشعر بأنه بطلها، وفى هذه المرة بدأ يعترى حياته نوع من الفراغ. وعندها لم يكن باستطاعته تمييز أو تذكر ماهية الأحداث التى تنسب إلى حالة الهذيان وماهية الأحداث التى تنسب لحياته العقلية، ولهذا داخله شك فى هذه

اللحظة، فربما لم يتحدث الطبيب أبداً عن هذا "الموت الحى" الغريب. إنه غير منطقي وغير متسق، أى ببساطة ملىء بالتناقض، وهذا ما جعله يشك فى أنه ميت بالفعل وكان موته منذ ثمانية عشر عاماً.

ومنذ تلك اللحظة - كان يبلغ السابعة عندما توفى - أمر أمه بأن تصنع له تابوتاً صغيراً من الخشب الأخضر، أى تابوت لطفل، غير أن الطبيب أمر بأن يصنع صندوق أكبر حجماً يتسع لجسد إنسان بالغ. ذلك أن التابوت الصغير يمكن أن يعوق النمو، ويصبح ميتاً معوجاً أو حياً غير طبيعى - أو لأن إيقاف النمو سوف يحول دون ملاحظة التحسن. فما كان من الأم إلا العمل بالنصيحة واللجوء إلى صناعة صندوق خشبى كبير يصلح لجة شاب بالغ ووضعت فيه ثلاث مخدات عند القدمين لملء الفراغ الموجود.

وسرعان ما بدأ نموه داخل الصندوق لدرجة أنه كلما مر عام كانت المخدات تُفرغ من بعض ما بها من الحشو لإيجاد مساحة للنمو. قضى وهو على هذا الحال أعواماً كثيرة، ثمانية عشر عاماً (كان عمره الآن خمسة وعشرون عاماً)، ووصل نموه إلى طول قامته الطبيعى، لقد أخطأ الطبيب والنجار فى تقديرهما وبالتالي كان التابوت كبيراً بحوالى نصف متر عن المطلوب، إذ تصورا أن قامته ستكون مثل قامة والده الذى كان يشبه العملاق، لكن لم

يكن كذلك، فالشيء الوحيد الذى ورثه عنه هو أنه كثر اللحية. كانت لحيته زرقاء غزيرة واعتادت أمه أن تحلقها له حتى تراه بشكل جميل وهو فى تابوته. كانت تلك اللحية الزرقاء تضايقه بشدة أيام القيظ.

لكن كان هناك أمر آخر يزيد من قلقه: إنه ذلك الضجيج، إنها الفئران. فمنذ طفولته كانت الفئران من أشد الحيوانات التى تثير فزعها. كانت تلك الحيوانات القذرة قد جاءت تتحسس رائحة احتراق الشمع الموضوع عند قدميه، وقرضت ثيابه، وكان يعرف أنها سرعان ما ستقرضه هو وتأكل جسده، تمكن من رؤيتها ذات يوم. كانت خمسة فئران مليئة بالحياة، ناعمة الملمس، تصعد إلى التابوت من خلال أرجل المائدة وتأخذ فى التهامه، وعندما ستدرى والدته بما يجرى فلن يتبقى منه إلا البقايا والعظام الجامدة والباردة.

وأكثر ما يثير فزعها لم يكن التهام الفئران له، فسوف يظل يعيش من خلال هيكله، بل إنه الفرع الغريزى الذى كان يشعر به تجاه تلك الحيوانات الصغيرة. كان يقشعر جلده لمجرد التفكير فى هذه المخلوقات غزيرة الشعر التى تصول فى أنحاء جسده وتسرى فى جلده وتلمس شفثيه بقوادمها الباردة. وقد وصل أحدها إلى أهدابه وحاول قرض القرنية، رآه ضخماً وفضيئاً وهو يحاول جاهداً أن يقرض شبكية العين. وعندئذ اعتقد موتاً جديداً واستسلم بالكامل لوشوك السقوط.

تذكر أنه قد وصل سن البلوغ، فقد أصبح عمره خمسة وعشرين عاماً، وكان هذا يعنى أنه لن ينمو أكثر من ذلك، وأصبحت ملامحه ثابتة وجادة، لكن عندما يشفى فقد لا يتمكن من الحديث عن طفولته، لم يعيش طفولته.. فقد قضاه ميتاً.

كان اهتمام الأم به بالغاً خلال المرحلة الانتقالية من الطفولة إلى اليقظة. إذ اهتمت بنظافة التابوت والحجرة نظافة كاملة، فكانت تغير الزهور فى المزهريات وتفتح النوافذ كل يوم ليدخل الهواء الرطب. ويا له من رضا يعتلى وجهها عندما كانت تراجع المقاس، فبعد كل مرة يتضح لها أنه نما عدة سنتيمترات. كان يظهر عليها رضا الأمومة عندما تعرف أنه حي، واهتمت أيضاً بالألا يكون هناك غرباء فى المنزل. إذ كان من الغريب، وغير المناسب، أن يكون هناك ميت موضوع فى حجرة منزل لأعوام طويلة. كانت امرأة متفانية، لكن سرعان ما أخذت تشعر بشبوط الهممة. فقد رآها فى الأعوام الأخيرة وهى تنظر بتعاسة إلى شريط المقاس، فطفلها لم يعد ينمو. ولم يطرأ أى تغيير على نموه خلال الشهور التالية. كانت أمه تدرك أنه من الصعب عليها فى هذه اللحظة مراقبة الحياة فى ميتها العزيز. كانت تخشى أن تصحو ذات يوم وقد أصبح ميتاً "بالفعل". وربما لهذا السبب استطاع رؤيتها وهى تقترب من التابوت بحرص وتشم رائحة جسده. كانت قد أخذت تعيش أزمة إحساس بالتعاسة، وفى الفترة الأخيرة

لم تعد تهتم به لدرجة أنها لم تكن تقيس الجثة، إذ عرفت أنه لن ينمو كثيراً.

كان يعرف أنه مات "بالفعل" ويدرك ذلك من خلال ذلك الهدوء الذى يلف جسده. تغير كل شىء بشكل غير ملائم، فالنبض الواهن الذى كان يشعر به قد ذهب الآن وكان يشعر بالثقل وأن هناك قوة تناديه بشدة وتجذبه إلى المواد الأولية للأرض. بدت قوة الجاذبية أن تأثيرها الآن لا مناص منه، كان ثقيلًا كأنه جثة قائمة لا تدحض غير أنه كان أكثر راحة فى هذا الوضع لدرجة أنه لم يكن عليه أن يتنفس ليعيش موته.

وعبر الخيال ودون أن يلمس نفسه تحسس أعضاء جسده واحداً واحداً، كانت رأسه هناك ترقد على مخدة غير طرية، وقد مالت إلى اليسار قليلاً. تصور فمه وهو مفتوح بعض الشىء بسبب التيار الخفيف البارد الذى يملأ حنجرتة بحبات الثلج. كان مشقوقاً كأنه شجرة عمرها خمسة وعشرون عاماً. وربما حاول إقفال فمه. فقد انحل قليلاً رباط المنديل الذى يحيط بفكه. لم يتمكن من وضع نفسه جيداً أو اتخاذ "وضع" بحيث يبدو ميتاً مهتدم الشكل. فالعضلات والأعضاء لم تعد تستجيب بدقة لنداء جهازه العصبى. لم يكن ذلك الطفل الذى كان منذ ثمانية عشر عاماً حيث كان يتحرك بالشكل الذى يرتضيه. شعر بذراعيه ملقيين بشكل أبدي وملتصقتين بحوائط التابوت المبطنة، أما بطنه

فقد تصلبت كأنها لحاء شجرة جوز. وها هي هناك ساقاه كاملتان كأنهما مؤشر على وصوله إلى سن البلوغ. كان جسده مسجى يملؤه ثقل، غير أنه لا تبدو عليه علامات الضيق، وكأن الدنيا توقفت فجأة، ولم يقم أحد بكسر حاجز الصمت. كأن كل رثتين على ظهر الأرض قد توقفتا عن التنفس حتى لا تعكر الهدوء الناعم للهواء. كان يشعر بالسعادة كأنه طفل استلقى على ظهره فوق الحشائش الغضة والكثيفة، وأخذ يتأمل سحابة وهي تمر مبتعدة عبر سماء ما بعد الظهر. . كان سعيداً رغم أنه كان يدرك أنه ميت وأنه مسجى بشكل أبدي في الصندوق المغطى بالحرير الصناعي. كان يشعر بشفافية كبيرة. لم يكن مثل الحالة السابقة، بعد موته الأول، حيث كان يشعر بأنه في علبة وأنه فظ. الشموع الأربعة التي أشعلوها من أجله والتي كانت تتغير كل ثلاثة أشهر أخذت تتآكل وتخبو وخاصة عندما لم تعد لها جدوى. شعر بأنه بجوار أزهار البنفسج الرطبة التي وضعتها أمه ذلك الصباح، شعر بتلك الرطوبة في الورود وفي أزهار السوسن.

لكن هذه الحقيقة الرهيبة لم تجعله يشعر بأي قلق، بل على العكس، كان يشعر بالسعادة هناك وهو وحده مع وحدته. أما شعر بالخوف بعد ذلك؟

من يدري؟ كان من الصعب التفكير في نفس اللحظة التي كان القادوم يهوى فيها على المسامير لتدخل في الخشب الأخضر

فيزداد حفيف التابوت على أمل يقينى بأن يصبح من جديد شجرة خضراء . جسده الآن مشدود بقوة لنداء الأرض . فسوف يوارى فى حفرة رطبة وطينية وطينية وفوقه سوف تكون هناك أربعة أمتار مكعبة ثم يقوم اللحدون بالدمدمة . لا . هناك لن يشعر بالخوف ، فذلك هو استمرار لموته وهو الاستمرار الأكثر طبيعية لحالته الجديدة .

لن تبقى فى جسده أية حرارة فسوف يعترى البرد الأبدى نخاعه ، وسوف يتجمد كل شئ حتى نخاع العظام - يا لها من راحة عندما يتعود على حياته الجديدة ميتًا . ومع ذلك ففى يوم من الأيام سوف يشعر أن بنيته القوية سوف تنهار . وعندما يحاول استدعاء ومراجعة كل واحد من أعضائه فلن يجد أيًا منها . وسوف يشعر أنه ليس له شكل محدد كما سيعرف ، ويستسلم لذلك ، لقد فقد الملامح الكاملة التى تدل على بلوغه خمسة وعشرين عامًا وتحول إلى حفنة تراب ليس لها شكل معين أى بدون أى هوية هندسية .

إنه فى التراب التوراتى للموت . وربما قد يشعر حينذاك بنوع من الحنين ، ألا يكون جثة لها ملامحها ، بل جثة متخيلة ومجردة ولها ملامح فى المخيلة الباهتة لأقربائه . وسوف يعرف آنذاك أنه سوف يصعد عبر الخاصية الشعرية فى شجرة تفاح وسوف يستيقظ وقد أخذ الجوع بعضه كأنه طفل استيقظ ذات

صباح من أيام الخريف. سوف يعرف أنه فقط وحدته العضوية وهذا ما كان يحزنه، فهو ليس مجرد ميت عادي، بل هو مجرد جثة.

قضى آخر ليلة وهو يشعر بسعادة، مرافقًا جثته :

لكن عندما دخلت أشعة الشمس في اليوم التالي عبر النافذة المفتوحة شعر أن جلده اعترته طراوة جديدة. أخذ يرقب الموقف هنيهة، كان ساكنًا ومتصلبًا. ترك الهواء يسرى فوق جسده، لم يشك لحظة واحدة في وجود "الرائحة". فأثناء الليل أخذت الجيفة تحدث أثرها. إذ أخذت أعضاء جسمه في التفكك والتحلل مثل جثث كل الموتى. كانت "الرائحة" هي رائحة لحم نتنه تذهب ثم تعاود المجيء بقوة. لقد تحلل جسده بفضل حرارة الليلة السابقة: نعم. كان يتحلل وقد تأتي أمه في غضون ساعات قليلة لتقوم بتغيير الزهور وسوف تتعرض عن قرب لسياط اللحم المتعفن. وعندئذ سوف يحملونه إلى موته الثاني بين باقي الأموات.

لكن سرعان ما قام الخوف بتسديد طعنة له في الظهر. الخوف يا لها من كلمة عميقة وذات دلالة، ها هو خائف يعترية خوف "ملموس" وحقيقى. إلام يرجع ذلك؟ كان يفهم ذلك جيدًا وكان لحمه يرتعش: ربما لم يكن ميتًا، فقد وضعوه هناك في ذلك الصندوق الذى يشعر به الآن طريًا ومبطنًا ومريحًا

لدرجة كبيرة، ثم قام شبح الخوف وفتح له نافذة الواقع : كانوا سيدفنوه حيًّا

لا يمكن أن يكون ميتًا، ذلك أنه كان يعي كل شيء : الحياة التي تدور أحداثها من حوله بكل ما فيها من همهمة . وكذلك بالرائحة الدافئة التي تحملها أشعة الشمس التي تنفذ عبر النافذة المفتوحة وتختلط " بالرائحة " الأخرى . كان يعي جيدًا ببطء، سقوط المياه في البحيرات وبصرير الجدد الذي قبع في الركن وظل يصدر أصواته ظنًا منه أنه الفجر كان مستمرًا .

كان كل شيء يشعره بأنه لم يمت ما عدا " الرائحة " لكن كيف له أن يعرف أن تلك الرائحة هي المنبعثة منه؟ فربما نسيت أمه تغيير المياه في الأواني ليلة البارحة، وبذلك كانت سيقانه تتعفن . وربما كانت تلك رائحة الفأر الذي جلبه القط ووضعته إلى جواره فأخذت الحرارة تحدث تأثيرها فيه . لا ، لا يمكن أن تكون هذه الرائحة صادرة عن جسد .

كان سعيدًا مع موته منذ بضع لحظات لظنه أنه ميت، فالميت يمكن أن يكون سعيدًا مع وضعه الذي لا مناص منه . لكن الحي لا يمكن أن يُدعى حتى يدفن حيًّا . ومع ذلك لم تكن أعضاؤه تستجيب لندائه . لم يكن قادرًا على التعبير وهذا ما كان يفزعه . إنه أكبر شيء يشير فزعه في الحياة والموت . قد يدفنوه حيًّا . يمكن أن يشعر وأن يعي أنهم يدقون المسامير في النعش يمكن أن يشعر

بالخواء فى الجسد الذى يحمله الأصدقاء على أكتافهم بينما يتعاضم عنده الكدر وفقدان الأمل مع كل خطوة فى الجنازة .

سوف يحاول النهوض ولكن بلا جدوى وأن ينادى بأعلى صوته الذى ذهب وأن يضرب النعش المظلم والضيق حتى يعرفوا أنه كان لا يزال حياً وأنهم كانوا سيدفنونه حياً . من غير المجدى ، ها هى أعضاؤه لا تستجيب للنداء العاجل والأخير لجهازه العصبى .

سمع ضجيجاً فى الحجرة المجاورة . هل هو نائم؟ هل كانت حياة الميت هذه كابوساً؟ لكن ضجيج الأوانى لم يستمر ، شعر بالحزن وربما أصابه الكدر لذلك . كم كان يود لو أن كل أوانى الدنيا كلها تنكسر بضربة واحدة هناك إلى جواره حتى يستيقظ من أجل قضية خارجية ذلك أن إرادته فشلت تماماً .

لكن لا . لم يكن ذلك حلمًا ، كان واثقًا أنه لو كان كذلك فلم تكن لتفشل المحاولة الأخيرة للعودة إلى الواقع . قد لا ينهض مرة أخرى ، كان يشعر بطراوة التابوت ، أما الرائحة فقد عادت الآن بمزيد من القوة ، بل بكل قوة لدرجة أنه كان يشك أنها رائحته هو ، كان يود لو يرى أقرباءه قبل أن يبدأ فى التحلل ، أما منظر اللحم المتعفن فجعله يشعر بالتقزز ، وسوف يهرب الجيران مفزوعين من النعش وقد وضعوا المناديل على أفواههم . وقد يتقيئون . لا . ليس هذا . كان من الأفضل أن يدفنوه . كان من

المستحب الخروج من هذا الموقف بأقصى سرعة. وهو نفسه يريد أن يتخلص من جثته. كان الآن يشعر بأنه ميت بالفعل أو أنه حي ولكن بشكل غير ملحوظ، الأمور تستوى في هذا المقام. وعلى أى الأحوال فقد كانت "الرائحة" هناك ولا تزال.

وسوف يستمع مدعنا لآخر الصلوات وأخر العبارات اللاتينية التي يرددها خدام الكنيسة. وسيوف ينفذ البارد الملىء بالتراب وعظام المقابر إلى عظامه، وربما يتضاءل بعض الشيء تأثير هذه "الرائحة" النفاذة. ومن يدر فرما يؤدي حلول اللحظة - إلى خروجه من هذه الظلمة. عندما يشعر أنه يقوم فى عرقه، فى تلك المياه الكثيفة اللزجة مثلما حدث له ذلك قبل مولده وهو فى رحم أمه، فقد يكون حياً.

لكن سيكون مدعنا للموت فرما مات إذعاناً.

عينا كلب أزرق

(١٩٥٠)

نظرت إلىّ عندئذ. كنت أظن أنها تنظر إلىّ لأول مرة، وبعد ذلك، فعندما استدارت من خلف الشمعدان، كنت لا رلت أشعر بنظرتها الناعمة البراقة على أكتافى وخلف ظهري. عندئذ أدركت أنني أنا الذى كنت أراها لأول مرة. أشعلت سيجارة وابتلعت الدخان القوى الفظ قبل أن أدور بالمقعد حتى يستند إلى واحدة من الأرجل الخلفية. وبعد ذلك رأيته هناك، مثلما هو الحال فى كل الليالى، تقف إلى جوار الشمعدان، ترمقنى. وظل كلانا لبضع دقائق لا يفعل أكثر من هذا: ينظر كلانا للآخر، أنظر أنا إليها من على الكرسي الذى جعلته يثبت على إحدى أرجله الخلفية، أما هى فواقفة تسند يدها الطويلة بهدوء على الشمعدان وتنظر إلى. كنت أنظر إلى أهدابها المضاءة مثل كل الليالى، وعندئذ تذكرت العبارة المعهودة عندما قلت لها : "عينا كلب أزرق" فقالت لى "أبدأ" خرجت عن المدار المألوف وهى تنهد : "عينا كلب أزرق. كتبتُ هذه العبارة فى كل مكان".

رأيته وهى تتجه صوب التسريحة ورأيته من خلال المرآة المستديرة وقد أخذت تنظر إلى الآن والضوء يذهب ويجىء بدقة حسابية. رأيته وهى تواصل النظر إلى بعينيهما الكبيرتين كأنهما

الجمرات المتقدة ! كانت تنظر إلى وهى تفتح الصندوق الصغير المطعم بالصدف الوردى . رأيتها وهى تضع المسحوق على أنفها . وعندما انتهت أغلقت الصندوق ثم نهضت واتجهت من جديد صوب الشمعدان وهى تقول : " أخشى أن يحلم أحد بهذه الحجرة ويبعثر حاجياتى " وفوق الشعلة مدت يدها الطويلة والمرتعشة ، والتى كانت تقوم بتدفئتها قبل الجلوس إلى التسريحة . وقالت : " أنت لا تشعر بالبرد " فقلت لها " أحياناً " فقالت لى : " يجب أن تشعر به الآن " وعندئذ أدركت لماذا لم أتمكن من البقاء وحدى فى المقعد . كان البرد هو الذى يؤكد لى حقيقة وحدتى ، فقلت : " الآن أشعر به وهذا غريب ذلك أن الليلة كانت هادئة وربما كنت ملتقاً جيداً بالملاءة " . فلم تجب ثم أخذت تتحرك بعد ذلك متوجهة نحو المرأة ، أما أنا فعدت للاستدارة على المقعد معطياً ظهري إياها . كنت أعرف ما تفعله دون أن أراها . كنت أعرف أنها عادت لتجلس إلى المرأة من جديد وهى تنظر إلى ظهري الذى كان لديه متسع من الوقت ليصل إلى عمق المرأة ويلتقى بنظراتها ، التى كانت لديها هى الأخرى الوقت الكافى للوصول إلى عمق المرأة ، والعودة من جديد قبل أن يتوفر الوقت للبدء بالعودة مرة أخرى ، لتلتقى بالشفاه ، الموضوع عليها اللون الأحمر القانى ، مع أول حركة دوران للبد فى المرأة . كنت أرى أمامى الحائط الأملس الذى يشبه مرآة أخرى لكنها معتمة ، ولم أكن أراها - وهى تجلس خلف ظهري - لكنى أتصورها

وكانها قد وضعت مرآة مكان الحائط . فقلت لها : " أراك " ورأيت
فى الحائط كأنها رفعت ناظريها ، وأن ظهري و رأسى وأنا جالس
فى عمق المرآة ، متوجهان صوب الحائط ، وبعد ذلك رأيتها
وهى تخفض أهدابها مرة ثانية وتظل عيناها ثابتتين فى
محاجرهما ، ولم تنبس بكلمة . أما أنا فعدت لأقول " أراك "
فعادت هى لترفع ناظريها وهما فى محجريهما ثم قالت :
" مستحيل " . فسألت لماذا؟ فقالت ، وعيناها ثابتتان فى مكانهما :
" ذلك أن وجهك متجه صوب الحائط " . عندئذ استدرت بالمقعد ،
وكنت أمسك بالسيجارة بين شفتى ، وعندما أصبحت أمام المرآة ،
كانت هى تقف خلف الشمعدان من جديد . ها هى الآن تقترب
بكفيها من اللهب كأنهما جناحا دجاجة مفرودين فى حالة الشواء .
أما وجهها فكان يرى من خلال أصابعها " أعتقد أننى سأعرض
لبرد شديد . لا بد أن هذه الليلة جليدية " . ودارت بوجهها بعض
الشيء حتى أصبح فى صورة جانبية ، أما جلدها المحمر فقد اعتراه
حزن مفاجئ . " افعلى شيئاً حيال هذا " قلت فقامت هى بخلط
ملابسها قطعة تلو الأخرى بادئة بالقطع العلوية . فقلت لها
" سوف أوجه رأسى للحائط " فقالت " لا . فأنت على أى
الأحوال سوف ترانى مثلما رأيتنى وظهرك لى " ولم تكذ تنتهى
من عبارتها حتى أضحت شبه عارية وأخذ اللهب يلحق جلدها
النحاسى الممتد . " لطالما وددت أن أراك هكذا دوماً وقد امتلأ جلد
بطنك بالتجاعيد وكأنما اخترقته عدة رصاصات " . وقبل أن أدرك

أننى أتعثّر فى العبارات التى أتفوه بها أمام عريها سكنت هى بلا حراك وأخذت تدفىء نفسها على نار الشمعدان وقالت : " أحياناً أتصور أننى من معدن " صمتت لحظة . تغير وضع اليدين على اللهب بعض الشيء فقلت " فى أحلام عشتها أحياناً شعرت أنك لست إلا تمثالاً صغيراً من البرونز قائم هناك فى ركن فى أحد المتاحف . ولهذا ربما تشعرين بالبرد " فقال " عندما أنام على جانبي الأيسر حيث القلب أشعر أحياناً أن جسدى مفرغ وأن جلدى عبارة عن إحدى الرقائق وعندئذ يضربنى الدم بعنف من الداخل وكأن هناك من ينادينى بطرقات بعقد أصابعه على بطنى أشعر حينئذ بصوتى النحاسى وأنا فى السرير . كأننى مثلما قلت : " من رقائق معدن " ثم ازداد اقترابها من الشمعدان فقلت " كم بودى لو أسمعك " فقالت " إذا ما التقينا ذات مرة فضع أذنك على ضلوعى عندما أنام على جانبي الأيسر وسوف تسمع رنينى . لطالما رغبت أن تفعل ذلك ذات مرة " سمعتها وهى تتنفس بعمق عندما كانت تتحدث وقالت إنها ظلت لسنوات تفعل نفس الشيء ، فقد كرسّت حياتها لتلتقى بى فى عالم الواقع من خلال هذه الجملة المتفق عليها : " عينا كلب أزرق " وكانت تسير فى الشارع وهى تردد ذلك بصوت مرتفع ، ولم تكن إلا وسيلة للحديث إلى الشخص الوحيد الذى يمكن أن يفهمها . " أنا التى آتى إلى أحلامك كل ليلة وتقول لك هذا : عينا كلب أزرق " وقالت بأنها كانت تذهب إلى المطاعم وتقول للعاملين هناك قبل أن تطلب ما تريد : " عينا

كلب أزرق" لكن الشباب كانوا يعيرونها الاحترام والتوقير، لكن دون أن يتذكروا ولو لمرة أنهم قالوا هذا فى أحلامهم. ثم تكتب بعد ذلك على المناديل الورقية وتقوم باستخدام السكين لتكتب نفس العبارة على دهان الموائد: "عينا كلب أزرق"، وكذلك وعلى الزجاج المترب للمحطات. وعلى كل المباني العامة. كانت تخط بسبابتها "عينا كلب أزرق" وقالت إنها ذات مرة دخلت محلاً لبيع المنظفات والعطور ولاحظت وجود نفس الرائحة التى أحست بها فى حجرتها ذات ليلة بعد أن حلمت بأنها معى. "لابد أنه قريب" أخذت تفكر وهى تنظر إلى البلاط الجديد اللامع للمحل وعندئذ اقتربت من البائع وقالت له: أحلم دائماً برجل يقول لى: "عينا كلب أزرق" وقالت بأن البائع نظر إلى عينيها وقال إننى فى حاجة لأجد الرجل الذى قال لى هذه العبارة فى الحلم" فما كان من البائع إلا أن أطلق العنان لضحكاته وتحرك إلى الجانب الآخر من الحاجز أما هى فظلت تحملق فى البلاط اللامع النظيف وتشعر بالرائحة. ثم فتحت شنطتها وركعت ثم أخرجت إصبع أحمر الشفاه ذى اللون الأحمر القانى وكتبت على البلاط بحروف كبيرة "عينا كلب أزرق" فعاد البائع من جديد وقال لها "لقد اتسخ البلاط بسببك يا آنستى" وسلم لها خرقة قماش مبللة وقال لها "عليك بتنظيفه" فقالت، وهى لا تزال إلى جوار الشمعدان، بأنها فضت عصر اليوم كله وهى جالسة

القرفصاء وتقوم بغسل البلاط وتردد " عينا كلب أزرق " حتى تجمع الناس حولها على الباب وقالوا بأنها مجنونة .

وعندما انتهت من الكلام كنت قابلاً في الركن وأنا أقوم بإحداث التوازن في المقعد . فقلت " إننى أحاول أن أتذكر كل يوم العبارة التى أجدها بها . وأعتقد أننى لن أنساها غداً ، ومع ذلك فقد قلت نفس الكلام ثم نسيت عند استيقاظى ما هى الكلمات التى أجدها بها " فقالت " أنت نفسك ابتكرتها منذ أول يوم " فقلت لها " لقد اخترعتها لأننى رأيت عينيك كأنهما جمرتان لكننى لا أتذكرها أبداً فى اليوم التالى " أما هى فقد ظلت إلى جوار الشمعدان وقبضت كفيها وتنفست بعمق : " آه لو تذكرت اسم المدينة التى كتبت تلك العبارة فيها " .

كانت أسنانها المطبقة على بعضها البعض تتلألأ من جراء اللهب . فقلت : " يطيب لى أن أمسك الآن ، فرفعت وجهها حيث كانت تتأمل الشعلة . ورفعت النظرة المشتعلة التى تحترق مثلها ومثل يديها . أما أنا فشعرت أنها رأتنى فى ذلك الركن الذى أجلس فيه وأنا أتأرجح على المقعد " وقالت " لم تقل لى أبداً هذه العبارة " فقلت " أقولها الآن وهذه حقيقة " ، فطلبت سيجارة وهى تجلس على الجانب الآخر من الشمعدان . واختفت بقايا السيجارة من بين أصابعى وكنت قد نسيت أننى أدخن . قالت " لست أدري لماذا لا أتمكن من تذكر المكان الذى كتبت فيه العبارة " فقلت لها

"وهو نفس السبب الذى ينسينى الكلمات صباح اليوم التالى"
فقلت بصوت حزين "لا . أحيانًا ما أشعر أننى حلمت بذلك
أيضًا" نهضت من مقعدى وسرت متوجهًا نحو الشمعدان . كانت
هى بعيدة بعض الشيء أما أنا فظللت أسير وأنا أحمل السجائر
والكبريت فى يدى ولم أتحاوز الشمعدان ، فمددت يدى لها
بالسيجارة فأمسكت بها بين شفتيها ثم مالت لتشعلها من اللهب
قبل أن أتمكن أنا من إشعال عود الكبريت وقلت "لا بد وأن هذه
العبرة مكتوبة فى مدينة ما فى هذا العالم : "عينا كلب أزرق" .
وإذا ما تذكرتها غدًا سوف أذهب إلى هناك بحثًا عنك . عادت
لترفع رأسها من جديد وقد أشعلت سيجارتها وهى فى فمها
"عينا كلب أزرق" قالتها وهى تنهد وتتذكر وقد مالت السيجارة
نحو ذقنها . وأقفلت ، بعض الشيء ، إحدى عينيها . ثم استنشقت
الدخان بعد ذلك وقد أصبحت السيجارة بين إصبعيها وصاحت
"لقد تغير الأمر ، الآن أصبحت أشعر بالدفع" قالتها بنبرة فيها
دفع وهروب ، وكأنها لم تنطق بذلك حقيقة بل كأنها دونتها على
ورقة ثم اقتربت بها من اللهب بينما أنا أقرأ : "أنا أشعر - وكأنها
تمسك بما بقى من الورقة بين السبابة والإبهام وتطوحها وهى
تشتعل ، أما أنا فقد قرأت "بالدفع" قبل أن تحترق الورقة تمامًا
وتسقط على الأرض وقد انكمشت وصغر حجمها وتحولت- إلى
رماد لا قيمة له ، فقلت "هذا أفضل ، فأحيانًا أشعر بالخوف وأنا
أراك هكذا ترتعشين إلى جوار الشمعدان" .

كنا نرى بعضنا البعض منذ عدة سنوات . وأحياناً عندما نكون سوياً . كان هناك أحد ما يترك ملعقة صغيرة تسقط فتحدث رنيناً نستيقظ على أثره . وشيئاً فشيئاً أخذنا ندرك أن صداقتنا مرهونة بالأشياء والأحداث البسيطة . كانت لقاءاتنا تنتهى دوماً بهذا الشكل ، أى بسقوط ملعقة صغيرة فجراً .

وعندما وصلت إلى جانب الشمعدان كانت ترمقنى . أتذكر أنها كانت تنظر إلىّ قبل ذلك بنفس الطريقة فى ذلك الحلم البعيد الذى قمت فيه بجعل المقعد يلف على الأرجل الخلفية . ووجدت نفسى أمام امرأة مجهولة ذات عينين رماديتين . وفى ذلك الحلم سألتها لأول مرة " من أنت؟ " فقالت لى " لا أتذكر " فقلت لها " لكن أعتقد أننا رأينا بعضنا قبل ذلك " فقالت غير مبالية : " أعتقد أننى حلمت ذات مرة بك فى نفس هذه الحجرة " فقلت لها " هو ذاك ، الآن أتذكر الموقف " فقالت " يا له من أمر عجيب حقاً لقد التقينا فى أحلام أخرى " .

أخذت من السيجارة نفسين ، أما أنا فظللت على حالى ساكناً أمام الشمعدان عندما أخذت أرمقها فجأة . نظرت إليها نظرة غطتها من أعلى إلى أسفل . وكانت لا تزال من النحاس . لكنه ليس المعدن الصلب والبارد ، بل إنه نحاس أصفر وطرى وقابل للتطويع . وعدت لقول هذه العبارة " أود لو ألمسك " فقالت " إنك تغامر بفقدان كل شيء " فقلت " لا يهم الآن ، يكفى أن يتقلب

كل منا على المخدة فالتقى مرة أخرى " ومددت يدي من فوق الشمعدان . لكنها لم تتحرك وعادت لتقول " إنك تغامر بفقدان كل شيء " قالتها قبل أن أتمكن من ملامستها " وإذا ما استدرت وأنت خلف الشمعدان فربما نستيقظ فزعين ، ومن يدرى أين سيكون هذا فى أى مكان من العالم . لكنى عدت أصر " لا يهم " فقالت " إذا ما تقلبنا على المخدة فسوف نلتقى من جديد لكنك سوف تنسى ذلك عندما تستيقظ . وأخذت فى التحرك صوب الركن . وظلت هى فى المؤخرة تقوم بتدفئة يديها على اللهب . ولم أكد أصل إلى المقعد حتى سمعتها تقول " عندما أستيقظ فى منتصف الليل يتأبى الأرق وأنا فى سريري وكأن قماش المخدة إبر تخدنى فى ركبتى وأظل هكذا حتى الصباح : " عينا كلب أزرق " .

عندما وضعت وجهى صوب الحائط " ها هى تبشير الصباح - قلت هذه العبارة دون أن أنظر إليها - فعندما دقت الثانية صباحاً استيقظت وظللت على هذا الحال لفترة طويلة " وتوجهت نحو الباب ، وعندما أمسكت بالمقبض سمعت - من جديد . صوتها الذى لا يتغير ، وهى تقول " لا تفتح هذا الباب ذلك أن الطرق مليئة بالأحلام الصعبة " فقلت لها " وكيف تعرفين ذلك " فقالت لى " إننى كنت هناك منذ هنيهة وكان على أن أعود عندما اكتشفت أننى نائمة على جانبى الأيسر " . أما أنا فقد كان الباب

مواربًا. فحركت دلفة الباب قليلاً فهبت على نسمة خفيفة آتية معها ببعض البرد الخفيف والرائحة الطازجة للأرض المزروعة والحقول المروية. تحدثت هي مرة أخرى. فاستدرت وحركت دلفة الباب المرتبطة بالمفصلات التي لا تحدث أصواتًا. وقلت: "أعتقد أن ليس هناك أى ردهة فى الخارج. إننى أشعر برائحة الحقول" أما هي التي أصبحت بعيدة عنى بعض الشيء فقالت "أعرف ذلك أكثر منك، والأمر هو أن هناك امرأة تحلم بالحقول". تشابكت يداها على اللهب وواصلت حديثها "إنها تلك المرأة التي طالما رغبت أن يكون لها منزل وسط الحقول لكنها لم تستطع مغادرة المدينة" إننى أتذكر أنى رأيت هذه المرأة فى بعض الأحلام السابقة لكننى كنت أعرف، والباب موارب، أننى يجب أن أنزل لتناول فطورى خلال نصف ساعة وقلت "على أى الأحوال يجب أن أخرج من هنا حتى أستيقظ".

هبت الرياح فى الخارج هنيهة وسكنت بعد ذلك ثم سمع صوت أحد النائمين وهو يتقلب فى سريره، وتوقفت الرياح فى الحقول. لم تعد هناك أية روائح، فقلت "غداً سوف أتعرف عليك من خلال هذا. سوف أتعرف عليك عندما أجد فى الشارع امرأة تكتب على الحوائط "عينا كلب أزرق" أما هي فقد ابتسمت ابتسامة حزينة - فهي ابتسامة تعبر عن الاستسلام المستحيل وغير القابل للمنال - وقالت "ومع ذلك فلن تتذكر شيئاً أثناء النهار"

ثم عادت لتضع يديها فوق الشمعدان ولف جسدها ضباباً مُرّاً
أنت نفس الرجل الذي لا يتذكر أى شيء من أحلامه عندما
يستيقظ " .

ليلة طيور الكروان

(١٩٥٣)

كنا جالسين ثلاثتنا حول المائدة عندما قام أحدٌ مَّا بإدخال قطعة عملة معدنية فى الفتحة فعادت الماكينة (Wurlitzer) لتشغيل الاسطوانة المعتادة. ولم يكن أمام الآخرين منا متسع من الوقت للتفكير فيه. إذ وقع ذلك قبل أن نتذكر أين التقينا، أى قبل أن نتمكن من استعادة تحسس الاتجاه. مد واحد منا يده على المنضدة المستطيلة وأخذ يتحسس (فنحن لم نر اليد، بل كنا نسمعها) فاصطدم بأحد الأكواب ثم سكت بعد ذلك، وكانت يده لا تزالان فوق المسطح الصلب. عندئذ قمنا نحن الثلاثة بالبحث عن بعضنا البعض فى الظل، والتقينا هناك بأصابعنا على المنضدة المستطيلة حيث التقى ثلاثون إصبعًا. فقال أحدهنا :

- هيا بنا.

نهضنا واقفين كأن شيئًا لم يحدث. ولم يكن أمامنا حتى هذه اللحظة متسع من الوقت لتتنابنا الحيرة.

وعند المرور بالردهة سمعنا موسيقى قريبة تقابلنا وشعرنا برائحة نساء حزينات جالسات فى الانتظار. شعرنا بالفراغ الممتد للردهة من أمامنا ونحن نسير صوب الباب قبل أن تخرج

لاستقبالنا رائحة أخرى غير محببة لامرأة كانت تجلس على الباب .
فقلنا :

- هيا بنا .

لم تجب المرأة . وشعرنا بصوت كرسي هزاز وهو يتحرك إلى
أعلى في الوقت الذي نهضت هي فيه . شعرنا بالخطوات فوق
الأرضية الخشبية المتفككة ، ومن جديد ، بعودة المرأة في الوقت
الذي يُسمع فيه صرير المفصلات ، وأقفل الباب جيداً خلف
ظهورنا .

استدردنا ، وخلفنا كان هناك هواء جاف وقوى لفجر لا
يرى ، كما سمع صوت يقول :

- ابتعدوا عن المكان فإنني أمر ومعى هذا

تراجعنا إلى الوراء فعاد الصوت ليقول :

إنكم لا زلتم تسدون المدخل .

عندئذ تحركنا في كل اتجاه ووجدنا الصوت في كل مكان
فقلنا :

- لا نستطيع الخروج من هنا فطيور الكروان فقأت عيوننا .

سمعنا بعد ذلك صوت أبواب تفتح فتزع أحدنا يده من
الأيدي الأخرى وسمعناه وهو يزحف في الظل متردداً ومصططماً

بمحتويات المكان التي كانت تحيط بنا. تحدث وهو فى مكان ما من الظلمة.

- لا بد وأنا بالقرب، إلا أن هنا رائحة لصناديق متراكمة فوق بعضها.

عدنا من جديد لنشعر بلمسات يديه، واستندنا إلى الحائط، وعندئذ مر صوت آخر ولكن فى اتجاه معاكس.

- يمكن أن تكون هذه توابيت - قال واحد منا. فقال الذى كان قد زحف حتى الركن لكنه الآن يتنفس إلى جوارنا.

- إنها صناديق. لقد تعلمت منذ صغرى كيفية تمييز رائحة الملابس المحفوظة فى الصناديق.

عندئذ تحركنا إلى هناك. كانت الأرض طرية وملساء كأنها أرض مخصصة للسير. مد أحد ذراعه. شعر بجلد ممدد وحي، لكننا لم نشعر بالحائط الموجود فى الجانب الآخر.

- إنها امرأة - قلنا

فقال ذلك الذى تحدث عن الصناديق :

- أعتقد أنها نائمة.

تحرك الجسد تحت أيدينا. ارتعش، وشعرنا به وهو يتمطى، وكان ذلك الشعور مؤسساً على أنه أصبح غير موجود أكثر من

الشعور بابتعاد ذلك الجسد. وبعد هنيهة سكون، وقد تصلبنا وترأصت أكتافنا إلى جوار بعضها سمعنا صوتًا يقول:

- من هناك ؟

- أجبننا دون أن نتحرك. - ها نحن.

سمع الصوت في السرير، حيث الصرير والأقدام تتحسس الشبشب في الظلام. عندئذ تصورنا المرأة جالسة وهي تنظر إلينا لم تستيقظ بالكامل بعد.

- ماذا تفعلون هنا؟ قالت.

فقلنا :

- لسنا ندرى، فطيور الكروان فقأت عيوننا.

فقال الصوت إنه سمع شيئًا مثل هذا وأن الصحف قالت بأنه كان هناك ثلاثة رجال يتناولون البيرة في فناء داخلي، حيث كان هناك خمسة أو ستة من طيور الكروان. وقام أحد الرجال بترديد صوت الكروان.

- الأمر السيئ أن الوقت كان متأخرًا - قال.. . وعندئذ قفزت الطيور على المائدة وفقأت عيون الرجال.

قال بأن الصحف ذكرت ذلك لكن لم يصدق أحد هذه الرواية. فقلت :

- إذا ما كان الناس قد ذهبوا إلى هناك لأبد وأنهم قد رأوا
طيور الكروان .

وقالت المرأة :

- لقد ذهبوا . كان الفناء مليئاً عن آخره بالناس فى اليوم
التالى ، لكن المرأة أخذت طيور الكروان إلى مكان آخر .

توقفت المرأة عن الكلام عندما استدرنا . ها هو الحائط من
جديد ، إذ بمجرد التحرك هنا أو هناك بعض الشيء نجد الحائط
هناك . الحائط دائماً يلفنا ويحاصرنا . سمعناه مره أخرى يسير
متثاقلاً وهو يتحسس الأرض ويقول :

- لست أدرى أين هى الصناديق . أعتقد أننا نسير فى مكان
آخر .

فقلنا :

- تعال إلى هنا . هناك أحدٌ ما إلى جوارنا .

سمعناه وهو يقترب وشعرنا به وهو ينهض إلى جوارنا ،
ومرة أخرى ضربتنا رائحته الدافئة فى وجوهنا .

- امدد يدك - قلنا له - هناك أحد ما يعرفنا .

لأبد وأنه مد يده ، و تحرك إلى حيث نشير ؛ ذلك أنه بعد
لحظات عاد ليقول لنا :

- أعتقد أنه فتى .

فقلنا له :

- حسن ، اسأله إذا ما كان يعرفنا .

فقام بالسؤال وسمعنا الصوت البسيط اللامبالي للفتى الذى كان يقول :

- نعم أعرفهم ، إنهم الرجال الثلاثة الذين فقأت طيور الكروان عيونهم .

وعندئذ تحدث صوت بالغ . إنه صوت امرأة . يبدو أنها تتحدث من خلف باب مغلق . ها هو يتحدث مع نفسه .

فقال الصوت الطفولى بلا مبالاة :

- لا . ها هم من جديد الرجال الثلاثة الذين فقأت طيور الكروان عيونهم .

سمع صرير مفصلات ، وبعد ذلك الصوت البالغ ، وقد أصبح أكثر قرباً عن المرة الأولى .

- خذهم إلى منزلهم . قال .

فقال الفتى :

- لا أعرف أين يعيشون .

فقال الصوت البالغ :

- لا تكن سيئ الطبع . فكل الناس يعرفون أين يعيشون منذ تلك الليلة التى فقأت طيور الكروان عيونهم .

وبعد ذلك واصل حديثه بنغمة أخرى وكأنه متوجه بالحديث إلينا :

- ما حدث هو أن الناس لم يريدوا تصديق ذلك ، وقالوا بأنه خبر كاذب أورده الصحف لزيادة مبيعاتها . فلم ير أحد هذه الطيور .

فقلنا :

- لكن قد لا يصدقنى أحد إذا ما ذهبت بهم إلى الشارع .
لم نكن نتحرك . كنا ساكنين ومستندين إلى الحائط ونحن نسمع المرأة وهى تقول :

- إذا ما أراد ذلك أن يأخذهم فالأمر يختلف . وعموماً لن يُعير أحد اهتماماً بما قد يقوله فتى .

فتدخل صوت طفولى :

إذا ما خرجت معهم إلى الشارع وقلت بأنهم الرجال الذين فقأت طيور الكروان عيونهم فإن الفتية سوف يرموننى بالحجارة .
فكل الناس يقولون باستحالة هذا الأمر .

مرت لحظة صمت، ثم عاد الباب ليغلق من جديد وعاد
الفتى ليقول:

- أضف إلى ذلك أنني أقوم بقراءة قصة "تيرى
والقراصنة".

فهمس فى آذاننا صوت:

- سوف أقوم بإقناعه.

سار متثاقلاً إلى حيث الصوت.

- هذا يروق لى - قال - فعليك على الأقل أن تروى لنا ما

حدث لتيرى هذا الأسبوع.

فكرنا أنه يحاول كسب ثقته، لكن الفتى قال:

- هذا لا يعنينى فأهم شىء لدى هو الألوان.

- كان تيرى داخل تيه من الأنفاق - قلنا.

فقال الفتى:

- كان ذلك يوم الجمعة. ونحن الآن فى يوم الأحد، وما

يهمنى هو الألوان - قال ذلك بصوت غير مبالي ولا حرارة فيه.

وعندما عاد الآخر قلنا:

- إننا على هذا الحال تائهون منذ ثلاثة أيام، ولم نركن

للراحة ولو لحظة واحدة.

فقال أحدهم:

- حسن . سوف نرتاح بعض الوقت ، لكن دون أن يترك
أحدنا يد الآخر .

جلسنا . وأخذت شمس دافئة غير مرئية تدفئ أكتافنا . لكن
لم يكن يهمنا حتى وجود الشمس . إننا نشعر بها هناك فى أى
مكان وقد فقدنا الإحساس بالمسافات والزمن والتوجه . مرت عدة
أصوات .

- فقأت طيور الكروان عيوننا - قلنا .

فقال أحد الأصوات :

- لقد أخذ هؤلاء بما قالته الصحف .

اختفت الأصوات . وظللنا جالسين ملتصقة أكتافنا إلى
بعضها البعض أملين أن نعثر - فى مرور الأصوات هذه ، وكذلك
فى الصور - على رائحة أو صوت معروف لدينا .

واصلت الشمس تسخين رؤوسنا وعندئذ قال أحد ما :

- هيا بنا نحو الحائط .

بينما ظل الآخرون بلا حراك ، رءوسهم مرفوعة نحو النور
غير المرئى .

- ليس الآن بعد . لنتظر هنيهة أخرى حتى تبدأ الشمس
فى لفح وجوهنا بشدة .

الأمسية المدهشة التي قضاها بِلْتشار

(١٩٦٢)

انتهى من صناعة القفص . وقام بِلْتشار بتعليقه فى مشبك يتدلى من السقف كما هى العادة . وعندما تناول طعام الغذاء سرى الحديث فى القرية بأنه صنع أجمل قفص فى العالم ، فجاء أناس كثيرون ليروا القفص ، وتجمهروا أمام باب منزله ، ولم يكن أمام بِلْتشار إلا أن ينزل القفص ، ويغلق ورشة النجارة .

- عليك أن تحلق ذقنك - قالت له زوجته أرسولا - تبدو كأنك راهب .

-قال بِلْتشار : ليس من المناسب حلاقة الذقن بعد الغذاء .

لم يحلق ذقنه منذ أسبوعين ، وكان شعره قصيراً وقوياً وواقفاً كأنه عرف أحد البغال ، أما الهيئة العامة فكانت لفتى أصيب بالهلع لكنه كان تعبيراً زائفاً . فقد أكمل الثلاثين من العمر فى فبراير . وكان يعيش مع أرسولا منذ ما يقرب من أربعة أعوام . ولكن دون أن يتزوجا أو يكون لهما أولاد . وقد أعطته الحياة الأسباب التى جعلته يتخذ هذا الموقف . لكن لم يكن هناك أى مبرر للهلع . حتى أنه لم يكن يعرف أن القفص الذى صنعه بدا للبعض أنه أجمل قفص فى العالم . ولما كان معتاداً على صناعة

الأقفاص منذ صغره، لم يكن ذلك القفص إلا عملاً آخراً مثل غيره اللهم إلا أنه بذل فيه جهداً كبيراً.

- عليك إذن أن ترتاح بعض الوقت - قالت المرأة - فأنت بهذا الذقن غير الحليق لا يليق أن تذهب إلى أى مكان.

فى الوقت الذى خلد فيه للراحة نهض من السرير، الشبكي المعلق، عدة مرات حتى يتفرج الجيران على القفص. لم تُعره أرسولا أى انتباه حتى هذه اللحظة. ذلك أنها أصيبت بالكدر لأن زوجها أهمل العمل فى ورشة النجارة وكرس كل وقته للقفص، وظل لمدة أسبوعين ينام قليلاً. وعندما يحدث ذلك يتقلب ويهذى ببعض الكلمات، وترك ذقنه بلا حلاقة. لكن ها قد ذهب عنها الضيق عندما انتهى العمل فى القفص. وعندما استيقظ بلتشار من قيلولته كانت هى قد قامت بكى البنطلونات وأحد القمصان ووضعتها على أحد المقاعد بجوار السرير الشبكي وحملت القفص ووضعتة على مائدة حجرة الطعام، وكانت تتأمل صامتة.

- كم ستقبض ثمنًا له؟ سألت

- لست أدري - أجاب بلتشار - سوف أطلب ثلاثين بيزو وذلك حتى يعطونى عشرين.

- عليك أن تطلب خمسين - قالت أرسولا - لقد سهرت لىالى طويلة خلال هذين الأسبوعين. كما أنه قفص كبير. أعتقد أنه أكبر قفص رأيته فى حياتى.

أخذ بلتشار يحلق ذقنه .

- أتظنين أنهم يمكن أن يعطوننى خمسين بيزو؟

- هذا المبلغ لا يعنى شيئًا بالنسبة للسيد " شيبى مونتييل " .
كما أن القفص يساوى هذا المبلغ - قالت أرسولا - من الأنسب
أن تطلب ستين بيزو .

كان المنزل فى الظل الخائق . وفى الأسبوع الأول من أبريل ،
وبدا أن الحر أشد قسوة بسبب طنين الحشرات . وعندما انتهى
بلتشار من ارتداء ملابسه فتح باب الفناء لتهوية المنزل ، وعندئذ
دخلت مجموعة من التلاميذ حجرة الطعام .

ذاع الخبر فى كل مكان . كان الدكتور العجوز أوكتابيو
خيرالدو - السعيد فى حياته المتعب من ممارسة المهنة - يفكر فى
القفص الذى صنعه بلتشار ، يفكر فى ذلك أثناء تناوله طعام الغذاء
مع زوجته المعاقة . كانا جالسين فى التراس الداخلى حيث توضع
المائدة فى هذا المكان أيام القىظ يحيط بها الكثير من أصص الزهور
بالإضافة إلى قفصين بهما طيور الكنارى .

كانت زوجته تعشق العصافير لدرجة أنها كانت تكره القطط
فى المقابل إذ هى حيوانات قادرة على التهام العصافير . ولما كان
الدكتور "خيرالدو" يفكر فى زوجته ، توجه فى ذلك المساء لزيارة
مريض ، وعند عودته مر بمنزل بلتشار ليرى القفص .

كان هناك عدد كبير من الناس فى غرفة الطعام ، وقد وضع القفص على المنضدة وقد علته القبة الضخمة المكونة من الأسلاك ، هو قفص مكون من ثلاثة أدوار داخلية مع ممرات وأماكن خاصة لوضع الطعام والنوم ، وكذلك أرجوحات فى الفراغات المخصصة لحركة العصافير . بدا القفص بهذا الشكل كأنه نموذج مصغر لمصنع ضخمة لإنتاج الثلج ، تأمل الطبيب القفص بعناية دون أن يلمسه ، وتصور أن هذا القفص سوف يكون أعلى مما يطيق هو ، كما أنه جميل لدرجة تفوق ما تصوره كهدية لزوجته .

- تلك هى مغامرة الخيال - قال هذه العبارة باحثًا عن بلتشار وسط مجموعة الحاضرين ، وأضاف وهو يلقي نظرة حانية على القفص - كان من الممكن أن تكون مهندسًا بارعًا .

شعر بلتشار بالحنجلى .

- شكرًا - قال .

- هذا حقيقى - قالها الطبيب . كان ممتلئًا ، لكن كانت سمينة ناعمة ولينة كأنها لامرأة تمتعت بالجمال أثناء فترة شبابها - كانت يداه رقيقتين - كما أن صوته يشبه صوت القسيس وهو يتحدث اللغة اللاتينية - كما أنه ليس من الضروري أن توضع فيه أية عصافير - قالها وهو يقوم بتوجيه القفص ليكون أمام جمهور الحاضرين وكأنه يقوم ببيعه - يكفى أن يعلق وسط الأشجار فيغنى

مثل العصافير - ثم عاد لوضع القفص على المنضدة، وفكر هنيهة وهو ينظر إليه ثم قال:

- حسن، أنا مستعد لشرائه.

- إنه مباع - قالت أرسولا.

- إنه لابن "شيبى مونتيلا" - قال بلتشار - فقد طلب منى صناعته.

اتخذ الطبيب موقفًا مسئولاً.

- هل أعطى لك النموذج؟

- لا - قال بلتشار - لقد قال بأنه يرغب فى قفص كبير مثل هذا من أجل زوجين من طائر التوريال (عائلة البيغاء).

فنظر الطبيب للقفص ثم قال:

- لكن هذا القفص لا يصلح لطيور "التوريال"

- نعم يا دكتور - إنه لا يصلح - قالها بلتشار - وهو يقترب من المنضدة. أحاط به الأطفال - لقد أخذت المقاسات فى الاعتبار - قال ذلك وهو يشير بالسبابة إلى الأجزاء المختلفة للقفص، ثم نقر على قبة القفص بظهر أصابعه فملأ القفص رنين عميق.

- السلك الذى استخدم فى صنعه شديد المقاومة، كما أن كل توصيلة تم لحامها جيداً من الداخل والخارج - قال بلتشار.
- القفص يصلح أيضاً للبيغاوات - تدخل أحد الأطفال بالقول.

- هو ذاك - قال بلتشار.

هز الطبيب رأسه.

- حسن لكنه لم يعطك النموذج - قال - ولم يطلب منك شيئاً محدداً، وكل ما طلبه هو قفص كبير يصلح لطيور "التوريال" أليس كذلك؟

- بلى هو كذلك. قال بلتشار.

- إذن ليست هناك مشكلة - قال الطبيب - هناك فرق بين قفص يصلح لزوجين من التوريال وهذا القفص، كما أنه لا يوجد دليل على أن هذا القفص هو ما طلبوه منك.

- إنه هو نفسه - قال بلتشار وهو يشعر بشيء من الضيق - ولهذا قمت بصنعه.

صدرت على الطبيب بواذر فقدانه الصبر.

- يمكن أن تصنع آخرًا - قالت أرسولا وهى تنظر إلى

زوجها ثم تتوجه بعينيها إلى الطبيب - سيادتك لست فى عجلة من الأمر .

- لقد وعدت امرأتى به هذا المساء - قال الطبيب .

- أنا متأسف كثيراً يا دكتور - قال بلتشار - لكن لا يمكن إعادة بيع شىء مباع .

هز الطبيب كتفيه وقام بتخفيف العرق على رقبته مستخدماً منديلاً وتأمل القفص فى صمت دون أن يحرك ناظريه عن نقطة محددة كأنه إنسان يتأمل مركباً أخذ طريق السفر .

- كم أعطوك مقابلأ له ؟

بحث بلتشار عن أرسولا دون أن يجيب .

- ستين بيزو - قالت .

ظل الطبيب يرمق القفص .

- إنه قفص جميل - تنهد - جميل للغاية .

ثم تحرك صوب الباب وأخذ يحرك مروحة اليد بشدة وهو يبتسم ثم اختفت ذكريات ذلك المشهد من مخيلته للأبد .

- مونتيلى رجل غنى - قال

لم يكن خوسيه مونتيلى غنياً بالدرجة التى كان يبدو عليها، لكنه كان قادراً على الوصول إليها . وعلى بعد قليل من المكان ها

هو هناك فى منزل ملئ عن آخره بسروج الخيل ، حيث كل شىء قابل للبيع ؛ كان لا يبالى بالحديث عن القفص . أما زوجته التى تعيش حالة فزع من الموت فقد أغلقت الأبواب والنوافذ بعد طعام الغذاء واسترخت ساعتين وعيناها مفتوحتين فى محيط الحجرة شبه المظلمة بينما خوسيه مونتيلى ينام القيلولة . وبينما هما على هذه الحال فاجأهما خليط من الأصوات . عندئذ فتح باب الصلاة ورأى جمعاً من الناس أمام الباب ، ورأى بلتشار وهو فى الوسط يحمل القفص وقد ارتدى اللون الأبيض بعد حلاقة ذقنه . كان وجهه يحمل فرحة الفقراء وهم يقتربون من منازل الأغنياء .

- يا له من قفص رائع - قالت زوجة خوسيه مونتيلى وقد علا وجهها بريق وهى تقود بلتشار إلى داخل المنزل - لم أر فى حياتى قط شيئاً مثل هذا - قالتها وأضافت وهى تشعر بالضيق من الجمع الذى التف أمام باب المنزل - لكن عليك أن تأخذ القفص إلى الداخل فسوف يحولون الصلاة إلى قفص للدجاج .

لم يكن بلتشار غريباً على منزل خوسيه مونتيلى . فنظراً لقدراته والتزامه استدعوه أكثر من مرة ليقوم ببعض أعمال النجارة البسيطة ، لكنه لم يشعر بالراحة وسط الأغنياء . عادة ما كان يفكر فيهم وفى نسايتهم القبيحات سيئات الطباع ، وفى العمليات الجراحية الكبرى التى يجريها ، وكان يشعر بنوع من الشفقة عليهن ، وعندما كان يدخل منازلهم لم يكن يتحرك إلا وهو يجر قدميه .

- هل يببى هنا؟ سأل

كان قد وضع القفص على منضدة حجرة الطعام.

- إنه فى المدرسة - قالت زوجة خوسيه مونتيلى - وسرعان ما سيعود إلى المنزل - ثم أضافت - مونتيلى يأخذ حماماً.

فى الحقيقة لم يكن لدى خوسيه مونتيلى وقت للاستحمام، وكل ما فعله هو أن قام برش بعض ماء الكولونيا ليخرج ويعرف ما الذى يجرى. كان رجلاً شديداً الحذر للدرجة أنه كان ينام دون تشغيل المروحة الكهربائية وذلك حتى لا يفوته، وهو نائم، سماع ما يجرى فى المنزل.

- تعال لترى هذا القفص المدهش - صاحت زوجته.

كان خوسيه مونتيلى ممتلئاً غزير الشعر وقد علق الفوطة على رأسه ونظر من نافذة حجرة النوم.

- ما هذا؟

- إنه قفص بببى - قال بليثار.

- نظرت إليه المرأة بحيرة.

- لمن؟

- لبببى - أكد بليثار، ثم توجه إلى خوسيه مونتيلى قائلاً :
طلب منى أن أصنعه.

لم يكن قد حدث شيء حتى هذه اللحظة، لكن بلتشار شعر
بخجل شديد وكأن أحداً فتح عليه باب حجرة الحمام. خرج
خوسيه مونتييل من حجرة النوم وهو يرتدى السروال.

- يا بيبي - صباح .

- لم يصل بعد - هممت زوجته دون أن تتحرك .

ظهر بيبي على الباب. كان طفلاً في الثانية عشرة من
العمر، أهدابه مجعدة وعليه الهدوء المؤثر الذي لوالدته .

- تعال إلى هنا - قال خوسيه مونتييل - هل طلبت صناعة
ذلك؟

طأطأ الطفل رأسه. فأمسك به خوسيه مونتييل من رقبته
وأجبره على النظر إلى عينيه .

- أجب .

أمسك الطفل شفتيه بين أسنانه ولم يجب .

- يا مونتييل - همست الزوجة .

ترك خوسيه مونتييل الطفل واتجه إلى بلتشار - بلهجة من
يشعر بالاستفزاز .

- أنا شديد الأسف يا بلتشار - قال - لكن كان عليك أن
تبلغني قبل أن تبدأ في العمل . أنت الوحيد الذي يعنّ له التعاقد

مع حدث - أخذت تعبيرات الهدوء تعتلى وجهه شيئاً فشيئاً. ثم رفع القفص دون النظر إليه وأعطاه لبلتشار.

- خذ القفص فى الحال وحاول بيعه ما أمكنك - قال ذلك - وأهم شيء أننى أرجوك ألا تناقشنى - ربت على كتفه - وقال مفسراً : لقد منعنى الطبيب من الانفعال.

كان الطفل ساكناً دون أن يتحرك له جفن حتى رآه بلتشار وقد اعتلته الحيرة وهو يحمل القفص فى يده. عندئذ أصدر صوتاً كأنه همهمة أو كأنه كلب يعبر عن غضبه، ثم ألقى بنفسه على الأرض وهو يصيح.

كان خوسيه مونتيلى ينظر إليه غير مبال بينما تقوم الأم بتهدئته.

- لا ترفعيه من على الأرض - قال - اتركيه ليضرب رأسه فى الأرض وبعد ذلك نعالج الجرح بالملح والليمون حتى يعسجه ذلك.

ظل الطفل يصبح ويبكى دون دموع بينما تمسك أمه بمرفقيه.

- اتركيه - أصر خوسيه مونتيلى.

تأمل بلتشار الطفل وكأنه ينظر إلى حيوان يحتضر من مرض معد. الساعة تقترب من الرابعة.

كانت أرسولا فى هذه الساعة فى منزلها تردد أغنية قديمة
وهى تقطع حلقات البصل .

- بيبي - قال بلتشار .

اقترب من الطفل وهو يتسم ومد يده إليه بالقفص . فوقف
الطفل فى قفزة واحدة واحتضن القفص الكبير ، ثم ظل يرمق
بلتشار من خلال فتحات القفص دون أن يدرى ماذا يقول . لم
تطفر دمعة واحدة من عينيه .

- يا بلتشار - قال خوسيه مونتيلى برقة - قلت لك أن تأخذ
القفص .

- أعد إليه القفص - قالت المرأة أمرة الطفل .

- هو لك - قال بلتشار - ثم توجه إلى خوسيه مونتيلى -
على العموم لقد صنعت له هذا الغرض .

طارده خوسيه مونتيلى حتى الصالة .

- لا تكن أبلهًا يا بلتشار - كان يقول ذلك وهو يحاول منعه
من الخروج - احمل حاجتك إلى المنزل ولا تتركب المزيد من
الحماقات . أنا لا أفكر فى دفع فلس واحد .

- هذا لا يهم - قال بلتشار - لقد صنعت القفص لأهديه
إلى بيبي . لم أفكر فى أى مقابل .

وعندما أخذ بلتشار يفسح لنفسه الطريق وسط جمع الفضوليين المنتظرين أمام الباب كان خوسيه مونتيلى يصيح وهو فى وسط الصلاة. كان بلتشار متفخ الوجه وأخذت عيناه فى الاحمرار.

- يا أبله - كان يصيح - خذ حاجياتك، ما كان ينقصنى هو أن يأتى أى واحد ويصدر أوامره فى منزلى، يا لها من مصيبة!

فى صالون البلياردو، استقبل الحضور بلتشار مهلين. كان حتى هذه اللحظة يظن أنه صنع قفصاً أفضل من الأقفاص الأخرى، وأنه قد أهداه إلى ابن خوسيه مونتيلى حتى يتوقف عن البكاء ولا شىء أكثر.

لكنه أدرك أن ذلك الأمر له أهمية كبيرة لدى الكثير من الناس، وعندئذ شعر بنوع من الانفعال.

- الأمر هو أنهم دفعوا لك خمسين بيزو مقابل القفص.

- بل ستين - قال بلتشار.

- يجب أن ترتفع الهامات إلى عنان السماء - قال أحد الحضور - أنت الشخص الوحيد الذى استطاع أن يأخذ من مونتيلى هذا المبلغ من المال. يجب أن نحتفل بهذا.

قدموا له بيرة فأجابهم بـلتشار بدعوتهم جميعاً على البيرة .
ولما كانت هذه هى المرة الأولى التى يشرب فيها فقد سكر تماماً مع
حلول الظلام ، كان يتحدث عن مشروع ضخمة عبارة عن صناعة
ألف قفص سعر كل واحد منها ستين بيزو ، وبعد ذلك مليون
قفص بمبلغ إجمالى ستين مليون بيزو .

- لابد من صناعة أشياء كثيرة لنبيعها للأغنياء قبل أن
تواتيهم المنية - قال هذه العبارة وقد أعماه السكر - كلهم مرضى
وسوف يموتون . لقد وصل الأمر بهم إلى أنهم لا يقدرّون على
الانفعال .

ظل جهاز الاسطوانات الآلى يعزف لمدة ساعتين على
حساب بـلتشار - وشرب الجميع نخب بـلتشار وحظه وثروته وموت
الأغنياء . لكن عندما حانت ساعة تناول الطعام تركوه وحده .

انتظرته أرسولا حتى الثامنة ، وكانت قد أعدت طبقاً من
اللحم المفروم المحمر والمغطى بحلقات البصل . وقد قال لها أحد
الناس أن زوجها متواجد فى صالون البلياردو وقد جن جنونه من
السعادة وأخذ يدعو الجميع إلى تناول البيرة على حسابه . لكنها لم
تصدق ذلك ونامت حتى اقترب الليل من منتصفه . كان بـلتشار فى
الصالون المضاء حيث توجد به مناخد صغيرة تتسع لأربعة ، وهناك
كراسٍ تحيط بها ، وكذلك حلبة للرقص فى الهواء الطلق حيث

تتنقل هناك طيور الكروان. كان وجهه محمراً، ولما لم يكن باستطاعته السير كان يريد مضاجعة امرأتين مرة واحدة. لقد أنفق الكثير وكان عليه أن يترك ساعته رهناً على وعد بأنه سيسدد الثمن في اليوم التالي. وبعد ذلك بلحظات، وعندما أخذ يسير في الشارع أدرك أن هناك من يتتبع منه حذائه، لكنه لم يشأ أن ينسى أجمل حلم في حياته. ولم تجرؤ على النظر إليه النسوة اللاتي كن ذاهبات إلى قداس الخامسة فجراً ظناً منهن أنه ميت.

قيلولة الثلاثاء

(١٩٦٢)

خرج القطار من الممر المتعرج المحاط بالصخور المائية للبحمرة، ودخل وسط زراعات الموز المترامية التي لا تنتهي، وأصبح الهواء أكثر رطوبة، اختفت نسمات البحر. دخلت النافذة المفتوحة دفعة كثيفة من الدخان الخانق. وعلى الطريق الضيق الموازي لخط السكك الحديدية تسير عربات تجرها الثيران، محملة بعناقيد الموز الخضراء اللون، وعلى الجانب الآخر تظهر بين الفينة والأخرى مكاتب بها مراوح كهربائية وأفنية تحيط بها أسوار من الطوب الأحمر، ومنازل بها مقاعد، ومناضد صغيرة بيضاء اللون وقد وضعت جميعها في الشرفات بين النخيل والورود المكسوة بالأتربة. كانت الحادية عشر صباحاً، ولكن لم يكن الحر قد بدأ بعد.

- من الأفضل أن تغلقى زجاج النافذة - قالت المرأة - سوف يمتلئ شعرك بذرات الفحم، حاولت الطفلة أن تغلق النافذة لكن لم تستطع بسبب الصدا الذي يكسو الشباك. كانتا المسافرتين الوحيدتين في هذه العربة المتواضعة من عربات الدرجة الثالثة. ولما ظل دخان القاطرة يدخل إلى العربة عبر النافذة تركت الطفلة مكانها ووضعت هناك الأمتعة الوحيدة التي تحملانها. كانت عبارة

عن شنطة من مادة بلاستيكية بها بعض الطعام وباقة زهور ملفوفة في ورق الصحف. جلست على المقعد المقابل وقد ابتعدت عن النافذة، ووالدتها في المقعد المقابل. كانت كلتاهما ترتديان ملابس الحداد الملتزمة والبسيطة.

الطفلة تبلغ اثنتا عشر عامًا، وهذه هي المرة الأولى التي تسافر فيها، أما المرأة فقد بدا أنها طاعنة في السن بالمقارنة بابنتها، وهذا يرجع إلى العروق الزرقاء البارزة في منطقة الحواجب وفي أجزاء مختلفة من جسدها الصغير الطرى الذي لا تتضح معالمه. ترتدى فستانًا يشبه ملابس القساوسة. وتجلس وهي تسند ظهرها إلى مسند الكرسي. وبكلتا يديها تسند في حجرها شنطة من الجلد اللامع وقد تقشرت. كانت تبدو عليها ملامح الهدوء مثل هؤلاء الناس الذين تعودوا على الفقر.

أخذت الحرارة تشتد في الثانية عشرة. توقف القطار لعشر دقائق في محطة ليس بجوارها أية قرى وذلك للتزود بالمياه. وفي وسط الصمت الغامض للمزروعات كان الظل نقيًا، لكن الهواء المتوقف داخل عربة القطار كان يحمل رائحة جلد غير مدبوغ. بعد هذه المحطة لم يعد القطار إلى السرعة المعهودة. وتوقف بعد ذلك عند قريتين متشابهتين حيث المنازل الخشبية المطلية بالألوان الزاهية. مالت المرأة برأسها وغرقت في غفوة. قامت الطفلة بخلع حذائها ثم ذهبت بعد ذلك إلى المرحاض لتبلل باقة الزهور الذابلة.

وعندما عادت ، كانت الأم تنتظرها لتناول الطعام ، أعطتها قطعة من الجبن ونصف فطيرة من فطائر الذرة وقطة بسكويت مسكرة ، وأخرجت لنفسها نفس الكمية من الشنطة المصنوعة من المادة البلاستيكية . وبينما تتناولان الطعام مر القطار ببطء شديد على كوبرى معدنى ، وعن بعيد ترى قرية شبيهة بالقرى السابقة . والفارق هو أن ميدان القرية كان غاصاً بالناس . هناك تقف فرقة موسيقية تعزف مقطوعة مرحة ، بينما الشمس تضرب بقوة ، وعلى الجانب الآخر هناك وادى تحيط به الصحراء معلنة حدود الزراعات .

توقفت المرأة عن الأكل ، ثم قالت :

- البسى الحذاء .

نظرت الطفلة إلى الخارج فلم تر شيئاً إلا الوادى القاحل الذى أخذ القطار يعبر منه ويأخذ سرعته المعتادة من جديد . وقامت بوضع البقية الباقية من البسكويت فى الشنطة ولبست حذائها . ثم قامت المرأة بإعطائها المشط وقالت :

- قومى بتسريح شعرك .

وبينما كانت الطفلة تسرح شعرها كان القطار يصفر ، قامت المرأة بتجفيف العرق على رقبتها ، وأزالت عرق وجهها بمسحة بأصابعها . وعندما انتهت الطفلة من تسريح شعرها مر القطار

بالمنازل الأولى لقرية أكبر من القرى السابقة .

- إذا ما كنت تريد أن تفعل شيئاً فعليك أن تفعله الآن
- قالت المرأة - فعليك ألا تشربى ماءً من أى مكان حتى ولو
اشتد بك العطش . وأؤكد على أنك لا يجب أن تبكى .

هزت الطفلة رأسها بالموافقة . كان الهواء الساخن والجاف
يدخل من النافذة ، وقد اختلط بصفير القاطرة والصوت الرتيب
لعربات القطار القديمة . قامت المرأة بلف الشنطة بما بها من بقايا
الطعام ثم وضعت فى الشنطة الجلدية . ظهرت صورة القرية كاملة
منعكسة على النافذة كأنها وميض . كان اليوم هو الثلاثاء خلال
شهر أغسطس . قامت الطفلة بلف باقة الزهور فى ورق الصحف
المبلل وابتعدت أكثر عن النافذة ورمقت أمها بثبات . فهدأت الأم
من قلق ابنتها . كان القطار قد توقف عن الصفير وأخذت سرعته
تقل وتوقف بعد ذلك بلحظات .

لم يكن هناك أحد فى المحطة . وعلى الجانب الآخر من
الشارع كان الرصيف مظلاً بأشجار اللوز ، ولم يكن مفتوحاً إلا
صالون البلياردو . القرية تغط فى القىظ . نزلت المرأة والطفلة من
القطار وعبرتا المحطة المتهالكة حيث بلاط الأرضية تحيط به
الحشائش من كل ناحية . ثم عبرتا الشارع حتى الرصيف الظليل .

الساعة تقترب من الثانية . والقرية تعيش فى هذه اللحظة

فترة القيلولة، فقد كانت المحلات والمكاتب العامة والمدرسة البلدية تغلق أبوابها في الحادية عشرة، ثم تعود لاستئناف نشاطها قبل الرابعة بقليل، أى عندما يمر قطار العودة. ولم يظل مفتوحًا إلا الفندق الكائن أمام المحطة - والكانتين وصالون البلياردو ومكتب التلغراف الكائن إلى جوار الميدان. أما المنازل التى بنى معظمها طبقًا للنموذج الذى نفذته شركة الموز فقد كانت أبوابها مغلقة، أسدلت السواتر الخشبية على النوافذ. الحرارة شديدة داخل بعض هذه المنازل لدرجة أن سكانها كانوا يتناولون طعام الغداء فى الفناء. وهناك آخرون قد جلسوا على بعض المقاعد يستظلون بأشجار الجوز ويقضون ساعة القيلولة فى الشارع.

أخذت المرأة والطفلة تسيران وهما تحتمان بظل شجر اللوز دون أن تعكرا صفو القيلولة على أحد. واتجهتا مباشرة إلى منزل القس. حكّت المرأة الشبكة المعدنية للباب بأظافرهما وانتظرت لحظات ثم عادت لتنادى. فى الداخل كان ينبعث صوت مروحة كهربائية. لم تسمع أية خطوات، هناك فقط صرير خفيف لباب يفتح ثم صوت حذر يقترب من الشبكة المعدنية: "من الطارق؟" حاولت المرأة أن تعرف المتكلم عبر الشبكة المعدنية.

- إنى أريد التحدث إلى الأب.

- إنه نائم الآن.

- الأمر عاجل - أصرت المرأة.

كان صوتها ينبئ عن عزم هادئ.

فتح الباب بعض الشيء دون أى صرير، وظهرت امرأة ناضجة وممتلئة وشاحبة اللون، وشعرها حديدي اللون. كانت عيناها تبدوان صغيرتين جداً وهما خلف زجاج النظارة الطبية.

- ادخلا - قالتها وفتحت الباب.

دخلتا حجرة صغيرة تفوح منها رائحة معتقة للزهور. قادتهما سيدة المنزل إلى مقعد خشبي وأشارت إليهما بالجلوس. جلست الطفلة، لكن الأم ظلت واقفة بلا حراك وهي تحمل الشنطة الصغيرة بين يديها، لا تسمع أية جلبة غير صوت المروحة الكهربائية.

ظهرت سيدة المنزل على الباب الداخلى.

- إنه يقول: عليكما أن تعودا بعد الثالثة - قالتها بصوت خافت - لقد خلد للنوم منذ خمس دقائق.

- إن القطار سوف يغادر البلدة فى الثالثة والنصف - قالت المرأة.

كان ردها موجزاً وواثقاً، لكن ظل صوتها هادئاً، ابتسمت سيدة المنزل لأول مرة.

- حسن - قالت.

عندما أغلق الباب الداخلى مرة أخرى ، جلست المرأة إلى جوار ابنتها . كانت صالة الاستقبال الضيقة متواضعة ومنظمة ونظيفة . وعلى الجانب الآخر من أحد الحواجز الخشبية التى كانت تقسم الحجرة . كانت هناك منضدة للعمل ، تتسم بالبساطة ، يغطيها مفرش من البلاستيك وفوقها ماكينة للكتابة قديمة الصنع ، وإلى جوارها كوباً به بعض الزهور . وخلف ذلك كان أرشيف الكنيسة الصغيرة . ومن الواضح أن المكتب قد رتبته امرأة غير متزوجة .

عندما فتح الباب الداخلى مرة أخرى ظهر القس وهو ينظف زجاج النظارة بمنديل ، وعندما وضعها على عينيه بدا من الواضح أنه شقيق السيدة التى فتحت لهما الباب .

- ماذا يمكن أن أفعل لكما؟ سأل .

- مفاتيح المقابر - قالت المرأة .

كانت الطفلة تجلس وهى تحمل الزهور فى حضنها وقد التفت رجليها تحت المقعد .

نظر إليها القس ثم نظر بعد ذلك للمرأة ثم نظر إلى السماء الصافية عبر الشبكة المعدنية للنافذة .

- إن الجو حار جداً - قال - كان من الممكن أن تنتظرا حتى قبل الشمس قليلاً .

حركت المرأة رأسها فى صمت . انتقل القس إلى الجانب الآخر من الحاجز الخشبى وأخذ كراسية مجلدة بالبلاستيك من الدولاب ، ثم قلمًا من البوص ومحبرة ، وجلس إلى المنضدة . والشعر الذى كانت رأسه تفتقر إليه كان يزيد عن حدة على ذراعيه .

- أى مقبرة سوف تزوران؟ - سأل .

- إنها مقبرة كارلوس ثنتينو - قالت المرأة .

- كارلوس ثنتينو - كررت المرأة .

ظل القس على وضعه وكأنه لم يفهم شيئًا .

- إنه اللص الذى قتلوه هنا خلال الأسبوع الماضى - قالت

المرأة بنغمة ثابتة - أنا أمه .

تفحصها القس جيدًا ، ونظرت إليه المرأة بثبات وهى متماسكة وهادئة . وشعر الأب بشيء من الخجل . وطأطأ رأسه ليكتب . وبينما يملأ الورقة بالبيانات أخذ يطلب من المرأة بياناتها الشخصية ، فكانت تجيبه بلا تردد ، وتذكر التفاصيل الدقيقة كأنها تقرأ نصًا . أخذ الأب يتصبب عرقًا ، فكت الطفلة أزرار حذاء قدمها اليسرى ثم خلعت الحذاء وسندت رجلها إلى رجل المقعد ، وفعلت نفس الشيء مع القدم اليمنى .

بدأت الخيوط الأولى للأحداث يوم الاثنين من الأسبوع
الماضى فى حوالى الثالثة فجراً، وعلى مسافة قصيرة من هذا
المكان. شعرت السيدة ديبكا - وهى أرملة تعيش بمفردها فى منزل
ملىء بالأمثلة المتهالكة - بأن ثمة صوت يسمع من خلال صوت
المطر الخفيف، وأن أحداً ما يحاول أن يكسر الباب من الخارج.
فنهضت وبحثت وسط ملابسها عن مسدس قديم لم تنطلق منه
أى طلقة، منذ أيام العقيد "أوريليانو بوين ديا"، ثم اتجهت إلى
الصالة دون أن تشعل النور. وأخذت تتوجه يقودها خوف تربية
داخلها على مدى ثمانية وعشرين عاماً باحثة من خلال خيالها عن
المكان الذى فيه الباب وكذا الارتفاع المحدد للمزلاج.

أمسكت السلاح بكليتا يديها ثم أغمضت عينيها وضغطت
على الزناد ولأول مرة فى حياتها تطلق النار. وبعد هذه الطلقة لم
تشعر بشيء على الإطلاق اللهم إلا صوت قطرات المطر المتساقطة
على السقف المصنوع من الزنك. وبعد ذلك سمعت صوت ارتطام
معدنى على الرصيف الأسمنتى وصوت واهن ومستسلم لكنه
منهك للغاية.

"آه يا أمى" كان الرجل الميت والملقى أمام المنزل، وقد
تهتك أنفه، يرتدى فائلة مقلمة وينطلقون عادياً يربطه بحبل بدلاً
من الحزام. كما كان حافى القدمين. لم يتعرف عليه أحد فى
القرية.

- إذن كان اسمه "كارلوثنتينو" - همهم الأب عندما انتهى من الكتابة.

- كارلوس ثنتينو أيا لا - قالت المرأة - كان الابن الوحيد.

عاد القس إلى الدولاب. وفي داخل الباب كان هناك مفتاحان قديمان يعلوهما الصداً معلقان على أحد المسامير، وقد عاشت الطفلة والأم عندما كانت طفلة، وكذلك القس عندما كان صغيراً خيال هذه المفاتيح على أنها مفاتيح القديس بطرس. فأخذها ووضعها على الكراسة المفتوحة وأشار بالسبابة إلى مكان على الصفحة المكتوبة وهو ينظر إلى المرأة.

- وقعى هنا.

نقشت المرأة اسمها وهي تمسك بالشنطة الجلدية تحد أبطها. وأخذت الطفلة الزهور ثم توجهت إلى الحاجز وهي تجر حذاءها وتراقب أمها باهتمام.

تنهد القس.

- ألم تحاولي أن تجعله يسير في الطريق القويم؟

- فأجابت المرأة بعد أن فرغت من نقش اسمها.

- كان رجلاً طيباً.

أخذ القس يتنقل بعينه بين الأم والطفلة ورأى وهو يشعر بشيء من الخجل الرحيم أنهما لم تدمعا . استمرت المرأة فى حديثها دون أن تتغير نبرتها .

- لقد قلت له بألا يسرق أبداً من إنسان يكون فى حاجة للطعام ، وكان يعمل بما أقول له . وقبل ذلك ، عندما كان يمارس رياضة الملاكمة كان يقضى ثلاثة أيام فى السرير يعانى من الكدمات وآثار اللكمات .

- اضطر لخلع أسنانه كلها - قالت الطفلة .

- بالفعل - أكدت المرأة - وكل لقمة كنت أمضغها فى تلك الفترة كان طعمها هو الضربات التى يكيلونها لابنى مساء السبت .

- لا راد لقضاء الله - قال الأب .

لكنه نطق العبارة بشيء فيه بعض من عدم الاقتناع ، ذلك من تجارب الحياة وكذلك بتأثير الحر . طلب منهما أن تحميا رأسيهما حتى لا تصابا بضربة شمس . أشار وهو يتشاءب ويكاد ينام إلى الطريقة التى تستطيعان من خلالها العثور على القبر . وعندما تعودان ليس من الضرورى أن تناديا عليه ، وما عليهما إلا أن تتركا المفاتيح من تحت الباب وكذلك صدقة للكنيسة إذا ما كان معهما . أنصتت المرأة للشرح باهتمام بالغ ، لكنها شكرته دون أن تبسم .

وقبل أن يفتح الأب الباب المؤدى إلى الشارع أدرك أن هناك أحد ما ينظر إلى من بالداخل إذ كانت أنفه ملتصقة بالشبكة المعدنية للباب. كانوا مجموعة من الأطفال، وعندما فتح الباب عن آخره تفرقوا. وعادة ما لا يوجد أحد فى الشارع فى مثل هذه الساعة، لكن كان هناك الأطفال ومجموعات من الناس تحت ظلال الجوز. تفحص الأب الشارع الذى تبدلت أحواله - وأدرك ماذا يحدث. ثم عاد لإغلاق الباب فى هدوء.

- انتظره دقيقه - واحدة - قال هذه العبارة دون أن ينظر إلى المرأة.

ظهرت أخته على الباب الداخلى وهى تحمل جاكته سوداء على قميص نومها، وقد انساب شعرها على كتفها، نظرت إلى الأب فى صمت.

- ماذا هناك. سأل الأب.

- لقد تنبه الناس - هممت الأخت.

- من الأفضل أن تخرجنا من باب الفناء - قال الأب.

- لا فرق - قالت الأخت - الناس فى كل مكان.

- وحتى هذه اللحظة بدا أن المرأة لم تفهم ما يجرى -

حاولت أن تتطلع إلى الشارع من خلال الشبكة المعدنية ثم أخذت

بأقة الزهور من الطفلة واتجهت صوب الباب. فسارت الطفلة خلفها. قال الأب:

- انتظرا حتى تميل الشمس قليلاً.

- سوف تتصبيان عرقاً - قالت الأخت وهي ساكنة وسط الصلاة - انتظروا وسوف أعيركما شمسية.

شكراً ردت المرأة الأمر أفضل هكذا.

أمسكت ذراع ابنتها وخرجت إلى الشارع.

جنازة الأم الكبرى

(١٩١٢)

أيها الجاحدون فى هذا العالم، هذه هى القصة الحقيقية للأم الكبرى، العاهل المطلق لملكة ماكوندو، التى عاشت ولها السيطرة الكاملة طوال اثنين وتسعين عامًا، ثم توفيت وكأنها قديسة، يوم الثلاثاء من الشهر الماضى وحضر قداسة البابا تشييع جنازتها.

لقد استعادت الأمة توازنها بعد الهزة العميقة التى أصابتها. كما أخذ العديد من الناس يلتقطون أنفاسهم بعد فترة ترقب وانتظار طويلين. كان منهم عازفو مزمار القرية ومهربو بلدة "غواخيرا" ومزارعو الأرز فى "سينو" وفتيات الليل فى "غواكامايال" والسحرة فى "سيربى" ومزارعو الموز فى أراكاتاكا. كما عاد رئيس الجمهورية لاستئناف مهام منصبه، وكذلك الوزراء وكل هؤلاء الذين يتولون مناصب عامة، وأولئك الذين يمثلون قوى ما وراء الطبيعة أثناء الفرصة السانحة التى تمثلت فى هذه الجنازة العظيمة التى تسجلها صفحات التاريخ. الآن وقد صعد قداسة البابا إلى الملأ الأعلى جسداً وروحاً وأضحى من المستحيل التجول فى ماكوندو نظراً لكثرة ما خلفته الجنازة من زجاجات فارغة وأعقاب السجائر والعظام المكسرة والعبوات المعدنية والحرق

البالية والروث إلى غير ذلك مما خلفته الجموع التي حضرت الجنازة. ها قد حانت ساعة وضع كرسي عال والجلوس على قارعة الطريق والبدء في سرد تفصيلي لهذا الفوران الوطني قبل أن يتوفر الوقت لدى المؤرخين.

منذ حوالي أربعة عشر أسبوعاً وبعد اليال طويلة لا تنتهى من الكمادات ولصقات الخردل والحجامة، أمرت "الأم الكبرى"، التي أنهكها هذيان الاحتضار بأن يجلسوها على سريرها الشبكي القديم لتعبر عن طلبها الأخير. وكان ذلك هو الشيء الوحيد السابق على موتها. فصباح ذلك اليوم كانت قد أنجزت كل التفاصيل المتعلقة بروحها من خلال الأب أنطونيو إيسابيل. أما ما بقى فكان توزيع ثروتها على أبناء إخوتها ويبلغ عددهم تسعة وهم الورثة الطبيعيون لها والذين تحلقوا حول سريرها. ظل القس يتكلم بمفرده، كان على وشك إكمال مائة عام من العمر، وبقى في الحجرة. لكنه حتى يصل إلى حجرة الأم الكبرى كانت هناك حاجة إلى مساعدة عشرة رجال، واستقر الرأي على أن يظل في هذه الحجرة حتى يوفروا على أنفسهم تعب نزوله وصعوده مرة أخرى في الدقائق الأخيرة.

ذهب نيكانور ابن الأخت الكبرى - الضخم الجثة، الفظ، الذى يرتدى الكاكي وحذاء ذا رقبة به مهماز ويحمل مسدساً عيار ٣٨ ذا ماسورة طويلة يضعه تحت القميص - للبحث عن الكاتب

المحلف. توقف كل شيء منذ أسبوع فى البيت الضخم المكون من طابقين والذي تنفذ فى أرجائه رائحة العسل الأسود والكافور وما تحويه خزائنه من صناديق وحاجيات قديمة تعود إلى أربعة أجيال مضت وقد تحولت كلها إلى رماد، انتظاراً لهذه اللحظة. وفى الردهة الرئيسية الممتدة والمليئة بأسياخ الحديد التى كانت تعلق فيها لحوم الخنزير المملحة وتصفى الأياثل من دمها أيام الآحاد من شهر أغسطس، كان العمال ينامون متراصين على أجولة الملح، وعلى رد عدد العمل فى الحقول انتظاراً للنواح والإعلان بذلك عن الخبر السيئ وسط أرجاء ذلك الملك الذى لا حدود له. أما باقى أفراد الأسرة فقد ظلوا فى الصالة. فالنساء اتشجن بالسواد وأصابهن الشحوب من جراء القلق على الميراث والسهاد. كن يرتدين ملابس الحداد المبالغ فيها وكأنه حداد فوق حداد. ذلك أن "الأم الكبرى" اتسمت بالتشدد فى مشاعر الأمومة وأحاطت ثروتها واسمها بسياج متين بداخله كان الأعمام يتزوجون بنات الأخوات، وأبناء الأعمام يتزوجون بالعمات، والأخوة يتزوجون بأصهارهن من النساء حتى أصبح الأمر عبارة عن شبكة معقدة من القرابة، وبذلك دخلت عملية التناسل فى حلقة مفرغة. ولم تستطع الإفلات من هذا الحصار إلا "ماغدالينا" أصغر بنات الأخوة. ولما أفزعها الهذيان قام برقيائها الأب أنطونيو إيسابيل وحلقت شعر رأسها ورفضت ملذات الدنيا وسارت فى طريق الرهبنة. وإلى جانب أفراد العائلة الرسميين كان الذكور قد

استخدموا حقهم فى فض بكاره عرائس مخدوميهم المنتشرين فى
الأكواخ والعزب والمنازل، وبذلك كان هناك عدد كبير من أبناء
السفاح منتشرين بين الناس البسطاء وليس لهم ألقاب اللهم إلا
الابن بالتبنى والتابع والمفضل والذي يحظى بحماية الأم الكبرى.

أثار قرب أجل الأم الكبرى حالة ترقب شديدة. كان
صوت هذه التى تحتضر والتى تعودت على عبارات المديح وعلى
أن يطيعها الآخرون واهنا كأنه أقل درجات آلة الأرغن، لكنه مع
كل هذا له صدهاء فى كافة أرجاء أملاكها. فلم يكن أحد بمعزل أو
غير مبال بحالة الوفاة هذه. كانت الأم الكبرى طوال هذا القرن
بمثابة مركز الجاذبية فى ماكوندو، كما كان على ذلك أشقاؤها
ووالديها وأجدادها فى الماضى الذى امتد لقرنين من الزمان. لقد
تأسست القرية حول لقبها، ولم يكن أحد يعرف الأصل أو
الحدود أو القيمة الحقيقية للتركة، إلا أن الناس جميعهم اعتادوا
على الظن بأن الأم الكبرى هى مالكة للمياه، الجارية منها
والراكدة، الآتية عن أمطار سابقة أو لاحقة، وأنها مالكة الطرق
المجاورة وأعمدة التلغراف. والسنوات الكبيسة والحر، وأن لها
الحق الموروث على الحياة والأملاك. وعندما تجلس فى شرفة
منزلها بجسدها الضخم وسلطانها المحشورين فى هذا الكرسي
الهزاز القديم لتستمتع بنسمات ما بعد الظهر كانت تبدو قوية
وغنية، أى السيدة الأكثر قوة وغنى فى هذا العالم.

لم يخطر على بال أحد أن " الأم الكبرى " فانية، اللهم إلا أفراد عائلتها، وكذلك هي نفسها بعد أن وخزتها علامات الشيخوخة التي يعاني منها الأب أنطونيو إيسابيل. إلا أنها كانت واثقة أنها سوف تعيش أكثر من مائة عام مثل جدتها لأنها التي استطاعت خلال حرب عام ١٨٧٥ أن تواجه دورية للعقيد "أوريليانو بوين ديا". وقد فعلت ذلك متحصنة في مطبخ أعزل. إلا أنه أثناء شهر أبريل من هذا العام عرفت الأم الكبرى أن الله لن يساعدها على أن تقوم بنفسها بالقضاء على مجموعة من الماسونيين الفيدراليين.

خلال الأسبوع الأول من مرضها قام الطبيب بتخفيف الآلام من خلال ضمادات الخردل والجوارب الصوفية. كان طبيبًا بالوراثة، تخرج في مونييليه، وكان على قناعة تامة بعدم جدوى التقدم في مضمار الطب. وقد قامت الأم الكبرى بمنع أى طبيب آخر لإقامة عيادته في ماكوندو. وفي الزمن الذي مضى كان يطوف بأرجاء القرية ممتطيًا صهوة الجواد، وذلك لزيارة مرضاه في فترة المساء. كما أن الطبيعة حبه ميزة أن يكون أبًا لأبناء ليسوا من صلبه. لكن التهاب المفاصل جعله يقبع في مكانه، وانتهى به الأمر ليعود مرضاه دون زيارته لهم، وكان ذلك من خلال المراسيل والافتراضات وتناقل الأخبار المرضية.

وعندما طلبته الأم الكبرى عبر الميدان وهو يرتدى البيجامة متكئًا على اثنين من العصي، واستقر به المقام في حجرة نوم

المريضة . وعندما أدرك أن الأم الكبرى تعيش لحظاتها الأخيرة أمر بأن يأتوا له من المنزل بصندوق فيه بعض الأواني من البورسلين ، وقد كتبت عليها بعض الرموز باللغة اللاتينية . قام بدهان المحتضرة فى الأجزاء الظاهرة وتحت الملابس بمجموعة من اللصقات الأكاديمية وماء الورد الطبى والتحاميل العظيمة التأثير . وبعد ذلك وضع على مكان الألم علجوم مبلل والعلق على الكليتين حتى فجر ذلك اليوم الذى كان عليه أن يواجه أحد أمرين : إما أن يتم استدعاء المتخصص فى الحسجامة ، أو يقوم الأب أنطونيو إيسابل بقراءة بعض التعاويذ .

أمر نيكانو بالبحث عن القسيس ، وقام أفضل عشرة رجال عنده بحمل الرجل من المنزل المخصص للقساوسة حتى مخدع الأم الكبرى وهوة جالس على الكرسي الهزاز المصنوع من الخيزران الذى وضعت عليه شلثة خاصة للمناسبات الكبرى . كان توزيع الطعام ذات صباح حار من شهر سبتمبر أول بادرة لإبلاغ سكان ماكوندو . وعندما أشرقت شمس ذلك اليوم تحول الميدان الصغير المواجه لمنزل الأم الكبرى إلى واحد من مشاهد الأسواق الريفية .

بدا الأمر وكأنه إحياء لذكرى أزمنة مضت ، وذلك عندما بلغت الأم الكبرى السبعين من العمر واحتفلت بعيد ميلادها احتفالاً بهيجاً وطويلاً لم يعرف بمثله من قبل ، فقد نصبت أماكن تقديم المشروبات الكحولية لكل أبناء القرية وذبح العديد من

رؤوس الماشية فى الميدان العام . وتم استدعاء جوقة موسيقية أخذت تعزف دون انقطاع لمدة ثلاثة أيام . وتحت ظلال أشجار اللوز ، التى علا التراب أوراقها ، عسكرت قوات العقيد أوريليانو بوين ديا ، وأقيمت منافذ لبيع خمر قصب السكر والفطائر والسجق المحشو بالدم ، وشحم الخنزير المقلّى ، والفطائر المملحة المحشوة ، والسجق والجبن والكعك المقلّى والرقاق المحشو والنقانق الأسبانية وأحشاء الذبائح والكعك المصنوع من جوز الهند ومشتقات عصير قصب السكر المخمر . وإلى جانب ذلك العديد من أماكن بيع أدوات التزيين الصغيرة والبسيطة ، وكذا أماكن بيع الأواني وحلقات مصارعة الديكة ومناضد لعب اليانصيب ووسط ذلك الجمع الحاشد من الأماكن والناس كانت تباع الصور والأوشحة التى تحمل صورة الأم الكبرى .

كانت الاحتفالات تبدأ قبل يوم عيد الميلاد بيومين ، وتنتهى بعد ثلاثة أيام . وفى اليوم الثالث تطلق الألعاب النارية وتقام حلبات للرقص بين أفراد الأسر داخل منزل الأم الكبرى ، وكان يقوم على تلبية وخدمة المدعوين وباقى أبناء أسرة الأم الكبرى هؤلاء ، أبناء السفاح . المدعوون وغيرهم يرقصون على أنغام البيانولا القديمة التى تم تزيينها بأشرطة حديثة . الأم الكبرى ترأس الاحتفال وهى جالسة فى عمق الصالون على كرسى وقد حُشيت حولها الوسائد الصوفية . وأثناء الاحتفال تصدر تعليماتها

بطريقة مستترة من خلال تحريك يدها اليمنى التى تزين كافة أصابعها خواتم مختلفة. وفى تلك الليلة كانت تقوم بترتيب وعود الزيجات للعام التالى، وذلك يتم إما بالاتفاق مع العشاق أو انطلاقاً من تخمينها الشخصى. كانت الأم الكبرى تخرج إلى الشرفة فى تلك الليلة لتعلن انتهاء الاحتفالات وهى تضع على رأسها بعض الحلوى والأوراق الملونة وتلقى بقطع العملة على جمهور الحاضرين.

كانت هذه الاحتفالات قد توقفت وذلك لفترات الحداد المتعاقبة للأسرة، وكذا لعدم الاستقرار السياسى الذى لوحظ فى الأعوام الأخيرة. ولم تشهد الأجيال السابقة تلك الاحتفالات البهيجة إلا عن طريق الروايات التى يتم تناقلها عبر الأجيال. إذ لم تستطع تلك الأجيال أن تشهد الأم الكبرى وهى تحضر القداس، ويقوم بعض أفراد السلطة المدنية بالتهوية عليها، وكانت تفخر بميزة أنها لا تركع أثناء القداس حفاظاً على الثورة المصنوعة أدوارها فى هولندا. وحتى لا يتجعد الثوب المكوى بالنشاء. كان كبار السن يتذكرون الحصار الممتد لمسافة مائتى متر من المنزل وحتى المذبح الكبير وكأنهم يهذون بلمحات من أيام الصبا. يتذكرون أيضاً ذلك المساء الذى حضرت فيه "ماريا دل روساريو كاستانيدا إى مونتيرو" تشييع جنازة والدها ثم عادت بعد ذلك وهى ممشوقة القوام رافعة رأسها ترتدى الحلل البهية لمركزها الجديد وقد تحولت

إلى الأم الكبرى وهى فى سن الثانية والعشرين . وتنسب صورة العصور الوسطى هذه لا إلى ماضى الأسرة فحسب، بل إلى ماضى الأمة أيضاً. ومع مرور الأيام أصبحت لا ترى إلا قليلاً، وعندما تظهر كان ذلك قبل المساء فى شرفتها وقد أحاطت بها حرارة الجو. وبذلك كانت صورة الأم الكبرى تأخذ نمطاً أسطورياً. تمارس سلطاتها من خلال نيكانور. كما أن هناك عهداً غير معلن، على أساس التقاليد، يقول بأنه عندما يأتى اليوم الذى تنتهى فيه الأم الكبرى من كتابة وصيتها وختمها بالشمع الأحمر يقوم الأقرباء بإعلان الاحتفالات الشعبية لمدة ثلاث ليالى. لكن كان معروف أيضاً أنها قررت عدم الإفصاح عن آخر رغبة لها إلا عند اللحظات الأخيرة لحياتها. ولم يكن أحد يفكر جدياً فى أن الأم الكبرى ستموت يوماً. لكن عندما استيقظ سكان ماكوندو ذلك الصباح على توزيع طعام الصدقة اقتنعوا ليس فقط بأن الأم الكبرى فانية بل أنها تحتضر.

كانت ساعتها أكيدة. فهى ملقاة فى سريرها المصنوع من الكتان وقد ضمّد جسدها حتى أذنيها بالألوة وعلتها ظلة أهدابها متربة، ولا تكاد علامات الحياة تلاحظ من خلال تنفسها الواهن الذى يلمح عبر الحركة الضعيفة لنهديها الكبيرين. كانت الأم الكبرى - التى تقدم لها العرسان من كل صوب وحذب حتى بلغت سن الخمسين، لكنها رفضتهم جميعاً - تحتضر وهى عذراء

بلا أبناء. وفى لحظة المسحة طلب الأب أنطونيو إيسابيل المساعدة ليمسح كف يديها بالزيت ذلك أنه عندما بدأت لحظات الاحتضار كانت تقبض يديها. لكن لم تفلح فى شئ تلك المساعدة التى قدمها أبناء إخوتها. وطوال أسبوع من المحاولات ضمت المحتضرة يدها المليئة بالأحجار الثمينة إلى صدرها وسلطت ناظريها على بنات الأخوات لكنها كانت نظرة لا تحمل أى حرارة، ثم قالت "أيتها الناهبات" ثم رأت الأب أنطونيو إيسابيل وهو يرتدى ملابس الجنازة وكذلك مساعده وهو يحمل أدوات القداس، فهممت بعبارة فيها قناعة الإذعان : "إننى أموت". وعندئذ نزع من إصبعها الخاتم ذا الماسة الكبرى وأعطته "لماغدالينا" على أساس أنها أصغر الوريثات. كان ذلك بمثابة نهاية تقليد وعرف: ذلك أن ماغدالينا رفضت هذا الإرث وتبرعت به للكنيسة.

عند شروق الشمس طلبت الأم الكبرى أن يتركوها وحدها مع نيكانور وذلك لإعطائه آخر وصاياها. . ولمدة نصف ساعة طلبت إبلاغها تفصيليًا بمسار أمورها المالية وهى فى كامل قواها العقلية. وقامت بالإعراب عن رغبتها بالنسبة لمصير ومثوى جثتها وتركت وصاياها إلى آخر الحديث: "عليك أن تكون واعيًا - قالت - عليك أن تحافظ على المقتنيات الثمينة ذلك أن الكثير من الناس يقصدون الجنازات بغرض السرقة". وبعد أن أصبحت

وحيدة يرافقها القس اعترفت تفصيلاً بآثامها وتلا ذلك لحظة التناول، لكن هذه اللحظة كانت في حضور أبناء أخوتها وقد طلبت عندئذ أن يجلسوها في الكرسي الهزاز المصنوع من النباتات المتسلقة لتعبر عن آخر رغباتها.

كان نيكانور قد أعد قائمة من أربعة وعشرين صفحة مكتوبة بخط واضح تضم كافة ممتلكاتها. تتنفس باستكانة وكان الأب والطبيب شاهدين. قامت الأم الكبرى بإملاء قائمة ممتلكاتها على الكاتب المحلف، وهذه الممتلكات هي المصدر الوحيد والكبير لعظمتها وسلطتها. ممتلكاتها الفعلية عبارة عن ثلاث إقطاعيات ممنوحة من خلال مرسوم ملكي أثناء الفترة الاستعمارية. وبمرور الزمن، ومن خلال زيجات المصلحة، آل كل ذلك إلى ملك الأم الكبرى. وعلى هذه الأراضي الواسعة وغير واضحة الحدود، التي كانت تنتشر عبر خمسة قرى والتي لم تزرع فيها حبة واحدة لحساب الملاك، كانت تعيش ٣٥ أسرة بصفتها مستأجرة لتلك الأراضي. وكانت الأم الكبرى قبل يوم الاحتفال بعيد اسمها تمارس سلطة الملكية التي حالت دون عودة هذه الأراضي إلى أملاك الدولة. وتمثلت السلطة في تلقي الإيجار من المستأجرين. فكانت تجلس في الردهة الداخلية لمنزلها وتتلقى بنفسها حقوق الإقامة على أراضيها سيراً على عادة أسلافها التي امتدت ما يزيد على قرن من الزمان. وبعد مرور أيام التحصيل الثلاثة كان الفناء

يمتلى عن آخره بالخنازير وديوك الرومي والدجاج والأعشار وحصص الفواكه، كل ذلك كان الحصاد الوحيد الذي لم تأخذ الأسرة بيديها أبداً من أراض مية منذ البداية، والتي كانت مساحتها تقدر بحوالى مائة ألف هكتار. لكن الظروف التاريخية أدت إلى أن تنمو وتزدهر داخل هذه المساحة القرى الست التابعة لماكوندو، وبذلك كانت كان كل من يسكن فى إحدى الدور لم تكن حقوقه تتجاوز حقوق الآخرين على الأراضى، ذلك أنها كلها تدخل ضمن أملاك الأم الكبرى، وإليها يتم سداد الإيجار مثلما يفعل السكان مع الحكومة عندما يقومون بسداد ما عليهم لها مقابل حق استخدامهم للشوارع.

وفى المناطق المحيطة بالكفور كان هناك عدد من الحيوانات، لم يعرف عددها أبداً، تسير طليقة فى كل مكان وقد ظهرت على مؤخرتها علامة - بالكى - تشبه القفل. هذه العلامة أضحت مألوفة مع مرور الزمان حتى فى تلك الأماكن القصية التى كانت تصل إليها الحيوانات والمشتة، وقد اشتد بها العطش. كان هذا الوضع هو أحد الدعائم الرئيسية على الأسطورة السائدة. ولأسباب لم يستطع أحد فهم فحواها كانت الاصطبلات قد نخلت من الخيول منذ آخر حرب أهلية وأخذت تحل محلها فى الآونة الأخيرة نباتات البوص وبعض معاصر الزيتون ومصنعاً لضرب الأرز.

وبالإضافة إلى القائمة المذكورة فى الوصية تم إضافة ثلاثة أوانى ضخمة دفنت فى مكان ما فى الدار أثناء حرب الاستقلال، لكن لم يعثر عليها بعد محاولات عديدة. ويضاف إلى حق الاستمرار فى استغلال الأرض المؤجرة وتلقى الأعشار وتباشير الثمار وكل الأنواع الإضافية الأخرى، إن الورثة يتلقون جيلاً بعد جيل خرائط معدلة وتوضيحية تساعد على العثور على الكنز المدفون.

ظلت الأم الكبرى تقوم بتعداد البنود المتعلقة بالأراضى لمدة ثلاث ساعات، وكان صوتها وسط حرارة حجرة النوم يحبط كل بند من هذه البنود بالأهمية. وعندما وضعت توقيعتها المتلعثم، وكذا وقع معها الشهود سرت هزة غامضة فى قلوب الجمهور الذى أخذ فى النوافذ أمام المنزل واحتفى بظلال شجر اللوز المترب.

كان ما تبقى هو إحصاء التركة غير المنظورة. وبعد جهد جهيد - مثلما فعل ذلك أجدادها قبل موتهم من أجل تأكيد استمرار سلالتهم - نهضت الأم الكبرى على عجز ضخم. وبصوت واثق ومسيطر أملت على الكاتب قائمة ممتلكاتها غير المنظورة.

إنها الثروة التى يخفيها باطن الأرض والمياه والقلم والسيادة الوطنية والأحزاب التقليدية وحقوق الإنسان وحرية المواطنين

والقضاء من محاكم الدرجة الأولى والثانية والثالثة وخطابات التوصية والثواب التاريخية والانتخابات الحرة وملكات الجمال والخطب الهامة والمظاهرات الضخمة والأنسات رفيعات المقام والفرسان الأجلاء والأوسمة العسكرية وصاحب الفخامة والمجلس الأعلى للقضاء والمواد التي تمنع الاستيراد والسيدات الليبراليات ومشكلة اللحم وشفافية اللغة ونقائها وضرب المثل الذي يحتذى. والنظام القضائي والصحافة الحرة، لكنها حرية مسئولة. وأثينا الأمريكية اللاتينية والرأى العام والانتخابات الديمقراطية والأخلاق المسيحية وقلة العملة الحرة وحق اللجوء والحظر الشيوعى وغلاء المعيشة وكيان الدولة والتقاليد الجمهورية وطبقات المعدمين ورسائل التضامن.

لم تستطع الانتهاء من القائمة، فكثرة المحتوى أدت إلى ذهاب آخر أنفاسها. ولما غرقت فى خضم بحر الصيغ المجردة التى ظلت طوال قرنين من الزمان بمثابة المبرر الأخلاقى للسيطرة على العالم صدر عن الأم الكبرى صوت تجشوء، ثم لفظت آخر نفس لها.

فى ذلك المساء رأى سكان العاصمة صورة امرأة تبلغ من العمر عشرين عامًا على صدر الصفحات الأولى للصحف فى طبعة خاصة، وفكروا أنها ملكة جديدة من ملكات الجمال. كانت الأم الكبرى تعيش من جديد الشباب المؤقت فى صورتها التى

نشرت فى الصحف على أربعة أعمدة بعد أن خضعت لبعض الأصناف وقد ظهرت فى الصورة مصففا شعرها إلى أعلى ، وعلى رأسها مشط عاجى وجوهرة تزين عقدة الشريط . كان أحد المصورين الجوالين الذين مروا بماكوندو فى بداية القرن قد التقط هذه الصورة وحفظتها دور الصحف فى الأرشيف طوال سنوات كثيرة ضمن باب الشخصيات غير المعروفة . كان حظ هذه الصورة هو الاستمرار فى مخيلة الأجيال القادمة . وفى الأتوبيسات القديمة ومصاعد الوزارات وصالونات الشاى المظلمة التى بهتت دهاناتها . تناقل الناس همساً وبوقار السلطة الميته فى إقليمها المشهور بالحر والملايا . كان اسمها مجهولاً حتى تحول إلى كلمة مطبوعة . بلل رذاذ المطر المارة ، وأخذت أجراس كل الكنائس تقرع إيقاع الموت . فاجأ الخبر رئيس الجمهورية وهو متوجه لحضور حفل تخريج دفعة جديدة من الضباط ، فقام بكتابة تعليماته إلى وزير الحرب على ظهر ورقة التلغراف التى تلخص بأن ينهى كلمته بدقيقة حداد تكريماً للأم الكبرى .

تأثرت الأوضاع بهذه الوفاة لدرجة أن رئيس الجمهورية الذى كانت تصل إليه أحاسيس سكان المدينة من خلال فلتر تنقية . أدرك ، وهو فى سيارته ، من خلال نظرة عابرة لكنها فاحصة ، الصمت المتألم الذى يلف المدينة ، فلم تبق مفتوحة للجمهور إلا بعض المقاهى التى تكاد تخلو من الزئابن ، وأخذت الكاتدرائية

الكبرى تستعد لتسعة أيام من التكريم الجنائزى، وفى مبنى الكابيتول الوطنى، حيث ينام المتسولون، وقد التحفوا بأوراق الصحف، إلى جوار الأعمدة الدورية والتماثيل المكهفرة للرؤساء الذين ماتوا، أُضيئت الأنوار داخل البرلمان. وعندما دخل المسئول الأول عن البلاد غرفة مكتبه وقد بدا عليه التأثير بالعاصمة وهى فى لباس الحداد، كان وزراءه ينتظرونه وهم واقفون شاحبو الوجوه وقد ارتدوا ملابس الحداد.

وُصِفَتْ وقائع هذه الليلة والليالى التالية لها بأنها درس تاريخى ليس فقط على أنها تمثل الروح المسيحية التى كانت مصدر إلهام كبار الشخصيات فى السلطة - بل أيضاً على أساس أنها تمثل حالة التراضى وتوافق المصالح المتضاربة ووجهات النظر المتعارضة فيما يتعلق بكيفية دفن رفات عظيم مثل هذا. فعلى مدى أعوام طويلة استطاعت الأم الكبرى الحفاظ على السلام الاجتماعى والوفاق السياسى فى إمبراطوريتها من خلال صناديق الاقتراع الثلاثة التى كانت تخرج من دوائر انتخابية مزيفة والتى كانت بمثابة إرث سرى لها. فالذكور من أتباعها، وكذا من تحميمهم، والمستأجرين الصغار منهم والكبار، يمارسون حقهم الانتخابى سواء الأحياء منهم أو الأموات الذين مضى على وفاتهم قرن من الزمان. هى صاحبة الأولوية على أساس أنها تمثل السلطة التقليدية مقابل السلطة المعارضة. تمثل هيمنة الطبقة على العامة

وأهمية الحكمة الإلهية فوق الارتجال الفانى . وخلال أيام السلم كانت بهيمتها تعقد الاتفاقيات وتفك رباطها بشأن وظائف قليلة العمل جزيلة الراتب وأرزاق الكهنة وأرزاق العاطلين وتسهر على راحة المرافقين ومن أجل ذلك كانت تلجأ إلى الخداع أو الغش فى الانتخابات . أما فى أوقات الأزمات فقد أسهمت الأم الكبرى سرياً فى تسليح أنصارها وفى نجدة ضحاياها فى العلن . وهذه الغيرة الوطنية رشحتها لتحل أرقى مراتب الشرف .

لم يكن رئيس الجمهورية بحاجة إلى استشارة مساعديه لتقييم حجم مسئولياته ، ففى المنطقة الفاصلة بين صالة الاستقبالات فى القصر والفناء الصغير المرصوف الذى كان بمثابة مرآب سيارات لنواب الملوك ، كانت هناك حديقة داخلية تملؤها الحشائش الداكنة اللون والتى كان أحد الرهبان البرتغاليين قد انتحر فيها فى الفترة اللاحقة للعهد الاستعمارى . ورغم ما يحيط بالرئيس من جهاز أمن مهيب لم يستطع إيقاف رعشة خفيفة شعر بها وهو يعبر ذلك المكان بعد مغيب الشمس . إلا أن الحزن هذه الليلة كان هو القوة المسيطرة . وعندئذ وعى تماماً بمصيره التاريخى ، وأصدر قراراً بالحداد الوطنى لمدة تسعة أيام ، وكذا اتخاذ عدة خطوات لتكريم يتيم للأم الكبرى بصفتها البطلة التى ماتت فى ميدان المعركة من أجل الوطن . وقد عبر عن ذلك فى كلمة درامية وجهها فجر ذلك اليوم إلى الأمة عبر الإذاعة

والتليفزيون معلناً ثقته فى أن تشييع جثمان الأم الكبرى سيكون مثلاً جديداً يحتذى به فى العالم.

هذه الغايات العظمى اصطدمت ببعض الصعاب الخطيرة. فالسلك القضائى فى البلاد، والذي كان يشغله العديد من الأقرباء الأبعد للأم الكبرى، لم يكن مهياً لمواقف مثل تلك التى على وشك أن تبدأ. واستغرق جهابذة القانون والخبراء بدهاليز تفسيراته، فى البحث عن صيغة تسمح للرئيس حضور الجنازة. وعاش كبار شاغلى المناصب السياسية والدينية والمالية أياماً من الترقب والقلق. وفى قاعة البرلمان الفسيحة التى خلخلتها القوانين والتشريعات المجردة على مدى قرن من الزمان والمليئة بلوحات على القوم والتماثيل النصفية للفلاسفة الإغريق، تردد اسم الأم الكبرى كثيراً فى الوقت الذى أخذت جثتها تصاب بالتعفن فى شهر سبتمبر الشديد الحرارة فى ماكوندو. ولأول مرة يتم التحدث عنها فى هذا المكان، ويتم تصويرها بدون الكرسي الهزاز المصنوع من النباتات المتسلقة. وبدون لحظات الغفوة التى كانت تعترئها فى الثانية ظهراً وبدون الدهانات التى تغطيها. كانوا يرونها نقية فتية وقد رسمتها ريشة الأسطورة.

ولساعات طويلة ترددت الكلمات والكلمات التى ذاع صداها فى أنحاء الجمهورية لدرجة فقدانها لقيمتها من خلال أبواق الصحافة. ولم يتوقف سيل هذه الكلمات إلا عندما نهض أحد

الناس الواقعيين وسط جهابذة القانون، وقطع هذا السيل الكلامى مذكراً بأن جثة الأم الكبرى فى انتظار قرار يتخذ ودرجة الحرارة ٤٠ فى الظل. لم يتأثر أحد من جمهور القانون المكتوب بهذا الرأى، وكل ما فى الأمر هو أن صدرت الأوامر لتحنيط الجثة حتى يتم إيجاد الصيغة المطلوبة والتوفيق بين وجهات النظر أو إضافة تعديلات دستورية تسمح لرئيس الجمهورية حضور الجنازة.

كان الكلام كثيراً كثيراً لدرجة أنه تجاوز حدود الوطن وانتقل عبر المحيط حتى وصل إلى الأسماع البابوية فى كاستيلغادولفو. وبعد أن استرد البابا عافيته من وعكة ألمت به كان يجلس إلى جوار النافذة وهو يتطلع إلى البحيرة ويشاهد الغواصين الذين نزلوا تحت الماء بحثاً عن رأس الأميرة التى ضرب عنقها. وكان ذلك هو الموضوع الرئيسى للصحف المسائية خلال الأسابيع الأخيرة، ولم يكن باستطاعة قداسة البابا أن يكون بمعزل عن مشكلة وقعت على مقربة من مقره الصيفى. لكن الصحف فى ذلك المساء غيرت فجأة اهتماماتها بصور الضحايا ونشرت صورة امرأة تبلغ من العمر عشرين عاماً ووضع على الصورة شريط الحداد؛ إنها صورة الأم الكبرى. وعندئذ صاح قداسته متذكراً ملامح اللوحة القديمة التى أهدت إليه منذ أعوام طويلة، بمناسبة توليه كرسي القديس بطرس. "الأم الكبرى" ردد ذلك كل أفراد المدرسة الكاردينالية وهم فى حجراتهم الخاصة. وللمرة الثالثة

على مدى عشرين قرناً يحدث ارتباك وكرب وركض هنا وهناك
فى الإمبراطورية المسيحية المترامية الأطراف، إلى أن قام قداسته
بركوب الجندول الأسود الطويل المخصص له متوجهاً إلى هناك
للمشاركة فى تشييع هذه الجنازة المهيبة للأمم الكبرى.

خلف وراءه الأضواء المتألثة وطريق "بيا أبيا أنتيكا" بما فيه
من ممثلات السينما وهن يأخذن حمام شمس فى الشرفات قبل أن
تصل إليهن الأخبار؛ كما خلف وراءه أيضاً القمة المعتمدة
لكاستيلسا نياخيلو فى أفق كبير. وعند مغيب الشمس اختلطت
الخطوط القوية للكاتدرائية البازيلكية للقديس بطرس باللون
البرونزى لماكوندو. ومن تحت المظلة الواقية من الشمس ومروراً
بالمواسير المتشابكة والمستنقعات الصامته التى كانت بمثابة آخر حدود
الإمبراطورية الرومانية وأملاك الأمم الكبرى، سمع قداسته جلبة
القروء الصاخبة والناجمة عن وجود الجماهير الغفيرة. وأثناء
جولاته الليلية كانت المركبة البابوية تمتلئ عن آخرها بأجولة نبات
اليوكا وعناقيد الموز الأخضر وأقفاص الدجاج وبرجال ونساء تركوا
مشاغلهم اليومية وحاولوا الحصول على بعض المال من خلال بيع
بعض المنتجات أثناء جنازة الأمم الكبرى، ولأول مرة فى تاريخ
الكنيسة يعانى البابا فى ذلك المساء ارتفاع درجة حرارته من جراء
السهر ولدغات الناموس. لكن إشراقة الشمس الرائعة على أملاك
العجور الكبرى ومشاهدة مملكة النباتات والحيوانات أبعدت عن

ذاكرته كل آلام الرحلة، وكانت بمثابة تعويض عن التضحية.

تم إيقاظ نيكانور بواسطة ثلاث ضربات على الباب حيث كانت بمثابة الإعلان عن قرب قدم قداسته. ولقد سيطر الموت على المنزل. كانت الخطابات المتوالية للرئاسة وكذا المناقشات البرلمانية المحمومة التي أدت إلى أن تلتهب الأحيال الصوتية للبرلمانيين ولم يكن أمامهم إلا الحديث بلغة الإشارة، كل هذا أدى بالكثير من الناس في مختلف أنحاء الدنيا إلى ترك مشاغلهم والحضور إلى المنزل وشغل كل مكان فيه بما في ذلك الممرات والردهات وكذلك في الحجرات العلوية ذات السقف الجمالونى. أما من وصلوا متأخرين فقد حاولوا أن يسلكوا لأنفسهم طريقًا إلى الاستحكامات والقلاع والأبراج وغيرها من الحجرات الصغيرة. وفي الصالون الرئيسى كانت جثة الأم الكبرى مسجاة فى انتظار القرارات الكبرى وقد كستها آلاف التلغرافات. وجفت الدموع من المآقى، وكان أبناء الأخوة التسع يتناوبون السهر لحراسة الجسد.

كان على هذا الجمع الحاشد أن ينتظر لأيام طويلة. وفي صالون المجلس المحلى حيث يوجد أربعة كراسٍ مرتفعة من الجلد، ووعاء فخارى ملىء بالماء المفلتر وسرير شاطئ من الأرقطيون، عانى قداسته من الأرق مع الكثير من العرق وتسلى بقضاء الوقت وهو يقرأ القرارات والمواد الوزارية فى الليالى الصيفية الحارة. أما أثناء النهار فكان يورع الحلوى الإيطالية على

الأطفال الذين كانوا يقتربون من النافذة لمشاهدته . وكان يتناول طعام الغذاء تحت البرجولة فى رفقة الأب أنطونيو إيسابيل أحياناً، وأحياناً أخرى مع نيكاتور. ظل هكذا لأسابيع وشهور طويلة يعيش حالة الترقب تحت الحر حتى جاء باستور باسترانا وتوقف وسط الميدان وهو يحمل الطبله، ثم قرأ نص القرار. يُعلن أنه قد تعكر صفو الأمن العام، تررن تررن، وأن رئيس الجمهورية، تررن تررن، له كافة الصلاحيات، تررن تررن، التى تهيبُّ له حضور جنازة الأم الكبرى، تررن ترن رن رن.

جاء اليوم الأعظم، كانت الشوارع قد امتلأت بألعاب الروليت وموائد اليانصيب ورجال يحملون ثعابين وقد لفوها حول رقابهم وأخذوا يروجون لبيع الترياق الذى يشفى من العضات السامة ويؤكد الحياة الأبدية. وفى الميدان الصغير قام الكثير من الناس بنصب مظلاتهم وفردوا حصائرهم، وقام رجال مهرة بفتح الطريق للسلطات.

كانت غسالات سان خورخى وصيادى اللؤلؤ فى كابودى بيلا فى انتظار اللحظة الحاسمة، وكان كذلك كل من صيادى الجمبرى فى تاساخيرا والحواة فى مواخانا ومستخرجو الملح فى ماناورى، وعازفوا الأكورديون فى سان بيلايو ومربو الديوك فى لاكويب والمرتجلون فى ساياس دى بوليفار وفى ريبولو وفى ماغدالينا وأصحاب المصانع فى مومبوكس، وإلى جانب كل هؤلاء

ما سبق أن ذكرناهم فى بداية هذا التقرير ، وآخرين غيرهم . كما أتى أيضاً قدامى رجال العقيد أوريليانو بوين ديا - وعلى رأسهم دون مارلبوروح بلباسه الجلدى وأظافره وأسنانه التى تشبه أسنان الفهد ، وتناسوا أحقادهم القديمة على الأم الكبرى وأهلها - لحضور الجنازة ، ومن أجل أن يطلبوا من رئيس الجمهورية دفع معاشات الحرب التى ظلوا ينتظرونها لمدة ستين عاماً .

وقبل الحادية عشر بقليل صدر عن هذا الجمع الغفير الذى خنقته حرارة الشمس ، والذى يسيطر عليه ثلة من المحاربين الأشداء ، وقد ارتدوا لباس الجنديّة ، ووضعوا على رؤوسهم خوذات ضخمة ، صدر عن هذا الجمع صوت غبطة مهيبة . أما رئيس الجمهورية ووزرائه فكانوا فى وضع مهيب وقد ارتدوا ملابسهم الرسمية .

حضر أيضاً كل من اللجان البرلمانية ومجلس القضاء الأعلى ومجلس الدولة والأحزاب التقليدية والسلطة الدينية وممثلى البنوك والتجارة والصناعة ، وقد كان مكان كل هؤلاء على ناصية مركز التلغراف . كان رئيس الجمهورية العجوز أصلياً

وقصير القامة بدينًا يسير أمام نظرات استغراب جمهور الحاضرين الذين نصبوه رئيساً دون أن يعرفوه ، وهم الآن يمكن أن يتأكدوا من وجوده بين الأساقفة الذين أخذتهم خطورة مسئولياتهم

والعسكريين من ذوى القامات المشوقة وقد علت رؤوسهم الخوذات. كان المسئول الأول عن الأمن يتنفس ويتذوق طعم السلطة.

يأتى بعد ذلك فى ملابس من "الكريب" الأسود كل الملكات فى الوطن. وهن المسيطرات على كافة أنواع الأنشطة الآتية والقادمة، وقد خلعن لأول مرة كل ما يتعلق بزينة الحياة الدنيا، كانت تتقدمهن الملكة الكبرى ملكة المانجو وملكة الخضروات وملكة التفاح الغينى وملكة اليوكا الناعمة وملكة الجوافة وملكة الأناناس وملكة الفاصوليا ذات الحبة السوداء وملكة ما يزيد على ٤٢٦ كيلومتراً من عقود بيض الأيجوانا، وكل هؤلاء اللاتى لم نذكرهن حتى لا نطيل من صفحات هذا التقرير.

كانت الأم الكبرى موضوعة فى نعشها وقد غطيت بطبقات من القماش الأرجوانى، وتم فصلها عن الواقع بثمانية أجراس من النحاس، وغرقت حتى الثمالة فى غمرة الخلود، ولم تعد تستوعب حجم عظمتها. وكل ما حلت هى به من أبهة أثناء جلساتها فى شرفة منزلها بعد الظهر، ها هى تتحقق حيث حضرت كافة رموز العظمة فى العصر لتكريمها. فها هو قداسة البابا الذى تصورته فى هذيانها، الذى ولّى، وهو جالس على محفة متألثة وسط حدائق الفاتيكان، قد قاوم الحرارة واستخدم مروحة مصغرة من جريد النخيل وشرفت به أضخم جنازة فى الدنيا.

لقد ملك مشهد السلطة لب العامة الذين لم يستطيعوا أن يميزوا ماهية الحركة الدؤوبة التي دارت تحت السقف الجمالونى للمنزل وذلك عندما فرض الاتفاق نفسه على خلاقات المشاهير وتم إخراج النعش إلى الشارع محمولاً على أكتاف علية القوم. ولم ير أحد الظل الحارس للرماح الملكى الذى تابع الجنازة وهو يسير فى الشوارع الحارة لماكوندو. كما لم يستدع انتباه أحد أن علية القوم عندما مروا كانت الشوارع قد بقى بها مخلفات من الروث. ولم يلاحظ أن أبناء الأخوة والأبناء بالتبنى والخدم والذين يحظون بحماية الأم الكبرى كانوا قد أغلقوا الأبواب عندما تم إخراج الجثة وقاموا بخلع الأبواب وفك المناضد للحفر حول الأساسات حتى يوزعوا المنزل ومحتوياته فيما بينهم. لكن الشيء الوحيد الذى لم يغب عن ذهن أحد فى هذه الجنازة هو التهيدة المزلزلة شعوراً بالراحة والتي صدرت عن الجماهير بعد أربعة عشر يوماً من الصلوات والمدائح. وتم بعدها تغطية القبر بطبقة من الرصاص. كان بعض الحاضرين يحظى ببصيرة نافذة فهم منها أن الجميع يشهد ميلاد عهد جديد. ويمكن لقداسة البابا أن يصعد إلى السماء روحاً وجسداً وقد أتم مهمته على الأرض، ويمكن لرئيس الجمهورية أن يجلس على كرسى الحكم ويصدر أوامره طبقاً لما يرى، ويمكن للملكات كل ما كان وما سيكون أن يتزوجن ويصبحن سعيدات وينجبن الكثير من الأطفال، ويمكن للجماهير

أن ترفع مظلاتها طبقاً لما تعلمته وأدركته طوال سيطرة الأم الكبرى ذلك أن المرأة الوحيدة التي يمكن أن تعترض وتجعل اعتراضها فاعلاً. ها هي الآن تتحلل تحت غطاء من الرصاص. وما بقي هو أن يقوم أحد الناس بالجلوس على كرسي أمام الباب ليقص هذه الحكاية وهذا الدرس وهذه العبرة للأجيال القادمة وألا يبقى أحد من الجاحدين في هذه الدنيا إلا وقد وصلت أخبار الأم الكبرى، وسوف يأتي الكناسون غداً الأربعاء لتنظيف الشوارع من القمامة التي خلفتها الجنازة إلى أبد الآبدين.

الموت الدائم فيما وراء الحب

(١٩٧٠)

بقيت ستة أشهر وأحد عشر يوماً حتى يموت السناتور/
أونيسيمو سانثيث وذلك عندما التقى بالمرأة التي كان يحلم بها
فى حياته. تعرف بها فى "روسال دل بيرى" وهى قرية متخيلة -
كانت أثناء الليل مرفأ للسفن الخاصة بالمهربين التى كانت تجوب
أعالى البحار. أما فى النهار فكانت تبدو بمثابة منعطف غير ذى
قيمة فى الصحراء الممتدة أمام بحر قاحل لا قرار له وبعيداً عن كل
شئ لدرجة أن أحداً لم يكن يخالجه شك فى أنه يوجد هناك من
قد يستطيع التأثير فى مصير إنسان آخر حتى اسم القرية كان مشيراً
للسخرية فالوردة الوحيدة التى كانت موجودة فيها قطفها
السناتور/ أونيسيمو سانثيث فى نفس الأمسية التى تعرف فيها
على "لاورافارينا".

كانت وقفة لا غنى عنها أثناء الحملة الانتخابية التى كانت
تجرى كل أربعة أعوام. ها قد وصلت سيارات نقل الركاب
الصغيرة ، تلتها سيارات النقل وهى تحمل هنوداً تم استئجارهم
ليكونوا جزءاً من الجمهور الذى يحضر الخطب التى تلقى. وقبل
الحادية عشرة بقليل بدأ عزف الموسيقى وأخذت تطلق الصواريخ
النارية، وبعدها وصلت السيارة الوزارية بلون الفراولة. كان

السنتور/ أونيسيمو مبتسمًا وهو جالس داخل السيارة المكيفة . لكنه بمجرد أن فتح الباب لفحته نسمة هواء نارية وغرق قميصه ، المصنوع من الحرير الطبيعي ، فى بحر من العرق وشعر عندئذ بأنه قد شاخ عدة سنوات وأصبح أكثر عزلة عن أى وقت مضى . لم يكن عمره إلا اثنين وأربعين عامًا ، وكاد قد تخرج بمرتبة الشرف ليكون مهندسًا للحديد والصلب فى " غوتيجا " كما كان من أكثر الناس حرصًا على القراءة رغم أنه لم يقرأ الكثير للمؤلفين باللغة اللاتينية والذين ترجمت أعمالهم بشكل ردىء . تزوج من ألمانية جميلة أنجبت له خمسة أبناء وكان الجميع سعداء فى منزلهم ، هو أكثرهم سعادة حتى جاءت لحظة وقالوا له قبل هذا الوقت بثلاثة أشهر أنه سيموت فى عيد الميلاد المجيد القادم .

فى الوقت الذى تجرى فيه الاستعدادات لإلقاء خطبته ، استطاع السنتور أن يظل بمفرده طوال ساعة كاملة فى المنزل الذى أعد لراحته . وقبل أن ينام وضع فى مياه الشرب وردة طبيعية استطاع أن يحملها وسط الصحراء دون أن تذبل . تناول غذاءه المكون من حبوب الحنطة حسب تعليمات الطبيب ، وكان قد أتى بها معه حتى يتفادى أكل التخميصة وهى الطعام الذى كان ينتظره بقية اليوم . وبعد ذلك تناول بعض الحبوب المسكنة قبل الساعة المحددة لها بحيث يسبق تأثيرها معاودة الآلام . ثم قام بتشغيل المروحة الكهربائية القريبة من الشبكة وتمدد عريًا لمدة خمسة عشر

دقيقة فى ظل الوردة. وأثناء هذه اللحظات، حاول جاهداً مباعدة ذهنه عن فكرة الموت. لم يكن أحد يعرف أنه سيموت فى وقت محدد إلا الأطباء، ذلك أنه قرر أن يتألم وحده مع سره دون أن يدخل حياته أى تغيير. وقد فعل ذلك ليس كبرياء بل خجلاً.

كان يشعر بالسيطرة الكاملة على قواه العقلية عندما عاود الظهور على الملأ حوالى الثالثة بعد الظهر وقد أكمل هندامه وارتدى بنطلوناً من الكتان الخالص وقميصاً ملوناً برسوم الزهور، وقد هدأ روعه من جراء تناوله الحبوب المسكنة. ومع ذلك فإن الموت أخذ يحدث تآكلاً فيه بشكل أفضع مما كان يتصور. فعند صعوده إلى المنصة شعر باحتقار غريب نحو هؤلاء الذين أخذوا يتزاحمون ليصافحوه، ولم تأخذه الشفقة مثلما حدث مرات سابقة بهؤلاء الحضور الخفاة الذين لا يكادون يتحملون حرارة البلاط فى هذا الميدان القاحل. أسكت التصفيق بإشارة أمرة كأنها تعبر عن حنق. ثم أخذ يتحدث دون أن يحرك يديه، وناظره مشبتان على البحر الذى كان يتهد من الحر. كان صوته رتيباً وعميقاً كأنه مياه ساكنة، لكن الخطاب الذى حفظه عن ظهر قلب وكرره كثيراً لم يخطر على باله أن يقول الحقيقة إلا من أجل مقابلة مصير محتوم فى الكتاب الرابع للذكريات ماركو أوريليو.

إننا هنا حتى نهزم الطبيعة - بدأ خطابه بشكل غير تقليدى على الإطلاق - ولن نكون بعد اليوم لقطاع الوطن أو يتامى الله

فى مملكة العطش والضياء؁ ولن نكون المنفيين ونحن نعيش على أرضنا - سنكون أناسًا آخرين أيها السيدات والسادة؁ سنكون عظماء وسعداء.

كانت هذه هى الصيغ التى تقال فى السيرك الخاص به؁ وفى الوقت الذى كان يحدث فيه كان المساعدون يقومون بإلقاء حفنات من عصافير ورقية فى الهواء فتبدو كأن بها حبًا وتدور حول المنصة المرتفعة وتذهب لتسقط فى البحر. وفى الوقت نفسه يقوم آخرون بإخراج أشجار صناعية مخصصة للمسرح - من السيارات - ويقومون برصها خلف الجمهور. وأخيرًا قام المساعدون بتركيب واجهة كرتونية بها صور منازل مبنية بالطوب الأحمر ونوافذ زجاجية وبذلك غطوا الملامح البائسة للحياة اليومية.

استمر السناتور يلقى خطابه وأطال الإلقاء بذكر عبارتين باللغة اللاتينية وذلك حتى يوفر الوقت للملهاة. وعد بأن يأتى لهم بماكينات المطر والوحدات المتنقلة لتربية الحيوانات الداجنة وأن يأتى لهم بزيت السعادة الذى سيساعد على زيادة نمو البقول فى الأصص؁ وكذا زهور البنفسج المعلقة على النوافذ. وعندما أدرك أن عالمه الخيالى أوشك على الاكتمال أشار إليه بإصبعه.

- هكذا سنكون أيها السيدات والسادة - قالها صائحًا -
هكذا سنكون.

نظر الجمهور إلى الوراق فوجد سفينة عابرة المحيطات وقد رسمت وهي تمر من خلف البيوت كما كانت أكثر ارتفاعاً من أعلى المنازل في المدينة المتخيلة. وقد لاحظ السناتور - وحده - أن كثرة الفك والتركيب لهذه اللوحة والانتقال بها من مكان لآخر أدى إلى إصابتها بالتهالك والفناء وأصبح يعلوها التراب وتملؤها الكآبة مثلها مثل قرية روسال دل بيرى.

ولأول مرة طوال اثنا عشر عاماً لم يذهب نلسون فارينا لتحية السناتور، فضل الاستماع للخطاب وهو يتمدد على سريره تعتريه غفوة القيلولة تحت سقف منزل تكسوه الخضرة، وهو منزل مبنى من الألواح غير الناعمة، بناه بنفس الأيدي التي كان يعمل بها صيدلانياً وهي نفسها التي قطع بها زوجته الأولى إرباً. كان قد هرب من سجن كاينا ثم ظهر في روسال دى بيرى قادماً على متن سفينة محملة بالبيغاوات البرية وترافقه امرأة سوداء جميلة وسليطة اللسان، كان قد التقى بها في باراماريو وأنجبت منها طفلة -، لكن المرأة توفيت بعد قليل، لكن لم يكن حظها مثل الأولى التي قطع جسدها إرباً من أجل تسميد حديقته، بل دفنها كاملة في مدافن القرية ووضع اسمها ذا الأصل الهولندى. كانت الابنة قد ورثت عن أمها لون بشرتها وقامتها وورثت عن الأب عينيه الصفراوين والمستغربتين. هذا الأب كانت له أسبابه ليظن أنه يربى أجمل امرأة في العالم.

ومنذ أن تعرف نلسون فارينا على السناتور أونسيمو سانشيث في أول حملة انتخابية له، توسل إليه أن يساعده في الحصول على بطاقة تحقيق شخصية مزيفة تنفذه من يد العدالة. وكان رد السناتور رقيقًا وواثقًا لكنه رافض للطلب. ولم يستسلم نلسون فارينا مع مرور السنين وكان كل مرة يرى السناتور فيها يكرر طلبه بشتى الطرق. لكن الإجابة كانت واحدة. وعلى هذا ظل هذه المرة في نفس المكان وقد شعر بأنه سوف يهلك حيًا في ملجأ القراصنة ذلك. وعندما سمع التصفيق الختامى أطل برأسه من فوق السياج المحيط فرأى المشهد الخلفى للملهاة : المسامير الساندة للمباني المصورة وهياكل الأشجار والرجال الذين اختبئوا وهم يدفعون عابرة المحيطات. فبصق غيظًا. وقال :

- زبالة.

وبعد الخطاب قام السناتور - كما هي العادة بالتجول في شوارع القرية على قدميه ترافقه الموسيقى والصواريخ النارية ويحيط به أهل القرية الذين كانوا يقصون عليه آلامهم، وكان السناتور يستمع إليهم باهتمام ودائمًا ما كان رده عبارات العزاء والمواساة دون أن يعد بالكثير. كانت هناك أم تصيح وهي فوق منزلها ويحيط بها أبنائها الستة، واستطاعت أن تصل بصوتها رغم الضجيج وصوت الفرقعات النارية.

- إننى لا أطلب الكثير أيها السناتور - قالت - لا أطلب إلا حماراً لأحمل عليه الماء من بئر أوركادو.

نظر السناتور نظرة فاحصة للأطفال الستة النحفاء وسأل:

- ماذا يعمل زوجك . سأل .

- ذهب لبحث عن الرزق فى جزيرة أروبا - أجابت المرأة
بمرح - وما وجدته هناك هو امرأة من تلك اللاتى يضعن الماس فى
أسنانهن .

أثارت هذه الإجابة ضحكات مجلجلة .

- حسن - قال السناتور مقررأ - سوف يكون لك حمارك .

وبعد ذلك بقليل كان أحد مساعديه يذهب إلى منزل المرأة
ومعه الحمار الذى كتبت على ظهره أحد الشعارات الانتخابية حتى
لا ينسى أحد أنه كان هدية السناتور .

وفى المسافة القصيرة المتبقية من الشارع صدرت عنه إيماءات
وإشارات ومنها أنه أعطى ملعقة صغيرة لأحد المرضى الذى كان
قد خرج من منزله وهو على سريريه حتى يرى السناتور . وعلى
الناصية الأخيرة رأى نلسون فارينا بين ألواح السياج وبدا له رمادى
اللون ذابلاً فحياه تحية ليس فيها حرارة .

كيف حالك .

تحرك نلسون فارينا فى سريرته المعلق وتركه وهو غارق فى
خضم نظراته الحزينة .

- أنا ، أنتم تعرفون - قال

خرجت ابتته إلى القناء عندما سمعت التحية ، كانت ترتدى
جلبابًا باليًا من جلابيب الفلاحات ، وكان شعرها ملفوفًا بكرات
ذات ألوان متعددة ، ووجهها مدهون اتقاء لأشعة الشمس ، ورغم
أنها على هذا الوضع كان من الممكن تصور أن ليس هناك من هى
أجمل منها فى هذا العالم . وقف السناتور جامدًا .

- عجبًا - تنهد باستغراب - تبارك الله فيما خلق !

فى هذه الليلة قام نلسون فارينا بإلباس ابتته بأفضل ما
عندها من ثياب وأرسلها إلى السناتور . طلب منه اثنان من الحرس
المسلحين الجالسين على الباب وقد انتابتهما غفوة الحر أن ينتظر
على الكرسي الوحيد الموجود فى الدهليز .

كان السناتور يجتمع فى الحجرة المجاورة مع الكبار من
أهالى القرية والذين جمعهم خصيصًا ليحكى لهم بعض الأسرار
التي كان يحجم عن البوح بها فى خطبه . كان الحاضرون شديدي
الشبه بهؤلاء الذين يحضرون مثل هذه الجلسات من أبناء القرى
الصحراوية لدرجة أن السناتور كان يشعر بالملل الشديد من نفس
الجلسة التي تتكرر كل ليلة . كان قميصه يذوب فى العرق وحاول

أن يخفف القميص وهو على جسده عن طريق تعريض نفسه للهواء الساخن الذى تحركه المروحة الكهربائية التى كان طنينها ينتشر فى كالة أرجاء الحجرة .

- نحن بالطبع لا نأكل عصافير ورقية - قال - تعرفون حضراتكم أنه فى اليوم الذى توجد فى أشجار وزهور فى حظيرة ذكور الماعز هذه، وفى اليوم الذى تختفى فيه الديدان والحشرات من الآبار، فلن يكون لنا جميعاً وجود هنا . هل أقول الحقيقة؟

لم يجب أحد، وفى الوقت الذى أخذ يتحدث فيه جذب ورقة من أوراق نتيجة العام وصنع فراشة ثم ألقى بها تجاه الهواء الذى تدفعه المروحة دون اكتراث فطارت الفراشة فى أنحاء الحجرة وخرجت بعد ذلك من الباب الموارب . وظل السناتور يتحدث وهو متماسك أمام فكرة الموت .

- حيثُذ - قال - ليس من الضرورى أن أكرر على مسامعكم ما تعرفونه جيداً: إن إعادة انتخابى هى أفضل شئ بالنسبة لكم أكثر منى، فها أنا متعب ومثقل إلى أبعد الحدود، أما أنتم فهذه حياتكم .

شاهدت لاورافارينا الفراشة الورقية وهى تخرج ولم يرها أحد غيرها، ذلك أن الحارسين المتواجدين فى الردهة قد غرقا فى النوم وهما جالسان على الكرسي وقد احتضنا سلاحيهما .

وبعد عدة لفات تفككت الفراشة الضخمة ثم اصطدمت بالحائط والتصقت به. حاولت لاورافارينا نزعها مستخدمة أظافرهما. كان أحد الجنود الذى استيقظ على صوت التصفيق فى الحجرة قد لاحظ محاولة فارينا غير المجدية.

- لا يمكن نزعها - قال العبارة وهو شبه نائم - إنها مرسومة على الحائط.

عادت لاورافارينا للجلوس من جديد عندما بدأ الحضور فى الخروج من الاجتماع. وظل السناتور على باب الحجرة ويده على السقاية ولم يدر بوجود فارينا إلا عندما خلت الردهة من الناس.

- ماذا تفعلين هنا؟

- هذا ما أمرنى به والدى - قالت.

فهم السناتور. تمعن فى الحرس شبه النائم ثم تمعن فى لاورافارينا وفى جمالها الأخاذ الذى يتجاوز حدود آلامه. وعندئذ أراد أن يتولى الموت اتخاذ القرار نيابة عنه.

- ادخلى - قال لها.

فغدت لاورافارينا فاها وهى على الباب : هناك آلاف من الأوراق النقدية وهى تطير فى هواء الحجرة وكأنها مثل الفراشة، لكن السناتور أطفأ المروحة فأصبحت الأوراق بلا هواء وسقطت متناثرة فوق محتويات الغرفة.

- ها أنت ترين - قال مبتسماً - ها هي القذارة تطير أيضاً .
جلست لاورافارينا وكأنها تجلس على مقعد مدرسى .
بشرتها ناعمة ومشدودة ولونها مثل لون البترول الخام ، وكان
شعرها مصففاً على شكل عرف ، نظراتها أكثر شفافية من النور .
تابع السناتور خط بصرها ووجد الوردة التي زال عنها بريقها
بسبب النظرون .

- إنها وردة .

- نعم - قالت وقد علت وجهها ملامح الحيرة - لقد رأيت
مثلها في "ريواتشا"

جلس السناتور على سرير منطبق وأخذ يتحدث عن الورود
وهو آخذ في فك أزرار قميصه ، وعلى أضلاعه اليسرى ، حيث
تصور أن القلب وراءها ، هناك وشم عبارة عن قلب قد اخترقه
سهم . ألقى بالقميص المبلل على الأرض وطلب من لاورافارينا أن
تساعده في خلع الحذاء ذو الرقبة . جلست على ركبتها أمام
السرير بينما ظل السناتور يتأملها وهو يفكر ، وبينما تقوم هي بفك
رباط الحذاء ، كان يتساءل أى واحد من الاثنين سيكون بمثابة الحظ
السيئ للآخر في هذا اللقاء .

- إنك لا زلت صغيرة .

- لا تظن ذلك - قالت - سوف أكمل التاسعة عشرة من
عمري في أبريل .

فأبدى السناتور اهتمامه .

- أى يوم؟ فقالت :

- الحادى عشر .

شعر السناتور بالتحسن "كلانا من برج الجدى" ثم أضاف مبتسماً .

- إنه برج الوحدة والعزلة .

لم تبد لاورافارينا اهتماماً بما يقول إذ كانت مشغولة بكيفية فك أربطة الحذاء . كما أن السناتور نفسه لم يكن يدرى ما الذى يفعله مع لاورا فارينا فهو غير معتاد على أنواع الحب المفاجئ، كما أنه كان واثقاً أن ذلك النوع من الحب مؤسس على اللاجدارة . وحتى يجد لديه متسعاً من الوقت ضغط على لاورافاريتا بركبتيه واحتضنها من خصرها واستلقى بظهره على السرير . وعندئذ أدرك أنها لا ترتدى شيئاً من الملابس الداخلية . فقد صدرت عن جسدها رائحة غامضة لحيوان جبلى لكن كان قلبها يرتعد خوفاً ويعتلى بشرتها عرق بارد .

- لا أحد يريدنا - تنهد .

أرادت لاورافارينا أن تقول شيئاً لكن لم يسعفها الهواء إلا فى التنفس . جذبها إلى جواره حتى يساعدها ثم أطفأ الأنوار

وبقى المكان فى ظل الوردية . تركت هى نفسها تحت رحمة قدرها .
قام السناتور بتحسسها ببطء وبحث عنها باليد دون أن يلمسها إلا
بالكاد ، لكن يده اصطدمت بقطعة حديدية فى المكان الذى فكر
أنها فيه .

- ماذا تحملين؟

- إنه قفل - قالت .

- يا له من تناقض! قال السناتور - وهو غاضب وسأل عن
الشيء الذى يعرفه جيداً : وأين المفتاح؟
تنهدت لاورافارينا بارتياح .

- إنه مع والدى - أجابت - لقد قال لى أن أقفل . وعلى
سيادتك أن ترسل فى البحث عنه وأن ترسل أيضاً وعداً كتابياً
بأنك ستساعده فى حل مشكلته .

انتابت السناتور حالة توتر . " يا له من ديوث فرنسى "
غمغم باستياء . ثم أغمض عينيه ليسترخى والتقى بنفسه فى
الظلمة . تذكر - تذكر - أنت أو غيرك ستموتون فى غضون وقت
قصير ، وبعد ذلك بقليل لن يتبقى منكم شيئاً بما فى ذلك الاسم .
انتظر حتى تنتهى الرعشة .

- قولى لى شيئاً - سألها - ماذا سمعت عني؟

-أتريد الحقيقة، ولا شىء غيرها؟

- نعم الحقيقة ولا شىء غيرها؟

- حسن - تجرأت لاورافارينا - إنهم يقولون بأنك أسوأ من الآخرين لأنك مختلف.

لم يبد على السناطور أى تغيير. صمت طويلاً وعينيه مغلقتين، وعندما عاد لفتحهما كان يبدو أنه عائد من غرائزه المخفية.

- يا للعجب - قال مقررًا - قولى للديوث والدك أننى سوف أساعده فى مشكلته.

- إذا ما كنت تريد فإننى سأذهب بنفسى للبحث عن المفتاح - قالت لاورافارينا.

أمسك بها السناطور.

- إنسى المفتاح - قال - ونامى معى بعض الوقت، فمن الطيب أن يكون هناك رفيق عندما يشعر المرء بالوحدة.

وعندئذ قامت هى بجعله ينام على كتفها وعيناه موجهتان نحو الوردة فاحتضنها السناطور وأمسك بخصرها ودفن رأسه تحت إبطها الذى تفوح منه رائحة الحيوان الجبلى واستسلم للفرع. بعد ستة أشهر وأحد عشر يوماً سيموت فى نفس هذا الوضع، وقد أخذت فضيحة لاورافارينا تطارده، وسيبكى غيظًا من موته وحده بدونها.

الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب

"إيرينديرا" وجدتها القاسية

(١٩٧٤)

كانت إيرينديرا تقوم بمساعدة الجدة على الاستحمام عندما هبت رياح تعاستها. تعرض المنزل الضخم - المبنى وسط سكون الصحراء والذي يبدو كأنه شامة - لهزة عظيمة زلزلت كيانه مع أول الهجمات. لكن إيرينديرا وجدتها كانتا مهيأتين لمجابهة أخطار الطبيعة ولم تلاحظا مدى شدة الرياح وهما فى البانيو المزين بصفوف الطاووس والموزايك المكون من رسوم صيدانية مثلما هو الحال فى الحمامات الرومانية.

كانت الجدة تبدو فى عرقها وضخامة جثتها كأنها سبع بحر جميل ذو لون أبيض يسبح فى حمام من الرخام. أما الحفيدة فلم تكذب تبلغ الرابعة عشرة من عمرها، كانت نحيفة وطرية العظام وبها طيبة تتجاوز حدود سنها. تقوم بصب الماء على الجدة بخفة ورقة يصحبهما دقة تصل إلى القدسية. كانت قد غلت الماء وأضافت إليه بعض النباتات بغرض التنقية وبعض الأوراق الأخرى حتى تكون ذات رائحة طيبة، وقد تعلق تلك الأوراق بتجاعيد الظهر وبالشعر القوي المنسدل وعلى الكتف القوي الذى يحمل وشماً قوياً وضع بلا رحمة وهو عبارة عن مسوخ من البحارة.

- لقد حلمت فى المساء أننى أنتظر رسالة - قالت الجدة .
أما إيرينديرا التى لم تكن تنطق بكلمة إلا عند الضرورة فقد
سألت :

- أى يوم فى هذا الحلم ؟
- كان الخميس .

إذن كانت رسالة تحمل أنباء سيئة - قالت - لكنها لم
تصل أبداً .

عندما انتهت من إعطاء الحمام لجذتها أخذتها إلى حجرة
نومها . الجدة ضخمة لدرجة لا يمكن معها أن تسير إلا مستندة
على كتف الحفيدة أو متكئة على عصا تشبه عصا الأسقف . ورغم
هذه الصعوبات يبدو عليها أنها صاحبة سلطان قديم . وعلى
السريـر الذى يضم الكثير من التفاصيل فى مكوناتـه بدرجة تزيد
عن الحد لتصبح كأنها هذياناً ، كانت الحفيدة بحاجة إلى ساعتين
أخريـن حتى تجعل الجدة تبدو مهذياناً فقامت بفك شعرها خصلة
خصلة ثم قامت بتعطيرها وتصفيف شعرها وألبستها فستاناً مشجراً
بألوان استوائية ووضعت بودة تلك على وجهها ووضعت لها
أحمر شفاه ثم وضعت لها أحمر الخدود ، وخطت لها حواجبها
بالمسك وطلت لها أظافرها بلون الصدف اللامع . وعندما أصبحت
أمامها كأنها عروس - لعبة - أكبر حجماً من الإنسان . ذهبت بها
إلى حديقة صناعية من الزهور الخائقة مثل المرسومة على فستانها

وأجلستها على كرسى بمسند كان كأنه العرش بشكل الظهر والأجناب ثم تركتها لتستمع إلى اسطوانات وضعتها على الجرامافون .

وفى الوقت الذى أخذت فيه الجدة تطوف فى مستنقعات الماضى كانت إيرينديرا تقوم بكنس المنزل الذى كان معتمًا وممتلئًا بقطع الأثاث الفخمة وتماثيل قياصرة من وحي الخيال وثريرات تتدلى منها الأذرع وملائكة مصنوعة من الألباستر ويبانو مذهب والعديد من الساعات ذات الأشكال والأنماط المختلفة . وفى فناء البيت هناك مستودع لتخزين المياه التى تصل عبر مزاريب من عيون المياه البعيدة . وعلى أحد جوانب الخزان هناك نعامة واهنة ، وهى الحيوان الوحيد من الحيوانات ذات الريش الذى أمكنه مقاومة هذه الطبيعة العاتية . كانت النعامة بعيدة عن كل شىء ، أى فى قلب الصحراء فى عزبة ذات شوارع حزينة وساخنة حيث تموت ذكور الماعز رعبًا عندما تهب رياح

كان هذا الملجأ غير المفهوم مكانه قد بناه زوج الجدة وهو رجل كان يعمل دائمًا فى التهريب ، ونال شهرة أسطورية . اسمه أماديس ، وكان له ابن منها سمى بنفس الاسم أيضًا وهو والد إيرنديرا . لم يعرف أحد أصل هذه الأسرة أو فصلها . والرواية الأكثر شهرة التى تذكر بلغة الهنود تقول بأن أماديس ، الوالد ، كان قد افتدى زوجته الجميلة من بيت دعارة فى أنيتاس بأن قتل رجلاً

بطعنات سكين ونقلها لتكون فى حماية الصحراء . وعندما مات كل أفراد عائلة أماديس ، أحدهم بسبب حمى الكدر والآخر قتلاً أثناء تصفية حسابات بين المتنافسين ، قامت المرأة بدفن الجثتين فى الفناء وقامت بإقالة الأربع عشرة خادمة وأخذت تجتر ذكريات عظمتها فى ظلال هذا المنزل بفضل تضحيات الحفيدة المولودة سفاحاً والتي قامت الجدة بتربيتها منذ مولدها .

كانت إيرينديرا فى حاجة لست ساعات لتقوم بملء الساعات وضبطها . وفى اليوم الذى بدأت فيه تعاستها لم تقم بهذا العمل ، ذلك أن الساعات كانت مملوءة لتعمل حتى صباح اليوم التالى ، ومع ذلك قامت بمساعدة الجدة لأخذ الحمام وارتداء ملابسها وتنظيف الأرضية بالمياه وإعداد طعام الغذاء وتلميع الزجاج . وفى الحادية عشرة قامت بتغيير المياه للنعامة ورى الحشائش والنباتات الصحراوية الموضوعة على المقابر المجاورة الخاصة "بالأماديسيين" كان عليها أن تقاوم شدة الرياح التى لم تعد محتملة . لكنها لم تتصور أبداً أن هذه ستكون رياح تعاستها . وفى الثانية عشرة كانت تلمع آخر كؤوس الشمبانيا . فى هذه اللحظة أحست برائحة شورية وفعلت المستحيل لتصل عدواً إلى المطبخ دون أن يتأتى عن ذلك أى كسر للأوانى الزجاجية الواردة من فيينا .

استطاعت بالكاد أن ترفع الحلة التى أخذت تفور فوق الشعلة ثم قامت بوضع طبيخ آخر ، على النار كانت قد أعدته

مسبقًا، وانتهزت الفرصة لترتاح بعض الشيء على كرسى فى المطبخ. أغمضت عينيها ثم فتحتهما بعد ذلك لكن لم يبد عليها التعب وأخذت تفرغ الشورية فى السلطانية وتؤدي هذا العمل وهى نائمة.

كانت الجدة تجلس بمفردها على حافة مائدة لتناول الطعام أثناء الاحتفالات عليها الشمعدانات الفضية وأطقم السفرة لاثني عشر فردًا. قرعت الجرس الصغير وفى الحال ظهرت إيرينديرا وهى تحمل السلطانية مملوءة بالشورية. وفى اللحظة التى كانت تغرف لها الشورية لاحظت الجدة أن الفتاة تبدو عليها ملامح النعاس، فمررت كفها أمام عينيها وكأنها تقوم بتنظيف الزجاج. لم تر الطفلة يد الجدة التى تابعتها بنظراتها، وعندما أدارت إيرينديرا ظهرها لتعود إلى المطبخ صاحت فيها الجدة.

- يا إيرنديدا

استيقظت فجأة فسقطت سلطانية الشورية من يديها على السجادة.

- لا شيء يهم يا ابنتى - قالت الجدة بحنان صادق - لقد عدت للنوم وأنت تمشين.

- إنها عادة الجد - قالت إيرينديرا وهى معتذرة.

ركعت لتستعيد السلطانية ولا زالت آثار النوم عليها وحاولت تنظيف السجادة من البقعة.

- اتركها هكذا - قالت الجدة وهي تنهرها - وعليك أن تغسلها هذا المساء .

الأمر هو أن إيرينديرا أضافت إلى أعباء المساء المعتادة عبء غسل سجادة حجرة السفرة . أضف إلى هذا أنها انتهزت عملية الغسيل هذه لتقوم بغسل الملابس التي ترتديها يوم الاثنين . بينما تضرب الرياح ضرباتها حول المنزل وتبحث عن منفذ للدخول . كانت أعباء الفتاة كثيرة لدرجة أن الظلام حل عليها دون أن تدري ، وعندما انتهت من سجادة حجرة الطعام كانت ساعة النوم قد حانت .

كانت الجدة تحاول العزف على البيانو بالضرب على أصابعه طوال المساء ، وتحاول أن تغنى وتترنم بأغاني أيام الشباب وبقايا المسك لا زالت عالقة بأهدابها وبها آثار الدموع . لكنها عندما استلقت فى سريرها وهي ترتدى قميص نومها المصنوع من قماش "الموسلين" زالت عنها مرارة تذكر الأيام الخوالى .

- انتهزى يوم الغد فى تنظيف سجادة الصلاة - قالت لإيرينديرا- فهي لم تر الشمس منذ أيام الهرج والمرج .
- حاضر يا جدتى - أجابت الطفلة .

أخذت مروحة من الريش وأخذت تحرك الهواء على السيدة التى لا ترحم والتى بدأت تعدد مفردات الواجبات الليلية وهي تخلد للنوم .

- عليك كى كافة الملابس قبل أن تخلدى للنوم حتى يرتاح ضميرك.

- حاضر يا جدتى .

- وأن تفحصى دواليب الملابس جيداً ذلك أن العتة تنشط فى المساء .

- حاضر يا جدتى .

- وعليك فى الوقت المتبقى أمامك أن تخرجى أصص الزرع إلى الفناء لتتنفس .

- حاضر يا جدتى .

- وعليك أن تضعى للنعامه طعامها .

أخذت تغرق فى النوم ومع ذلك لا تزال تصدر أوامرها .
وقد ورثت الطفلة الحفيدة عنها صفة الاستمرار فى الحياة أثناء النوم . خرجت إيرينديرا من الحجرة دون جلبه وقامت بباقي الأعمال الليلية مستجيبة دائماً لما تأمر به الجدة النائمة .

- وعليك أن تسقى الزرع الموجود على المقابر .

- حاضر يا جدتى .

- وقبل أن تنامى تأكدى من أن كل شىء على ما يرام ،
فالأشياء كثيراً ما تتألم عندما لا تكون فى موضعها السليم .

- حاضر يا جدتى .

- وإذا ما حضر "الأماديسيون" أبلغهم ألا يدخلوا - قالت
الجدة - ذلك أن عصابة بورفيديوغالان - تترقبهم للقضاء عليهم .

لم تجبها إيرينديرا بعد ذلك فهي تعرف أنها أخذت تدخل
فى مرحلة الهذيان . ومع ذلك لم تخالف أية تعليمات . وعندما
انتهت من مراجعة مزاييج النوافذ وأطفأت باقى الأنوار، أخذت
شمعداناً من حجرة الطعام لتستضيء به حتى تصل إلى حجرتها
فى الوقت الذى تملأ فيه أنفاس الجددة النائمة جو المكان عند
اللحظات التى تهدأ فيها حدة الرياح .

لها حجرتها فاخرة أيضاً لكن ليس بنفس الدرجة التى عليها
حجرة الجددة . كانت مليئة بالعرائس المحشوة ولعباً أخرى على
شكل حيوانات جاءتها فى آخر فترات طفولتها . ولما كان إعياء
العمل يغالب إيرينديرا لم تجد متسعاً من الوقت لتخلع ملابسها
فقامت بوضع الشمعدان على "الكومودينو" واستلقت فى
سريرها . وبعد ذلك بقليل استطاعت رياح تعاستها أن تنفذ إلى
حجرة نومها دفعة واحدة كأنها مجموعة من الكلاب فانقلب
الشمعدان فوق الستارة .

وفى صباح اليوم التالى كانت الرياح قد توقفت وبدأت
تتساقط قطرات المطر التى أطفأت الجمرات الأخيرة وجعلت

الرماد، فى المنزل، يتصلب. حاول أهل القرية، الذين هم فى أغلبهم من الهنود إنقاذ ما تبقى من الكارثة، أخرجوا جثة النعامة وقد تفحمت وهيكل البيانو المذهب والجزء الخلفى لأحد التماثيل. كانت الجدة تتأمل كسيرة رماد ثروتها. أما إيرينديرا فكانت جالسة بين المقبرتين بعدما توقفت عن البكاء. وعندما أصبحت الجدة على قناعة بأن بقى لها القليل من الحريق نظرت إلى الطفلة بألم نابع من القلب.

- يا طفلى المسكينة - تنهدت - لو عشت حياتك كلها فلن تستطيع أن تدفعى لى ثمن هذا.

أخذت تسدد لها ذلك منذ هذا اليوم تحت المطر وذلك بأن أخذتها إلى تاجر القرية وهو رجل ماتت زوجته، نحيف الجسم، يعرفه كل من فى الصحراء وذلك لأنه يدفع ثمنًا مناسبًا للعذرية. وأمام ناظرى الجدة التى أخذت ترقب وهى رابطة الجأش، قام الرجل بفحص إيرينديرا بتقشف علمى: أخذ فى الاعتبار قوة ساقىها وحجم ثدييها ومحيط أردافها. ولم ينبس بكلمة حتى استطاع تقدير قيمتها.

- لا زالت صغيرة بعد - قال فى هذه اللحظة - ولها نهدان صغيران.

وبعد ذلك طلب منها أن تصعد على الميزان ليتأكد من صحة تقديره، كانت إيرينديرا تزن ٤٢ كجم.

- لا تزيد عن مائة بيزو - قال الرجل الأرملة .
- مائة بيزو فقط مقابل مخلوقة جديدة تمامًا ! قالت بصوت فيه صياح - لا يا رجل إن هذا هو مخالفة صريحة للحقيقة .
- يمكن أن يصل السعر إلى مائة وخمسين - قال .
- لقد ألحقت الطفلة بى أذى بليغًا يقدر بحوالى مليونى بيزو - قالت الجدة - وعلى هذا فهى فى حاجة إلى مائتى عام لتدفع لى ما عليها .
- فقال : لحسن الحظ فإن أفضل شىء لديها هو صغرى سنها .

كانت العاصفة تهدد بالقضاء على المنزل، كما أن المطر يتسرب من السقف من أماكن كثيرة كأنها تمطر بشكل متقارب فى الداخل والخارج، شعرت الجدة أنها وحيدة وسط عالم من الركاب . فقالت :

- ليتك ترفع السعر إلى ثلاثمائة .
- مائتان وخمسون .
- وفى النهاية اتفقا على سعر مائتين وعشرين بيزو على أن تدفع نقدًا بالإضافة إلى بعض الأطعمة، وعندئذ أشارت الجدة على الطفلة بأن تذهب مع العجوز الأرملة، بينما أمسك هو بيدها وأدخلها فى مؤخرة المحل وكأنه يأخذها إلى المدرسة .

- إنى أنتظرك هنا - قالت الجدة.

- حاضر يا جدتى - قالت إيرينديرا.

الجزء الخلفى من المحل عبارة عن منطقة مظلمة قائمة على أربعة أعمدة من الطوب الأحمر، أما السقف فكان من سعف النخيل المتهالك وسياج جدارى من الطوب الأخضر يبلغ ارتفاعه متراً حيث توضع فوقه البقايا الناجمة عن العواصف. وفوق هذا الساتر من الطوب وضعت أيضاً أصص الصبار والنباتات الصحراوية الأخرى، كما كان هناك سرير معلق مربوط إلى عمودين يتأرجح فى الهواء كأنه شمعة. لم يكن للسرير لون معين، وبالإضافة إلى صفير العاصفة وصوت قطرات المطر كانت تسمع صرخات آتية من بعيد وأصوات حيوانات واستغاثة غريق.

عندما دخلت إيرينديرا والعجوز فى هذا المكان اتكأ كل منهما على الآخر حتى لا تلقى بها زخة مطر تركتهما مبللين تماماً. لم تكن أصواتهما مسموعة، كما أن حركاتهما كانت مختلفة من جراء المطر. وفى أول محاولة قام بها العجوز صاحت إيرينديرا بصوت غير مسموع وحاولت الفرار. فكان رد العجوز عليها بلا صوت، بأن قام بلى ذراعها وأخذها من معصمها وجرها إلى السرير، قاومته بأن خربشته فى وجهه وعادت لتصبح فى صمت، فكان رده هو صفعة قوية على وجهها رفعتها عن الأرض وجعلتها تطير فى الهواء للحظة وشعرها الطويل يتموج

فى الفراغ . وقام بالإمساك بها من خصرها قبل أن تنزل إلى الأرض وألقى بها فى السرير دفعة واحدة ملؤها الفظاظه ، وأمسك بركبتها حتى أصبحت بلا حراك . أذعنت إيرينديرا فى هذه اللحظة للرب وفقدت وعيها وتحولت إلى حالة من إصابة الذهول ، بينما يقوم العجوز بنزع ملابسها وكأنه يقلع الحشائش ويقذف ببقايا الملابس فكانت تطير فى الهواء متأرجحة .

ولما لم يتبق فى القرية أى رجل آخر يمكن له أن يدفع مقابل ممارسة الحب مع إيرينديرا ، ذهبت بها الجدة فى شاحنة متجهة إلى الأماكن التى تتم فيها عمليات التهريب . كانت الرحلة فى صندوق الشاحنة وقد أحاطت بهما أجولة الأرز وصفائح دهن الخنزير وما تبقى من الحريق : مقدمة سرير ملكى وملاك حرب والعرش المحترق وبعض الأشياء الأخرى غير ذات القيمة . وفى الصندوق المرسوم عليه صليبين بريشة عريضة حملتا رفات الأماديسيين .

كانت الجدة تحتمى من الشمس القوية بأن فردت مظلة متهاكة فوق رأسها . تتنفس بصعوبة من جراء العرق والتراب . ورغم هذه الحالة تحتفظ ببعض سلطانها . خلف صف الصفائح وأجولة الأرز قامت إيرينديرا بسداد ثمن الرحلة ونقل الأمتعة وذلك بممارسة الحب مع عمال الشاحنة مقابل عشرين بيزو . وكانت دفاعاتها - فى البداية - مشابهة للدفاع الذى اتخذته عند

اعتداء العجوز، لكن طريقة الحمال كانت جد مختلفة إذ اتسمت بالبطء والخبرة، وانتهى به الأمر إلى تطويعها باللين. وعندما وصلت الشاحنة إلى أول قرية بعد يوم ثقيل كانت إيرينديرا والحمال يستريحان من ممارسة الحب الجيد خلف الشحنة الساترة.

صاح سائق الشاحنة في الجدة :

- العمار هو ابتداء من هذا المكان فصاعداً.

راقبت الجدة الشوارع البائسة وهي لا تكاد تصدق. لم يكن هناك أحد من المارة في شوارع هذه القرية الكبيرة بعض الشيء، لكنها كانت حزينة بنفس الدرجة التي كانت عليها القرية السابقة.

- لا يلاحظ شيء.

- إنها أرض إرساليات دينية - قال السائق.

- أنا لا يهمنى الحصول على الصدقات بل ما يهم هو التهريب - قالت الجدة.

كانت إيرينديرا تستمتع إلى الحوار الدائر بينما تحاول وضع إصبعها في أحد أجولة الأرز، وسرعان ما وجدت فتلة جذبتها فأخرجت عقداً من اللؤلؤ الحر. تأملته وهي تشعر بالفزع وأخذته بين أصابعها وكأنه حية ميتة. في هذه اللحظة كان السائق يرد على الجدة:

- لا تحلمى أحلام اليقظة - يا سيدتى . لا يوجد هناك
مهربون .

- وكيف لا - قالت الجدة - قل لى أنت ذلك!
- ابحثى عنهم وسترين - قالها السائق حارماً - إن كل
الناس تتحدث عنهم لكن لا أحد يراهم .

أدرك الحمال أن إيرينديرا قد استخرجت العقد فسارع بأخذه
منها ووضعها مرة أخرى فى جوال الأرز . وعندئذ قررت الجدة
البقاء فى هذه القرية رغم فقرها فنادت على الحفيدة لتساعدتها فى
النزول من الشاحنة . ودعت إيرينديرا الحمال بقبلة سريعة لكنها
عفوية وحقيقية .

انتظرت الجدة وهى جالسة على العرش وسط الشارع حتى
انتهوا من إنزال الأمتعة ، وكان آخرها الصندوق الذى به رفات
"الأماديسين" .

- إنه صندوق ثقيل الوزن كأنه ميت - ضحك السائق .
- إنهما اثنان - قالت الجدة - وعليك أن تعاملهما
باحترام .

- أراهن على أنها تماثيل من العاج - ضحك السائق .
وضع الصندوق الذى يحمل الرفات كيفما اتفق وسط قطع
الأثاث التى أصابها الحريق ومد يده مفتوحة إلى الجدة .

- خمسين بيزو - قال .

أشارت الجدة إلى الحمال .

- لقد تم السداد لعبدك باليد اليمنى .

نظر السائق مندهشاً إلى الحمال وصدرت عن هذا إيماءة تؤكد القول ، فعاد إلى كابينة القيادة حيث كانت هناك امرأة تسافر وهي ترتدى ملابس الحداد ومعها طفل تحمله على ذراعيها وهو يبكي من الحر . كان الحمال واثقاً من نفسه جداً وتوجه إلى الجدة بالقول :

- سوف تأتي إيرينديرا معي . إلا إذا رغبت سيادتكم في شيء آخر . إننى أقول ذلك بنية صادقة .

تدخلت الطفلة مفروعة .

- أنا لم أقل شيئاً !

- أنا الذى أقول فهذه فكرتى - قال الحمال .

تفحصته الجدة وهى تراه بقامته كاملة دون أن تقلل منه بل تحاول أن تدرك الحجم الحقيقى لبنيته .

- لا مانع عندى - قالت الجدة - إذا ما دفعت لى ما خسرت به بسبب إهمالها . المبلغ هو ٨٧٢٣١٥ بيزو ، ولما دفعت لى

مسبقًا ٤٢٠ بيزو، أى أن المبلغ المطلوب هو ٨٧١٨٩٥

أخذت الشاشة تتحرك .

- صدقيني ! إننى على استعداد لأسدد لك هذا المبلغ الضخم إذا ما توفر لدى - قال الحمال جادًا - فالطفلة تساوى ذلك .

شعرت الجدة بارتياح لقرار الفتى .

- إذن عد عندما يتوفر لك هذا المبلغ يا بنى - ردت عليه بلهجة فيها ظرف - أما الآن فعليك بالذهاب لأننى إذا ما عدت لمحاسبتك مرة أخرى ستكون مدينًا لى بعشرة بيزو .

قفز الحمال على مؤخرة الشاشة التى أخذت تبتعد . ومن هناك ودع إيرينديرا ملوحًا لها بيده، ولما كانت لا تزال تشعر بالفرع لم ترد عليه .

على نفس الأرض البوار التى تركتها الشاشة قامت إيرينديرا والجدة بارتجال كشك مصنوع من ألواح الصفيح والسجاد الآسيوى للعيش فيها وضعتا حصيرتين على الأرض، ونامتا براحة كأنهما فى المنزل الكبير، ومكثتا نائمتين حتى نفذت الشمس بين ثقوب السقف ولفحت وجهيهما .

الجدة هى التى قامت بإصلاح هندام إيرينديرا هذا اليوم عكس ما كان يحدث دائمًا . فوضعت المساحيق على وجهها

بشكل مبالغ فيه طبقاً للموضة التي كانت سائدة أيام شبابها، وتلت ذلك بوضع أهداب صناعية وربطت شعرها بشريط بدا كأنه فراشة.

- سوف ترين نفسك فى شكل فظيع - قالت - لكن هذا أفضل : الرجال قساة جداً فى معاملتهم للنساء.

عرفت كلتا المرأتين صوت حوافز اثنين من البغال قادمين من الصحراء، وقد وصل الصوت إلى سمعيهما قبل رؤيتهما بوقت طويل. وبناء على أوامر الجدة استلقت إيرينديرا على حصيرة وكأنها ممثلة مسرح مبتدئة أخذت وضعها عند رفع الستار، واتكأت الجدة على عصا الأسقف ثم خرجت من هذه الحجرة المرتجلة وجلست على العرش فى انتظار مرور البغال.

كان رجل البريد يقترب. لم يكن عمره يتجاوز العشرين رغم أن المهنة قد أضافت إلى عمره سنوات، يرتدى الكاكي وغطاء رأس من الفلين، ويحمل مسدساً خاصاً بالجنود يضعه فى حزامه المعد لحمل الطلقات. كان يمتطى بغلة جيدة ويسحب أخرى لا زالت أقل حجماً من التى يمتطيها وقد وضع عليها أجولة و"خرج" البريد المصنوع من القماش.

قدم التحية للجدة ملوحاً بيده عند مروره بها، وواصل سيره، لكنها أشارت إليه حتى يلقى نظرة على ما بداخل الكشك.

فتوقف الرجل ورأى إيرينديرا وهي مستلقية على الحصيرة مهندمة وقد ارتدت فستاتاً مزخرفاً بالألوان الحمراء .

- هل تروق لك - سألت الجدة .

لم يدرك رجل البريد حتى هذه اللحظة ما تريدانه .

- ليس الأمر بسيئاً على غير إفطار - ابتسم .

- السعر خمسون بيزو - قالت الجدة .

- عجباً هل هي من ذهب! قال - هذا المبلغ هو المطلوب لطعامي طوال شهر .

- لا تكن بخيلاً - قالت الجدة - فالبريد الجوى دخله أفضل من دخل القساوسة .

- أنا من البريد الوطنى - قال الرجل - أما البريد الجوى فهو ذلك الذى ينقل على شاحنة صغيرة .

- على أى الأحوال، الحب هو أمر هام مثله مثل الطعام - قالت الجدة .

- لكنه لا يغذى .

أدركت الجدة أن ذلك الرجل الذى يعيش على آمال الناس سيكون لديه الوقت الكافى للفصال .

- كم معك ؟ سألته .

نزل الرجل من على البغلة وأخرج من جيبه بعض الأوراق النقدية المتآكلة وأبرزها للجدّة فأخذتها جميعها كالكرة بأصابعها الخمسة وكأنها مخلب إحدى الطيور الجوارح .

- سوف أخفض لك السعر - قالت - لكن بشرط : أن تضيع الخبر في كل مكان .

- سوف أفعل ذلك حتى الطرف الآخر من الدنيا - قال رجل البريد - فأنا أكثر نفعاً في مثل هذه الأمور .

لم تكن إيرينديرا قد تمكنت من تحريك أهدابها وعندئذ نزعت الرموش الصناعية وأخذت جانباً من الحصيرة لتخلى مكاناً للخطيب المؤقت . وعندما دخل الكشك قامت الجدة بإغلاق المدخل بأن جذبت الستارة بقوة .

كان الاتفاق الذي تم ذا فاعلية فقد كان الرجال معلقون بصوت وصول البريد فجاءوا من كل حذب وصوب ليعرفوا الخبر الجديد الخاص بإيرينديرا . وخلف الرجال جاءت تراييزات القمار ومنافذ بيع الطعام . ووراء كل هؤلاء قدم المصور على دراجته واستقر به المقام أمام المعسكر فوضع الكاميرا اليدوية ذات القماش الأسود وكذا الستارة الخلفية وعليها رسمت بحيرة مليئة بالبجع الذي لا حياة فيه .

كانت الجدة تحرك الهواء بالمروحة وهى تجلس على العرش .
بدا أنها غير مبالية بهذا التجمع ، فما يهمها هو النظام فى طابور
الزبائن الذين أخذوا أدوارهم ، وكذا حقيقة المبلغ الذى يدفعونه
مقدماً ليدخلوا على إيرينديرا . كانت حادة فى البداية لدرجة أنها
رفضت زبوناً جيداً كان المبلغ الذى يقدمه أقل خمسة بيزو من
المطلوب . لكن بمرور الشهور أخذت تتعلم دروس الواقع وانتهى
بها الأمر لقبول سداد باقى المبالغ المتفق عليها من خلال ميداليات
تحمل صور القديسين أو بعض المقتنيات القديمة للأسرة وخواتم
الزواج وكل شئ تتأكد من أنه ذهب جيد العيار ، عندما تضغط
عليه بأستانها ، رغم أنه لم يكن يلمع .

وبعد وقفة طويلة فى تلك القرية الأولى ، كانت الجدة قد
جمعت المال الكافى لتشتري حماراً وبدأت تبحث داخل الصحراء
عن أماكن أخرى أكثر مناسبة من أجل قبض الدين المستحق لها .
كانت تسافر على بردعة مرتجلة وضعت على ظهر الحمار ، وكانت
تحتوى من الشمس باستخدام الشمسية المتهالكة التى كانت إيرينديرا
تمسك بها . كان يسير خلفهما أربعة هنود من الحماليين وهم
يحملون معهم مكونات العسكر : العرش الذى تم إصلاحه وعدة
النوم والملاك المصنوع من الألباستر والصندوق الذى يضم رفات
الأماديسيين . وكان المصور يسير وراء القافلة وهو يركب دراجته
لكنه كان بعيداً عنهما وكأنه ذاهب إلى مهرجان آخر .

كان قد مضى على الحريق ستة أشهر، وفى هذه اللحظة كان للجدّة تصور كامل عن هذه التجارة.

- إذا ما سارت الأمور هكذا - قالت لإيرينديرا - فستكونين قد وفيت بالدين خلال ثمانى سنوات وسبعة أشهر وأحد عشر يوماً.

أخذت تراجع حساباتها وهى مغمضة العينين وتمضغ بعض الحبوب التى كانت تخرجها من كيس قماش تحتفظ فيه بالمال أيضاً ثم قالت :

- وهذا دون أن نأخذ فى الاعتبار أجر الهنود وطعامهم، بالإضافة إلى نفقات أخرى غير كبيرة.

لم تعترض إيرينديرا، وهى تسير إلى جوار الحمار وقد أنهكها الحر والتراب، على الحسابات التى تقوم بها الجدة، لكن حاولت ضبط نفسها حتى لا تنهمر دموعها.

- إن عظامى تتكسر - قالت.

- حاولى أن تنامى.

- حاضر يا جدتى.

أغمضت عينيها ثم أخذت شهيقاً عميقاً من الهواء الساخن وواصلت سيرها وهى نائمة.

ظهرت فى الأفق المترب شاحنة صغيرة محملة بالأقفاص وقد أخذت ذكور الماعز تفر هنا وهناك، ثم كان ظهور الطيور بمثابة المياه العذبة فى يوم أحد حار للقديس ميخائيل، قديس الصحراء. يقود السيارة مزارع هولندى ضخمة الجثة اكتوى جلده بالطقس المستعر، وله شنب رمادى اللون ورثه عن أحد آباء أجداده. أما ابنه "عليس" الذى يجلس إلى جواره فهو شاب يافع ذهبى اللون عيناه زرقاوين تنطقان بالعزلة، وهيئته هى هيئة ملاك هبط عرضاً. استرعى انتباه الهولندى وجود خيمة يقف أمامها على شكل طابور كل جنود الحامية المحلية. كانوا يجلسون على الأرض ويشربون من نفس الزجاجاة التى تتقل من فم إلى فم، ويضعون على رؤوسهم أغصان شجر اللور وكأنهم يريدون التمويه إيذاناً بالدخول فى معركة. سأل الهولندى بلغته.

- ما الذى يباع هنا بحق الشياطين؟
- إنها امرأة - أجابه الابن بتلقائية - اسمها إيرينديرا.
- وكيف عرفت
- كل الناس فى الصحراء يعرفون ذلك - أجاب عليس.
- نزل الهولندى بالفندق الصغير فى القرية وأبطأ عليس بعض الشيء فى الشاحنة وقام بأصابعه الماهرة بفتح حافظة النقود والأوراق التى تركها والده على المقعد وأخذ رزمة من الأوراق

المالية ووضع بعضًا منها فى جيوبه ثم عاد وترك كل شىء فى مكانه، وانتهز حلول الظلام، وعندما كان والده نائمًا تسلق خارجًا من نافذة الفندق وذهب ليأخذ دوره أمام خيمة إيرينديرا.

كانت الحفلة فى أوج ازدهارها. الجنود سكارى يرقصون وحدهم حتى يفيدوا من مجانية الموسيقى. والمصور يلتقط الصور الليلية مستخدمًا ورق الماغسيوم للإضاءة. وفى الوقت نفسه تشرف الجدة على التجارة وتقوم بعد النقود فى الخفاء وتقوم بتوزيع الأوراق كل فئة على حدة ثم تقوم بترتيب كل ذلك فى سلة. لم يتبق إلا اثنى عشر جنديًا، غير أن طابور المساء كان يضم بعض المدنيين، وكان عليس آخر فرد فى الطابور.

وقع الدور على جندى كئيب الشكل، فباعده الجدة وزادت من هذا بأن باعدت نفسها عن لمس نقوده.

- لا يا بنى - قالت له - لن تدخل ولو كان معك ذهب الدنيا - إنك إنسان ثقيل.

شعر الجندى بالمفاجأة فهو ليس من هذه النواحي.

- ما معنى هذا؟

- إنك مُعدى بثقلك - قالت الجدة - وهذا بمجرد النظر إلى وجهك.

أبعدته بإشارة من يدها . وأذنت للجندى الثانى بالدخول .

- أدخل أنت أيها الضخم - قالت له بمزاجية - وعليك ألا تتأخر كثيراً فالوطن فى انتظارك .

دخل الجندى ، لكنه خرج فى الحال ذلك أن إيرينديرا كانت تريد التحدث مع جدتها . فقامت بوضع سلة النقود على صدرها ودخلت الخيمة ضيقة المساحة لكنها كانت مرتبة ونظيفة . كانت إيرينديرا ممددة على السرير الشبكى وهى غير قادرة على أن تتحكم فى رعشة سرت بجسدها . فقد عوملت بقسوة وملأتها قذارة الجنود .

- يا جدتى - وفى صوتها حشجة البكاء - إننى أموت . وضعت الجدة يدها على جبهتها وعندما تأكدت أن حرارتها ليست مرتفعة حاولت تهدئتها .

- لم يبق إلا عشرة من الجنود - قالت .

أجهشت إيرينديرا باكية بصوت حيوان يشعر بالغىظ . عرفت الجدة حيثئذ أنها تجاوزت حدود الرعب ، فقامت بملاطفتها بأن ربت على رأسها لتساعدتها على استرجاع هدوئها .

- كل ما فى الأمر أنك تعبت - قالت لها - هيا لاتبك أكثر من ذلك قومى بالاستحمام بماء الرضاب حتى يسرى الدم فى عروقك .

خرجت من الخيمة فى اللحظة التى أخذت فيها إيرينديرا
تستعيد هدوءها. فأعادت النقود للجندى الذى كان عليه الدور
"لقد انتهينا اليوم - قالت له - عد غداً وسوف تكون فى أول
الطابور.

ثم صاحت فى باقى الطابور.

- انتهينا اليوم أيها الفتية. إلى اللقاء غداً فى التاسعة
صباحاً.

خرج الجنود والمدنيون من الطابور وهم يصيحون احتجاجاً.

واجهتهم الجدة بذكاء لكنها خفت من وقع هراواتها.

- أنتم لا تضعون اعتباراً لما يحدث أيها الحمقى - كانت
تصيح - هل تظنون أن هذه المخلوقة من حديد، أه لو كنتم
مكانها، أيها الفاسدون يا روثاً بلا وطن

فكان رد الرجال عليها بشتائم أقذع لكن انتهى الأمر بأن
سيطرت على الموقف وظلت تترقب وهى تحمل الهراوة حتى رفع
البائعون موائد بيع شحم الخنزير المقلّى وانفض أصحاب موائد
القمار. وبينما كانت تستعد لدخول الخيمة رأت عليس وحده فى
المساحة الخالية والمظلمة التى كان الطابور يصطف فيها شكله
يوحى بهيئة غير واقعية لكنه بدا مرئياً فى هذه الظلمة بفضل
وميض وسامته.

- وأنت - قالت له الجدة - أين تركت أجنحتك؟
- كان جدى هو صاحب الأجنحة - أجاب عليس بتلقائية
- لكن لا أحد يصدق ذلك .

عادت الجدة لتفحصه باهتمام كأنها مسحورة " أنا أو من
بذلك - قالت - وعليك أن تأتى غداً وقد وضعت الأجنحة " .
دخلت الخيمة وتركت عليساً وهو يغنى فى مكانه .

شعرت إيرينديرا بالتحسن بعد الحمام ، وقد ارتدت ملابس
قصيرة مزركشة ، وأخذت تجفف شعرها لتنام ، ومع ذلك تغالب
الدموع ، استغرقت الجدة فى النوم .

ومن وراء سرير إيرينديرا أطل عليس برأسه بخفة وحذر
فرأت هى العينين الشغوفتين الرقراقتين ، لكنها - قبل أن تنطق
بكلمة - قامت بدعك وجهها بالفوطة للتأكد أن ما تراه حقيقة ،
وعندما طرف عليس بعينه لأول مرة سألته إيرينديرا بصوت
هامس .

- من تكون أنت؟

ظهر عليس بجزء من جسده حتى الأكتاف - " أنا أسمى
عليس " - قال ، وأظهر لها الأوراق المالية التى سرقها من والده ،
ثم أضافت :

- هات النقود .

وضعت إيرينديرا يديها على السرير ثم اقتربت بوجهها من وجه عليس وواصلت حديثها معه كأنهما تلميذان في مدرسة ابتدائية .

- كان عليك أن تكون في الطابور - قالت له .

- لقد انتظرت الليل بطوله - قال عليس .

- والآن عليك الانتظار حتى الصباح - قالت إيرينديرا -
إننى أشعر وكأنى قد تعرضت للضرب على كليتى .

فى هذه اللحظة بدأت الجدة تتحدث وهى نائمة .

- لقد مضى عشرون عاماً منذ آخر مرة أمطرت - قالت -
كانت زوبعة رهيبة إذ اختلط المطر بماء البحر وأصبحنا فوجدنا
المنزل مليئاً بالسّمك والكاراكول، أما جدتك يا أماديس رحمها
الله فقد شوهدت مضيئة وهى تسبح فى الفضاء .

عاد عليس ليهرب خلف السرير، ابتسمت إيرينديرا ابتسامة
لذيذة .

- اهدأ - قالت له - إنها تبدو مجنونة وهى نائمة لكنها لا
يوقظها زلزال .

عاد عليس ليطل من جديد . تأملته إيرينديرا بابتسامة مأكرة
وفيهما شيء من الود وقامت برفع الملاءة المستخدمة من على
الحصيرة .

- تعال - قالت له - ساعدنى على تغيير الملاءة .

عندئذ خرج عليس من خلف السرير وأخذ الملاءة من أحد
أطرافها . ولما كانت أكبر بكثير من حجم الحصيرة فقد استغرقا وقتاً
فى طيها أكثر من مرة ، وفى كل مرة يصبح عليس أكثر اقتراباً من
إيرينديرا .

- جن جنونى لأراك - قال سريعاً - الجميع يقولون بأنك
جميلة للغاية وهذا حقيقى .

- لكننى سأموت - قالت إيرينديرا .

- تقول أُمى أن من يموتون فى الصحراء لن يصعدوا إلى
السماء بل سيذهبون إلى البحر - قال عليس .

- قالت : أنا لا أعرف البحر .

- قال عليس : إنه مثل الصحراء لكن به ماء .

- إذن لا يمكن السير فيه .

- عرف والدى أحد الناس الذى كان يسير فى البحر - قال

عليس - لكن ذلك كان منذ زمن طويل .

كانت إيرينديرا سعيدة لكنها كانت بحاجة للنوم فقالت :
- إذا ما أتيت غداً فى الصباح الباكر سوف تكون أول
الطابور .

- فقال عليس : سوف أرحل مع والدى فجر هذا اليوم .

- ألن تعود إلى هنا مرة أخرى؟

- لا أحد يدرى متى - قال عليس - إننا نمر بهذه القرية
بمحض الصدفة لأننا فقدنا الاتجاه الصحيح فى الطريق إلى
الحدود .

نظرت إيرينديرا، مفكرة، إلى الجدة النائمة .

- حسن - قالت مقررة - هات ما معك من نقود .

أعطاهما عليس النقود، فنامت إيرينديرا فى السرير لكنه ظل
يرتعش فى مكانه، وفى اللحظة الحاسمة خارت عزيمته، فأخذته
إيرينديرا من يده لتنتهى بسرعة وعندئذ أدركت رهبته، كانت
تعرف هذا الخوف .

- أهذه أول مرة؟ سألته .

لم يجب عليها لكن ظهرت على وجهه ابتسامة خيبة
الأمل، فتغيرت إيرينديرا .

- تنفس بهدوء - قالت له - الأمر صعب فى البداية -
لكن ستتعود عليه بعد ذلك .

جعلته ينام إلى جوارها، وبينما تساعدته فى خلع ملابسه
كانت تربت عليه بمداعبات فيها أمومة .

- ما اسمك؟

- عليس .

- إنه اسم أجنبى - قالت إيرينديرا .

- لا ، إنه اسم بحار .

كشفت إيرينديرا عن صدره وقبلته قبلات مثل تلك التى
تعطى لليتامى ، ثم أخذت تشمه .

- تبدو كأنك ذهب - قالت - ذلك أن رائحتك هى
الزهور .

- لا بد وأنها رائحة البرتقال - قال عليس .

وبعد أن عاد إليه الهدوء ابتسم ابتسامة مأكرة .

- إننا نحمل الكثير من الطيور للتمويه - أضاف - لكن ما
نحمله فى السيارة ونتجه به إلى الحدود هو تهريب البرتقال .

- البرتقال لا يهرب - قالت إيرينديرا .

- هذا النوع نعم يتم تهريبه - قال عليس - فكل واحدة تساوى خمسين ألف بيزو .

كانت إيرينديرا تضحك لأول مرة منذ وقت طويل .

- إن أفضل شيء يعجبني فيك - قالت - هو هدوءك وأنت تخترع هذه الترهات .

استعادت إيرينديرا تلقائيتها وكأن براءة عليس أثرت في تغيير مزاجها وتوجهاتها .

كانت الجدة وهى على مسافة قصيرة منهما لا زالت تتكلم وهى نائمة .

- فى هذه الأزمئة ، أى فى بداية مارس أتوا بك إلى المنزل - قالت - كنت تبدو أنك سلحفاة صغيرة ملفوفة فى القطن . أما أماديس والدك الشاب الوسيم فقد كان سعيداً فى ذلك المساء لدرجة أنه أرسل فى البحث عن عشرين عربة صغيرة محملة بالزهور . ثم وصل وهو يصيح ويلقى بالزهور فى الشارع حتى أصبح اللون الذهبى هو المسيطر على القرية وكأنها البحر .

أخذت تهذى عدة ساعات بصوت مرتفع وبشغف فيه إصرار . لكن لم يسمعها عليس ذلك أن إيرينديرا أحبته كثيراً وبصدق . عادت لتمارس معه الحب بنصف السعر فى الوقت الذى

ظلت الجدة تهذى فيه . وظلت تمارس معه الحب حتى الصباح بدون مقابل .

كانت هناك مجموعة من المبشرين يرفعون الصليبان إلى أعلى قد تراصوا جنباً إلى جنب وسط الصحراء . كانت الرياح العاتية ، مثل رياح التعاسة ، تعصف بملابسهم المصنوعة من الخيش وبلحاهم الخشنة لدرجة أنهم لا يكادون يصمدون على أقدامهم . كانت دار التبشير خلفهم وهى عبارة عن مبنى من العصر الاستعماري بها برج صغير للأجراس يقوم على حوائط خشنة عليها طبقة من الجير .

أشار المبشر الأصغر سنًا والذي كان يقود المجموعة بسباته إلى وجود شرح طبيعي فى الأرضية الطينية اللامعة .
- لا تعبروا هذا الخط - صاح فيهم .

توقف الحمالون الأربعة من الهنود الذين كانوا يحملون الجدة على محفة خشبية عندما سمعوا هذه الصيحة . ورغم أن الجدة كانت تجلس جلسة غير مريحة على المحفة ، كما أن مزاجها غير طبيعي بسبب الصحراء وترابها ، إلا أنها كانت تحتفظ بتعاليتها . إيرينديرا تسير إلى جوارها . وخلف المحفة هناك ثمانية من الحمالين الهنود ، المصور على دراجته فى المؤخرة .

- الصحراء ليست ملكاً لأحد - قالت الجدة .

- إنها لله - قال المبشر - وأنتم تعتدون على القوانين المقدسة بما تحملون من قذارة.

عرفت الجدة أن المبشر قادم من شبه جزيرة أيبيريا وذلك من خلال لكتته في الحديث. فحاولت تفادى مواجهة مباشرة معه حتى لا تصطدم بعناده. استعادت رباطة جأشها وقالت.

- لا أفهم الغارك يا بنى.

أشار المبشر إلى إيرينديرا.

- هذه المخلوقة لا زالت قاصراً.

- لكنها حفيدتى.

- هذا أسوأ - رد المبشر - عليك أن تضعيها تحت وصايتنا بالحسنى، وإلا لجأنا إلى أساليب أخرى.

لم تكن الجدة تنتظر أن تصل الأمور إلى هذا الحد.

- حسن ليكن ذلك - تنازلت وهى تشعر بالفزع - لكتنى سأعود آجلاً أم عاجلاً وسوف ترى.

ظلت الجدة وإيرينديرا تسامان لمدة ثلاثة أيام فى قرية قريبة من الدير، وعندئذ دخلت أجساد صامتة وهى تزحف، كأنها مجموعة اقتحام، داخل الخيمة. كانت هذه الأجساد لسته من المبتدئات فى الرهبنة من الهنديات اللائى يتمتعن بالحياة

والشباب، وهن يرتدين الملابس الخشنة التى يبدو وميضها، كأنها فسفورية، تحت ضوء القمر المتقطع. ودونما جلبة، قمن بتغطية إيرينديرا بقماش سميك وأخذنها دون إيقاظها وكأنها سمكة كبيرة الحجم وضعيفة تم اصطياها فى شبكة فضية.

لم يكن هناك مخرج أمام الجدة لتتقذ حفيدتها من وصاية المبشرين. وعندما أعيثها الحيل، سواء المباشرة منها أو الملتوية، لجأت للسلطات المدنية التى يرأسها أحد العسكريين، فوجدته فى فناء منزله والجزء العلوى من جسده عريان، ويصوب بيندقية من بنادق الحرب صوب سحابة سوداء تعبر الشمس المشتعلة. كان يحاول فتح ثقب فى السحابة حتى تفرغ ما فيها من مياه لكن طلقاته ذهبت أدراج الرياح ومع ذلك كان يصمت بين الحين والآخر للاستماع إلى الجدة.

- أنا غير قادر على فعل شيء - شرح لها عندما انتهى من الاستماع إليها - فهؤلاء الآباء من حقهم طبقًا للاتفاق الموقع أن يأخذوا الفتاة حتى تبلغ سن الرشد. أو حتى تتزوج.

- لماذا إذن تشغل سيادتك وظيفة العمدة؟ سألت الجدة.

- حتى أجعل المطر يسقط - قال العمدة.

وبعد أن رأى أن السحابة قد ابتعدت عن مرماه قطع مهامه الرسمية وأبدى كل اهتمامه بالجدة..

- إن ما تحتاجينه يا سيدتى هو إنسان له وزن كبير يستطيع الدفاع عنك - قال لها - أنت فى حاجة لأحد يضمنك فى حسن السير والسلوك من خلال مستند كتابى . ألا تعرفين السناتور أونيسيمو سانشيث؟

كانت الجلدة تجلس تحت أشعة الشمس الحمراء الحارقة على كرسى صغير على عجزها الضخم فأجابت قائلة :
- إننى امرأة مسكينة فى هذه الصحراء الشاسعة .

تأملها العمدة بعينه اليمنى وقد أغمضها قليلاً بسبب الحر وكانت نظرة متعاطفة .

- إذن لا تضيعى الوقت يا سيدتى - قال لها - لقد ذهبت مع الريح .

لم يذهب الريح بها بالطبع . فقد أقامت الخيمة أمام دير التبشير وجلست تفكر كأنها محارب وحيد يقوم بحصار مدينة محصنة . أما المصور الجوال الذى يعرفها جيداً فقد حزم الماكينة على دراجته واستعد للذهاب عندما رآها وهى تحت الشمس وعيناها مثبتتان على الدير .

- لنر من سيصاب بالإجهاد أولاً - قالت الجلدة - هل أنا أم

هم .

- إنهم هناك منذ ثلاثمائة عام ولا زالوا يتحملون - قال المصور - أما أنا فذاهب .

فى هذه اللحظة رأت الجدة الدراجة محملة .

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى حيث تأخذنى الرياح - قال المصور ثم مضى - الدنيا واسعة .

تنهدت الجدة .

- ليس بنفس الشكل الذى تتصور أيها التعس .

لكنها لم تحرك رأسها رغم الغيظ حتى لا يبتعد ناظرها عن الدير - وظلت على هذا الحال طوال أيام كثيرة كان الحر فيها شديداً . وطوال ليالى كثيرة تضرب الرياح فى أرجائها . وطوال أوقات التأمل لم يخرج أحد من الدير . قام الهنود ببناء عشة من السعف إلى جوار الخيمة وعلقوا فيها حاجياتهم ، لكن الجدة كانت تسهر حتى ساعة متأخرة من الليل يغالبها النعاس وهى جالسة على العرش وتلوك الحبوب ، التى أخرجتها من كيسها ، بإصرار ثور يرقد ويجتر طعامه .

و ذات ليلة ، مرت بالقرب منها مجموعة من الشاحنات المغطاة ؛ كانت تسير ببطء ، وكانت الأضواء الوحيدة المشتعلة هى

كشافات ملونة تجعل من الإضاءة كأنها ألوان طيف. عرفت الجدة نوعية السيارات على الفور فهي مماثلة لشاحنات الأماديسين. تأخرت آخر سيارة في هذا الرتل ثم توقفت ونزل منها رجل ليقوم بإصلاح شيء ما في صندوق السيارة. كان يبدو أنه صورة طبق الأصل من الأماديسين إذ كان يلبس قبعة ملتوية أطرافها وحذاء ذا رقبة طويلة وحزامين من الخراطيش متعاقلين على منطقة الصدر وبندقية من بنادق الجيش بالإضافة إلى مسدسين. ولما كان قد غلبتها قناعة لا تقاوم نادى الجدة على الرجل.

- ألا تعرف من أنا؟ سألته

وجه إليها الرجل ضوء البطارية التي يحملها بشكل لا رحمة فيه وتأمل للحظة الوجه الذي أصابه الإعياء من السهاد والعينين المتعبتين والشعر الذابل لامرأة كان يمكن أن تكون أجمل امرأة في الدنيا رغم تقدم عمرها. وعندما تفحصها جيداً ليكون على يقين من أنه لم يرها قط قبل ذلك أطفأ البطارية.

- الشيء الوحيد الذي أعرفه ومتأكد منه - قال - هو أنك لست عذراء دى لوس ريميديوس.

- على العكس تماماً - قالت الجدة بصوت فيه عذوبة - إننى السيدة.

وضع الرجل يده على المسدس بحركة غريزية.

- أى سيدة !

- زوجة أماديس الكبير .

- إذن لست من هذا العالم - قال بتوتر - ما الذى تريدين؟

- أن تساعدونى فى إنقاذ حفيدتى ، حفيدة أماديس الكبير ،

ابنة ابنتنا أماديس فهى أسيرة فى هذا الدير .

غالب الرجل خوفه .

- لقد أخطأت العنوان - قال - إذا ما تصورت أننا قادرون

على التدخل فى الأمور الدينية، فلست أنت يا سيدتى التى
تقولين هذا، ولست تعرفين الأماديسيين وليست لديك أى فكرة
عن ماهية التهريب .

نامت الجدة فى ذلك الفجر وقتًا أقل من الليالى السابقة،
وقد قضت الليل وهى تلوك الحبوب وقد لفت نفسها ببطانية من
الصوف، وتولى وقت السحر إضعاف ذاكرتها وأخذ الهذيان
المكبوت يصارع من أجل الخروج إلى النور رغم أنها يقظة وكان
عليها أن تضغط على قلبها بيديها حتى لا تطاردها ذكريات منزل
يطل على البحر تملؤه الزهور من مختلف الألوان حيث كانت
تعيش سعيدة وظلت على هذا الحال حتى دق جرس الدير
وأضيئت الأنوار الأولى فى النوافذ وملأت الصحراء رائحة الخبز
الطازج . وعندئذ تركت نفسها نهبًا للإرهاق وقد خدعها الأمل فى

أن إيرينديرا قد نهضت من نومها وتحاول أن تجد الوسيلة للهروب.

أما إيرينديرا فلم تضيع ليلة واحدة إلا ونامت وذلك منذ أن حملوها إلى داخل الدير. فقاموا بقص شعرها باستخدام مقص تقليم النباتات وتركوا رأسها كأنها فرشاه وجعلوها تلبس القفطان الخشن الذى عادة ما ترتديه المبتدئات فى الرهبة وسلموها دلوًا من الجص للماء وكذا مقشة لتقوم بتنظيف درجات السلم كلما مر عليه أحد. هو عمل لا يتحملة إلا البغال ذلك أن صعود السلم ونزوله كان مستمرًا إذ تواصل صعود المبشرين والمبتدئات اللائى تقمن بأعمال الحمالين. لكن إيرينديرا شعرت بذلك وكأنها تقضى يوم الأحد فى كل يوم. أى تخلد بعد العملية المهلكة إلى السرير. كما أنها لم تكن الوحيدة التى تصاب بالإرهاق من كثرة العمل عند حلول الليل ذلك أن الدير لم يكن مسخرًا لمحاربة الشيطان بل لمحاربة الصحراء.

كانت إيرينديرا ترى المبتدئات الهنديات وهن يحكمن سيطرتهم على الأبقار حلبها فى الزرائب، وكن يقضين أياماً كاملة وهن يتقافزن فوق صناديق خشبية من أجل تصفية اللبن. وكن يساعدن الماعز فى لحظات المخاض الصعبة. لقد رأتهن وهن يتصببن عرقاً، كأنهن عمال شحن وتفريغ، وهن يخرجن المياه من البئر ويقمن برى حديقة ترتعد من الخوف قامت بفلاحتها مبتدئات

أخريات استخدمن فى ذلك الفأس البقول فى قلب الصحراء . لقد رأت الجحيم الدنيوى فى أفران الخبز وحجرات الكى . شهدت أيضاً إحدى الراهبات وهى تقوم بمطاردة خنزير فى الفناء ورأتها وهى تتزحلق ممسكة بالخنزير من أذنيه وتسقط به فى منطقة موحلة فتهب لنجدتها اثنتان من المبتدئات وهن يرتدين مرايل من الجلد ويسيطرن على الخنزير ، وقامت إحداهن بذبحه مستخدمة سكين جزارية وتلطخت ثلاثهن بالطين والدم . رأت فى أحد الأروقة الجانبية للمستشفى بعض الراهبات المصابات بمرض السل وهن يرتدين قمصان الموتى الذين ينتظرون قضاء الله ، وهن يقمن بتطريز ملاءات الأسرة وجالسات فى الشرفات بينما يقوم رجال الإرسالية بالتبشير فى الصحراء .

كانت إيرينديرا تعيش مع نفسها وهى تكتشف أنماطاً جديدة للجمال والفضاعة لم تتصورها أبداً فى هذا العالم الضيق للسريـر . لكن لم تستطع أى واحدة من المبتدئات سواء الخشنات الطبع منهن أو العنيدات أن تجعلها تنطق بكلمة منذ أن حملوها إلى الدير . وذات صباح وعندما كانت تقوم بوضع الماء فى الجردل سمعت صوت آلة موسيقية وترية بدت وكأنها نور ساطع وسط ضوء الصحراء . لقد استأثرت المعجزة بلبها وجعلتها تطل على صالون ضخم وخال ، ليس على حوائط شئ له نوافذ ضخمة ، كانت أنوار شهر يونيو تدخل منها بقوة وتظل واقفة هناك . ورأت فى

وسط الصالون راهبة عظيمة الجمال لم ترها قبل ذلك، وهى تعزف مقطوعة موسيقية دينية على آلة Claviembalo وهى طراز قديم من البيانو. استمعت إيرينديرا للموسيقى دون أن تطرف لها عين وروحها فى حالة تسامى حتى رن الجرس لتناول الطعام. وبعد الغذاء، وبينما تقوم بتلميع السلم باستخدام الفرشة المصنوعة من الحلفاء، انتظرت حتى تصعد جميع المبتدئات وتنزل بعد ذلك. وبقيت وحيدة لم يسمعها أحد، وعندئذ تكلمت لأول مرة منذ أن دخلت الدير. وقلت:

- أنا سعيدة.

فقدت الجدة آمالها فى أن تحاول إيرينديرا الهرب والذهاب معها، ورغم ذلك ظلت تعيش حالة الحصار الحديدى دون أن تتخذ أى قرار، وظلت هكذا حتى يوم الأحد الذى يوافق عيد العنصرة. وخلال هذه الفترة من العام كان المبشرون يقومون بتمشييط الصحراء للبحث عن العشيقات الحليلات من أجل تزويجهن. كانوا يذهبون حتى العزب المجهولة البعيدة وهم يركبون شاحنة متهالكة ويرافقهم أربعة من الجنود جيدي التسليح وجوال به بعض الحاجيات الضئيلة القيمة. وأصعب شئ فى عملية الاصطياد هذه يتمثل فى إقناع النساء اللاتى يحاولن الهروب من الكرم الإلهى بحجة قوية تقول بأن الرجال يشعرون بأنهم أصحاب حق فى أمرهم الزوجات الشرعيات بالقيام بأعمال

أكثر غلظة وقسوة من أن تطلب من العشيقات، وفي الوقت نفسه ينامون ملء جفونهم على الأسرة المعلقة. كان الأمر يقتضى اللجوء إلى وسائل خداعية وذلك بتذويب دواء إرادة الله فى شراب من نفس المعين الذى يستخدمه حتى لا يشعرون بوطأتها. وكان الأمر ينتهى بهن، بما فى ذلك أكثرهن مقاومة، بالاقتناع وقبول أقراط من النحاس. أما فى حالة الرجال فكان تصرفهم عكسيًا إذ عندما تقبل النساء يقوم الرهبان بإخراجهم بالقوة من على الأسرة المعلقة ويذهبوا بهم مقيدين إلى أماكن الشحن والتفريغ لتزويجهم بالقوة.

وطوال عدة أيام كانت الجدة ترى الشاحنة الصغيرة وهى تدخل الدير محملة بالنساء الهنديات الجليات لكن لم تجد الفرصة السانحة، لكن هذه الفرصة كانت سانحة يوم الأحد (يوم العنصرة) وذلك عندما سمعت الصواريخ النارية وقرع الأجراس وشاهدت أعداداً من جمهور البؤساء الفرحين تدخل للمشاركة فى الحفلة، ورأت نساء جليات وهن يضعن على رؤوسهن الطرحة وتاج الزفاف ويتأبطن أذرع أزواج الصدفه حتى تكتسب العلاقة صبغة شرعية فى هذا الزفاف الجماعى.

كان آخر واحد فى هذا الطابور شاب برئ القلب ذو شعر هندى وقد قصه على هيئة ثمرة الـ Totuma ويرتدى لباساً من الأسمال ويحمل فى يده شمعة طويلة عليها شريط من الحرير. نادته الجدة.

- قل يا بنى، أود أن تقول لى شيئًا - سألته بصوف ناعم
- ماذا أنت فاعل فى هذا الهرج والمرج .

كان الفتى يشعر بالخوف وهو يحمل الشمعة، ولما كانت
أسنانه قوية كأنها أسنان الحمار، كان يجد صعوبة فى إغلاق فمه .
- الأمر هو أن الآباء سيقومون بعمل التناول الأول لى -
قال .

- كم دفعوا لك؟

- خمسة بيزو .

أخرجت الجدة من كيس نقودها حزمة من الأوراق المالية
نظر إليها الفتى وقد شعر بالدهشة .

- سوف أعطيك عشرين بيزو - قالت الجدة - لكن ذلك
ليس من أجل التناول الأول بل حتى تتزوج .

- وممن أتزوج؟

- من حفيدتى .

بهذه الطريقة تزوجت إيرينديرا فى فناء الدير وهى ترتدى
قفطان السجينات وتضع على رأسها طرحة أهدينها إليها
المبتدئات، ودون أن تعرف ما هو اسم الزوج الذى اشترته لها
الجدة، تحملت بأمل غير واثق عملية الركوع على الأرض المليئة

بالخصى الكريهة التى تشبه رائحة جلد ذكر الماعز المنبعثة عن المائتى عروس الحبليات. وتحملت طول رسالة القديس بابلو التى ألقيت باللغة اللاتينية فى هذا القيظ المحرق وذلك لأن المبشرين لم يجدوا لديهم الأسباب لمعارضة مصيدة الزواج غير المتوقعة، إلا أنهم وعدوها بآخر محاولة للإبقاء عليها فى الدير، ومع كل هذا فعند نهاية حفل عقد القران، وفى حضور كل من الممثل الرسولى والعمدة العسكرى الذى كان يطلق النيران على السحب ووجود الزوج الذى هلّ حديثاً، وجدتها اللامبالية وجدت إيرينديرا نفسها تحت السحر الذى سيطر عليها منذ مولدها. وعندما سئلت عن رغبتها الحرة والحقيقية والنهائية لم تتردد لحظة واحدة.

- أريد الذهاب من هنا - قالت، وأوضحت مشيرة إلى الزوج - لكنى لن أذهب معه، بل أنا ذاهبة مع جدتى.

قضى عيسى الأمسية بالكامل محاولاً سرقة برتقالة من مزرعة والده الذى لم تفارقه عيناه وهما يقومان بتقليم الأشجار المريضة، أما أمه فكانت تحرسه وهى فى المنزل. وفى النهاية تخلى عن عزمه، فى هذا اليوم على الأقل، وأصبح عكر المزاج وهو يساعد والده حتى انتهاء من تقليم باقى أشجار البرتقال.

كانت المزرعة الفخمة ساكنة وبعيدة عن الأعين، أما المنزل الخشبي ذو السقف المصنوع من ألواح الصفيح، فقد كانت توضع على نوافذه شباك نحاسية وله شرفة ضخمة أقيمت على دعائم

ووضعت فيها نباتات برية ذات زهور نفاذة الرائحة . كانت والددة عليس فى الشرفة مستلقية على كرسى هزاز وقد وضعت على صدغيتها بعض الأوراق المدخنة لمقاومة الصداع . أما نظراتها الثاقبة التى يتميز بها الهنود الأصلاء فكانت تتابع الابن وحركاته كأنها حزمة ضوء غير مرئى حتى فى الأماكن المنزوية من حديقة البرتقال . جمالها أخاذ ، وهى أصغر سنًا بكثير من الزوج . ترتدى القميص القبلى كما كانت على علم ودراية بالأسرار القديمة لبنى جلدتها .

عندما عاد عليس إلى المنزل وهو يحمل عدة التقليم طلبت منه والدته أن يأتى لها بالدواء الذى يجب أن تتناوله فى الرابعة ، والموجود على منضدة صغيرة قريبة . وبمجرد أن لمس الدواء والكوب تبدل لونهما . وبعد ذلك لمس على سبيل اللعب ، إناءً من الزجاج كان موضوعاً على المنضدة مع أكواب أخرى فتغير اللون إلى اللون الأزرق .

كانت أمه تراقبه وهى تتناول جرعة الدواء ، وعندما تأكدت أن ما تراه ليس سحر عين أو هذيان سألته بلغتها المحلية :

- منذ متى يحدث لك هذا؟

- منذ أن عدنا من الصحراء - قال عليس متحدثاً بلغة الأم

- وهذا يحدث لى مع كل ما هو زجاجى .

وحتى يبرهن على ذلك أخذ يلمس الأكواب الواحد بعد الآخر، فأخذ كل كوب لوناً مختلفاً.

- هذه الأمور تحدث فقط من جراء الحب - قالت الأم -
من هي؟

لم يرد عليس، أما والده الذى لم يكن يعرف هذه اللغة المحلية فكان يمر فى الشرفة وهو يحمل فرعاً به ثمار البرتقال.

- عم تتحدثان؟ - سأل عليساً بالهولندية.

- مجرد كلام - أجاب عليس.

لم تكن والدة عليس تعرف الهولندية. وعندما دلف زوجها إلى الداخل سألت ابنها باللغة المحلية.

- ماذا قال لك؟

- فقال : لا شيء ذو قيمة.

اختفى والده داخل المنزل ثم عاد ليراه وهو فى مكتبه من خلال إحدى النوافذ، انتظرت الأم حتى تكون بمفردها مع عليس وعندئذ أصرت.

- قل لى من هي؟

- لا يوجد أحد - قال عليس.

أجاب بلا اهتمام ذلك أنه كان يراقب تحركات والده داخل المكتب فرآه يضع البرتقال فوق الخزانة وذلك حتى يقوم بحل الشفرة، وفي الوقت الذي أخذ يراقب فيه والده كانت أمه تراقبه هو.

- منذ زمن طويل وأنت لا تأكل الخبز - لاحظت الأم.

- لا أرغب.

سرعان ما اعتلت وجه الأم حيوية غريبة "هذا كذب - قالت - الموضوع هو أنك تعاني من الحب ومن هم على الجانب الآخر لا يستطيعون تناول الخبز" وتحول صوتها مثل عيناها من ملامح التضرع إلى نغمة التهديد.

- الأجدر بك أن تقول لى من هى - قالت - أو أن أقوم بإعطائك حماماً بالقوة لتطهيرك.

قام الهولندى بفتح الخزانة ووضع البرتقالات فى الداخل ثم عاد لإغلاق الباب المصفح. ابتعد عليس فى هذه اللحظة عن النافذة وقام بالرد على والدته بنغمة غير صبورة.

- لقد قلت لك أن لا أحد هناك - قال - وإذا لم تصدقينى فاسألى والدى.

ظهر الهولندى على باب المكتب وهو يقوم بإشعال الغليون كما كان يحمل الإنجيل الذى تفسخت جلده تحت إبطه. فسأله المرأة بالأسبانية:

- على من تعرفتم فى الصحراء؟

- لا أحد - أجاب الزوج وهو ذاهل بعض الشيء - وإذا لم تصدقيني فاسألى عيسى.

جلس آخر الممشى وهو يدخن غليونته حتى نفذ ما به من تبغ، وبعد ذلك فتح الإنجيل كيفما اتفق وأخذ يقرأ فقرات من مواضع مختلفة على مدار ساعتين، كان يقرأ بالهولندية وبصوت مسموع.

كان عيسى - حتى منتصف الليل - لا زال يفكر بتركيز لدرجة أنه لم يستطع النوم، أخذ يتقلب فى سريره المعلق لمدة ساعة محاولاً السيطرة على آلام الذكريات التى أعطته فى النهاية حافز اتخاذ القرار. وعندئذ نهض وارتدى البنطلون الجينز وقميص "كاروهات" اسكتلندى والحذاء المخصص لركوب الخيل، ثم قفز من النافذة وهرب من البيت وقد أخذ معه سيارة النقل الصغيرة المحملة بالعصافير. وعندما مر بحديقة البرتقال قطف البرتقالات الثلاثة الناضجة التى لم يستطع سرقتها فى المساء.

وظل يسير فى الصحراء باقى الليل، وعند شروق الشمس أخذ يسأل فى القرى والعزب عن الاتجاه الذى سلكته إيرينديرا، لكن لا أحد يشفى غليله، وأخيراً قالوا له إنها تسير خلف فريق الحملة الانتخابية للسناتور أونيسيمو سانثيث وأنها يمكن أن تكون

فى هذه المرحلة فى قشتالة الجديدة، إلا أنه لم يجدها هناك بل كانت فى القرية التالية. لكن إيرينديرا لم تكن مع فريق الحملة ذلك أن الجدة استطاعت أن تجعل السناتور يشهد لها بحسن السير والسلوك من خلال ورقة كتبها بخط يده واستطاعت بهذه الورقة أن تفتح مغاليق الأبواب الموصدة أمامها فى الصحراء. وفى اليوم الثالث التقى برجل البريد الوطنى فساعدته على معرفة العنوان الذى يبحث عنه.

-إنهما متجهتان نحو البحر - قال له - وأسرع فى سيرك ذلك أن القحبة العجوز تريد العبور إلى جزيرة "أروبا".

وجد عليس فى الاتجاه الذى سلكه بعد نصف يوم من السفر الخيمة الكبيرة التى قامت الجدة بشرائها من سيرك كان فى طريقه للتفكك. المصور الجوال عاد ليرافقها، وهو هذه المرة على قناعة بأن الدنيا ليست واسعة كما كان يتصور، وعدته مهياة للعمل بالقرب من الخيمة، كما كانت هناك مجموعة من الموسيقيين من عازفى الآلات النحاسية تخلص لب زبائن إيرينديرا بفالس مهيب.

أخذ عليس دوره للدخول، وأول شىء لفت انتباهه كان النظافة والنظام داخل الخيمة. سرير الجدة قد أصبح على سابق عهده من الفخامة، ووضع تمثال الملاك فى مكانه المناسب بجوار

الصندوق الجنازى للأماديسين، كما كان هناك (بانيو) معدنى يقوم على أرجل بهيئة أرجل الأسد. أما إيرينديرا فهى مستلقية على سريرها الحديد ذى الظلة، عريانة وهادئة وتشع منها ملامح الطفولة وهى تحت حزمات الضوء النافذة إليها عبر الخيمة. تنام وعيناها مفتوحتان، توقف عليس إلى جوارها وهو يحمل البرتقالات فى يده ولاحظ أنها كانت تنظر نحوه دون أن تراه، وعندئذ مرر يده أمام عينيها ونادى عليها باسم ابتكره ليفكر فيها :
- يا أريدنيرى .

استيقظت إيرينديرا، شعرت أنها عريانة أمام عليس، صاحت صيحة مكتومة وغطت نفسها بالملاءة حتى رأسها .

- لا تنظر إلىّ - قالت - أنا غير مهندمة .

- إنك بلون البرتقال - قال عليس، وقام بوضع الفاكهة على مستوى عينيها لتقوم هى بالمقارنة - انظرى .

كشفت إيرينديرا عينيها وتأكدت أن البرتقالات لها نفس لونها .

- الآن لا أريدك أن تبقى - قالت .

- إننى دخلت إلى هنا لأريك هذا - قال عليس -
تصورى .

قام بتقشير برتقالة طازجة بأظافره وقسمها بكلتا يديه وبين
لإيرينديرا عما بداخل البرتقالة: ففي داخل البرتقالة كانت هناك
ماسة حرة.

- هذه هي البرتقالات التي نأخذها إلى الحدود - قال .

- لكنها برتقالات حية - قالت باستغراب .

- بالطبع - ابتسم عليس - يقوم والدي بزراعتها .

لم تصدق إيرينديرا ذلك فكشفت عن وجهها وأخذت الماسة
بأصابعها وأخذت تتأملها وهي مندهشة . قال عليس:

- بثلاثة من هذه يمكن أن نطوف حول العالم .

أعادت إليه إيرينديرا الماسة وهي تشعر بقليل من الحماس ،
أصر عليس .

- أضف إلى ذلك عندي سيارة نقل صغيرة - قال - ثم
... انظري !

أخرج من تحت القميص مسدساً قديماً .

- لا يمكن لى أن أغادر المكان قبل عشر سنوات - قالت
إيرينديرا .

- سوف تذهبن - قال عليس - هذه الليلة سوف أنتظرك
في الخارج وعليك انتهاز الفرصة عندما ينام سبع البحر الأبيض ،

وسوف تكون كلمة السر هي تقليد صوت البومة . قام بتقليد صوت البومة ، ولأول مرة تضحك عينا إيرينديرا .

- إنها جدتى .

- البومة؟

- سبع البحر .

ضحكا . . لهذا اللبس لكن إيرينديرا استأنفت الحوار .

- لا أحد يستطيع أن يذهب إلى أى مكان دون إذن من جدته .

- لا يجب أن يقال لها شيء .

- هي ستعرف على أى الأحوال - قالت إيرينديرا : إنها تحلم بما يحدث .

- عندما تبدأ تحلم بأنك سوف تذهبن ، فإننا سنكون على الجانب الآخر من الحدود ، وسوف نعبرها مثل المهرين . . قال عليس .

أمسك بالمسدس كأنه بطل سينمائى وقلد صوت الطلقات ليقتنع إيرينديرا بإقدامه . لم تقل نعم أو لا لكن عينيها تنهدتا وودعت عليس بقبلة ، كان عليس قد عاش الانفصال ، ثم قال مغمغماً .

- غداً سوف نرى السفن وهى تمر .

وبعد السابعة بقليل من تلك الليلة كانت إيرينديرا تقوم بتمشيط الجدة عندما عادت رياح تعاستها لتهب من جديد . وفى حماية الخيمة ، هناك الهنود الحمالون وكذا مدير الفرقة الموسيقية فى انتظار قبض الأجر ، انتهت الجدة من عد النقود فى صندوق قريب منها ، وبعد أن اطلعت على دفتر الحسابات قامت بدفع الأجر لكبير مجموعة الهنود .

- ها هو مبلغ عشرون بيزو قيمة عمل الأسبوع يخصم منها ثمانية مقابل الأكل وثلاثة مقابل الشرب ، ويخصم منها نصف بيزو لحساب القمصان الجديدة والباقي هو ثمانية بيزو ونصف ، قم بعد المبلغ جيداً .

قام كبير الهنود بعد المبلغ وذهبوا جميعاً وهم يؤدون تحية الاحترام .

- شكراً يا بيضاء .

أما التالى فكان مدير الموسيقيين ، عادت الجدة لتطلع على دفتر الحسابات وتوجهت إلى المصور الذى كان يحاول لصق الكم القماش الأسود للكاميرا مستخدماً بعض الصمغ الهندى .

- علام اتفقنا؟ قالت له - هل ستدفع ربع مستحقات الموسيقيين أم لا؟

لم يرفع الموسيقى رأسه ليجيب على سؤالها .

- الموسيقى لا تظهر فى الصور .

لكنها تجعل الناس فى حالة نفسية جيدة للتصوير - قالت
الجددة .

- على العكس من ذلك - قال المصور - إنها تذكرهم
بالموتى ، وبعد ذلك يظهرون فى الصورة وعيونهم مغمضة .
تدخل مدير الفرقة الموسيقية .

- الموسيقى لا تجعل العيون مغمضة - قال - بل إنها
فلاشات التصوير ليلاً .

- إنها الموسيقى - أصر المصور .

أنهت الجددة الجدل " لا تكن بخيلاً " - قالت للمصور -
تأمل جيداً فى الوضع الممتاز الذى عليه السناتور أونيسمو سانشيث
وهذا بفضل مجموعة الموسيقيين المرافقين له . وبعد ذلك قالت
بلهجة حادة :

- عليك أن تدفع الجزء الذى يخصك أو أن تذهب بعيداً
عنا ، وليس من العدل أن تتحمل هذه المخلوقة الضعيفة كل
النفقات .

- إننى أسير نحو مصيرى بمفردى - قال المصور - فأنا
لست إلا فناناً .

هزت الجدة كتفيها وانشغلت مع الموسيقى وسلمته حزمة أوراق مالية طبقاً للرقم المدون في الدفتر.

- الحساب هو مائتان وأربعة وخمسون ورقة، قالت له -
فئة كل واحدة خمسون سنتاً، وأضف إلى ذلك اثنين وثلاثين عن
أيام الآحاد وأيام الأعياد بمعدل ستين سنتاً كل واحدة يكون
الإجمالي مائة وستة وخمسون بيزو وعشرون سنتاً.

لم يأخذ الموسيقى المبلغ.

- المبلغ المطلوب هو مائة واثنان وثمانون بيزو وأربعون سنتاً
- قال - ذلك أن الفالس أغلى.

- ولماذا؟

- ذلك أنه أكثر حزنًا - قال الموسيقى.

- إذن فعليك أن تعترف لنا هذا الأسبوع مقطوعتين مرحتين
مقابل كل فالس أدين لك به. ونسوى الحساب بهذا الشكل.

لم يفهم الموسيقى منطق الجدة لكنه قبل بالحساب هكذا وهو
يقوم بفك رزمة الأوراق المالية. وفي هذه اللحظة كانت الرياح
العاتية على وشك أن تخلع الخيمة، وبعد أن سكنت سمع في
الخارج الصوت الحزين للبوم.

لم تدر إيرينديرا ماذا تفعل حتى تخفى توترها. قامت
بإغلاق صندوق النقود ووضعت تحت السرير، لكن الجدة أدركت

ما بها من خوف من خلال يدها وهى تسلمها المفتاح - لا تخافى
- قالت لها - هذه الطيور عادة ما تكون موجودة فى ليالى
الزوابع ، ومع ذلك لم تبد منها بادرة اقتناع وخاصة عندما رأت
المصور وهو يحمل الكاميرا على كتفه ويغادر المكان.

- ابق حتى الصباح إذا ما أردت - قالت له - فالموت طليق
السراح فى هذه الليلة.

سمع المصور صوت البومة ، لكنه لم يغير من نيته .

- ابق يا بنى - أصرت الجدة - ولو كان هذا بفضل معزتك
عندى .

- لكن لن أدفع للموسيقى شيئاً - قال المصور .

- ما عدا هذا - قالت الجدة - إلا هذا .

- أترين ؟ - قال المصور - إنك لا تحبين أحداً .

- إذن ابتعد - قالت - يا من ولدت يوم نحس !

كانت تشعر أنها مستغلة ، ولهذا ظلت تصب عليه اللعنات
فى الوقت الذى تساعدها فيه إيرينديرا على النوم " ابن الأم
الملعونة ، ما الذى يعرفه ابن الساقطة هذا عن قلوب الآخرين " لم
تهتم إيرينديرا وذلك لأن صوت البومة كان ينادى عليها بإصرار
فى اللحظات التى تسكن فيها الرياح . كانت تشعر بالرهبة من

جاء الحيرة. الجدة دخلت السرير سيرا على نفس الخطوات المعهودة في المنزل الكبير القديم. وفي الوقت الذي كانت الحفيدة تقوم فيه بالتهوية عليها تجاوزت الجدة حالة الحنق والغضب وعادت تسترد تنفسها الطبيعي.

- عليك بالاستيقاظ مبكراً - قالت - وذلك حتى تقومى بغلى مياه الحمام الخاص بى وبه الأعشاب قبل أن يأتى الناس.
- حاضر يا جدتى.

- وفى الوقت الباقي أمامك عليك بغسل الملابس الداخلية المتسخة الخاصة بالهنود وبذلك نخصم المزيد من حسابهم للأسبوع القادم.

- حاضر يا جدتى - قالت إيرينديرا.
- ونامى ببطء حتى لا تتعبى فغداً الخميس هو أطول يوم فى الأسبوع.

- حاضر يا جدتى.
- و عليك أن تضعى الطعام للنعام.
- حاضر يا جدتى - قالت إيرينديرا.
تركت المروحة عند رأس السرير وقامت بإشعال شمعتين من الشموع أمام الصندوق الذى به رفات الموتى، ولما كانت الجدة قد نامت فقد أصدرت لها هذا الأمر متأخرة.

- لا تنسى إشعال شموع الأماديسيين .

- حاضر يا جدتى .

كانت إيرينديرا تعرف أنها لن تستيقظ ، ذلك أنها بدأت تهذى . سمعت عواء الرياح حول الخيمة ، لكنها لم تعرف هذه المرة أيضاً زوبعة تعاستها . أخذت تحملق فى الظلام حتى أخذ صوت البومة يتردد من جديد ، وأخيراً تغلب حبها للحرية على الأسر السحري لجدتها .

لم تكذ تسير خمس خطوات خارج الخيمة حتى وجدت المصور الذى يحزم حاجياته على الشبكة الخلفية للدراجة . كانت ابتسامته الماكرة ماثراً لتهدئتها .

- أنا لا أعرف شيئاً - قال المصور - وأنا لم أر شيئاً ولن أدفع للموسيقين شيئاً .

ودعها ودعا لها بالبركة بإيماءة معروفة ، اتجهت إيرينديرا جرياً نحو الصحراء وقد حزمت أمرها بشكل نهائى . واختفت فى ظلمة الرياح متجهة صوب صوت البومة .

فى هذه المرة لجأت الجدة إلى السلطة المدنية على الفور . وعندئذ قفز قائد الحامية المحلية من على سريره المعلق ، فى السادسة صباحاً عندما أظهرت له رسالة التوصية التى وقعها السناتور . كان والد عليس ينتظر على الباب .

- كيف تريدون منى قراءتها، اللعنة - صاح القائد - إننى لا أعرف القراءة.

- إنها رسالة توصية من السناتور أونيسمو سانشيث - قالت الجدة.

قام القائد بسحب بندقية معلقة بالقرب من السرير ولم يوجه المزيد من الأسئلة، وأخذ يصيح موجهًا أوامره لأتباعه، وبعد خمس دقائق كان الجميع على متن شاحنة حربية صغيرة، أخذت تنهب الأرض متوجهة إلى الحدود، وكانت الرياح تهب فى الاتجاه المعاكس، الأمر الذى أدى إلى إزالة أى آثار للهاربين. القائد يجلس فى المقعد الأمامى إلى جوار السائق وخلفهما الهولندى ومعه الجدة. وفى كل مقعد من مقاعد العربى هناك أحد الجنود المسلحين.

أوقفوا قافلة الشاحنات المغطاة بالقماش العازل، بالقرب من القرية عندئذ قام عدد من الرجال الذين يسافرون مختبئين تحت الأغطية بتصويب مدافعهم الرشاشة وبنادق القتال على الشاحنة العسكرية، سأل القائد سائق الشاحنة الأولى عن المكان الذى وجد فيه شاحنة زراعية صغيرة محملة بالعصافير.

استأنف القائد سيره قبل الإجابة.

- لسنا جواسيس على أحد - قال باستياء - إننا مهربون.

رأى القائد المدافع والدخان يخرج من فوهاتها وهى تمر
بالقرب من أمام عينيه فرفع ذراعيه وابتسم.

- عليكم أن تستحوا بعض الشيء - صاح فيهم - ولا
تسيروا هكذا فى وضوح النهار.

كانت الشاحنة الأخيرة تحمل لافتة علقت على الجزء الخلفى
تقول : " أفكر فيك يا إيرينديرا ". الرياح تزداد قوتها كلما تقدموا
نحو الشمال ، وأخذت حرارة الشمس ترتفع ووصل الأمر إلى أن
أصبح من العسير التنفس بسبب الحر والتراب داخل الشاحنة
المغلقة.

كانت الجدة هى أول من لمح المصور: كان يغالب الرياح
فهو يأخذ الاتجاه الذى هم فيه ، ولم يكن معه أى وسيلة للحماية
إلا منديلاً ربطه على رأسه.

- ها هو هناك - أشارت إليه - إنه متواطئ معهما ، هذا
الذى ولد يوم شؤم.

أمر القائد واحداً من أتباعه بأن يتولى أمر المصور.

- أمسك به وانتظر فى هذا المكان - قال - سوف نعود.

قفز الجندي من مكانه ونادى على المصور مرتين ليتوقف.
لم يسمعه المصور نظراً لأن الرياح كانت تهب فى اتجاه عكس

الصوت، وعندما مرت به الشاحنة لوححت له الجدة بإشارة فيها الغاز، إلا أنه فسرّها على أنها تحية، فابتسم ولوح لها بيده مودعاً، لم يسمع الطلقة، طار في الهواء وسقط ميتاً على الدراجة وقد تهشم رأسه برصاصة بندقية لم يعرف من أين أتت.

قبل منتصف النهار، بدأوا يلاحظون وجود الريش الذى يطير فى الهواء، كان ريش عصافير جديدة، تعرف عليها الهولندى لأنه يخص عصافيره التى نفت الرياح ريشها، فقام السائق بتصحيح المسار وداس على بدال البنزين بقوة ليزيد من سرعة السيارة، وقبل أن تنقضى نصف الساعة لمحوا الشاحنة الصغيرة فى الأفق.

ولما رأى عليس ظهور السيارة العسكرية فى مرآة الشاحنة بذل جهده لزيادة فارق المسافة، لكن الموتور كان قد وصل إلى أقصى طاقته. كانا قد رحلا دون نوم وقد استسلما للإرهاق والعطش. كانت إيرينديرا تنام على كتف عليس، فاستيقظت مذعورة. إذ رأت السيارة العسكرية التى أصبحت قام قوسين منهما، وبعزيمة بريئة أخذت المسدس من الشنطة الأمامية فى الكابينة.

- لن يفيد شيئاً - قال عليس - إذ كان يخص فرانسيس دراك.

قامت بالدق عليه عدة مرات ثم ألقت به من النافذة .
تقدمت الدورية العسكرية الشاحنة الصغيرة المتهالكة والمحملة
بالعصافير التى تتنف الرياح ريشها ، ثم قامت الشاحنة العسكرية
بالدوران قليلاً لتغلق الطريق أمام الشاحنة الصغيرة .

* * *

تعرفتُ عليها فى هذه الفترة التى كانت تعتبر من أزهى
عصورهما رغم أنه لم يكن من المستحب التعرض تفصيلاً لحياتهما
إلا بعد ذلك بأعوام طويلة . كان هذا عندما غنى رفائيل إسكالونا
أغنية تعرض فيها للنتيجة الرهيبة للدراما ، وبدأ لى أن من المناسب
سرد ذلك . لقد كنت أبيع الموسوعات وكتب الطب فى محافظة
"ديو أتشا" ، كما أن البارو ثييدو ساموديو هو الآخر يطوف بتلك
النواحي لبيع ماكينات الجيلاتى المصنوع من البيرة ، فأخذنى معه
فى الشاحنة التى يقودها وطففت معه بقرى الصحراء ، وكان هدفه
أن يحدثنى عن شىء ما . وتحدثنا كثيراً عن أمور لا قيمة لها
وتناولنا الكثير من البيرة دون أن نعرف المكان والزمان الذى نعبّر
فيه الصحراء ونصل إلى الحدود ، ها هى خيمة الحب المتجولة
هناك وقد علقت عليها لافتات تقول : "إيرينديراهى الأفضل" كان
الطابور الطويل والمتعرج والذى يضم رجالاً من مختلف السلالات
والطبقات يبدو كأنه حية مكونة من فقرات إنسانية ، نائمة فى
المناطق الخلوية والميادين وبين المحلات المتراصة والأسواق التى

يملؤها ضجيج البشر ثم تخرج من شوارع تلك المدينة الوعرة المليئة بالمهربين الذين حطوا فيها بصفة مؤقتة. كان كل شارع كأنه مكان مفتوح للمغامرة، وكان كل منزل بمثابة (كانتين)، وكل باب ملجأ للمتهربين من التجنيد. كانت أصوات المقطوعات الموسيقية غير المفهومة والنداءات بصوت مرتفع كلها تشكل ضجيجاً مزعجاً وسط الحر المهلك.

بين هذا الجمع ممن لا وطن لهم، وهؤلاء الذين يطلبون الرزق أيًا كان مصدره كان "بلاكمان" الطيب، يتكى على منضدة وهو يطلب حية حقيقية ليحرب على نفسه الترياق الذى اخترعه. كانت هناك المرأة التى تحولت إلى عنكبوت لأنها عصت والديها، وكانت تقبض من كل من يريد لمسها خمسين سنتًا حتى يتأكدوا أن ليس هناك خدعة. وترد على الأسئلة التى توجه إليها حول سبب شقائها. كان من بين الجمهور أيضًا أحد مبعوثى الحياة الخالدة، وكان يعلن قرب مجيء الوطواط النجمى الطيار وبما ينفثه من كبريت سوف يؤثر على نظام الطبيعة وسوف يجعل أسرار البحار تطفو على السطح.

كان المكان الوحيد الذى يتميز بالهدوء هو حى التسامح الذى يأتى إليه بقايا ضجيج المدينة، هناك نساء قد أتى من مختلف الجهات يتشاءبن وهن جالسات فى صالونات الرقص المهجورة. كن قد نمن القيلولة وهن جالسات دون أن يوقظهن أحد

ليمارس الحب معهن، وظللن ينتظرن الخفاش النجمى تحت
المراوح ذات الأجنحة والمعلقة فى السماء المنبسطة. نهضت واحدة
منهن فجأة وتوجهت إلى إحدى الطرقات الممتلئة بزهور البنفسج
التي تطل على الشارع. كان الراغبون فى لقاء إيرينديرا يمرون
هناك.

- لى - صاحت فيهم - ما هو الذى عندك وليس عندنا
نحن؟

- إنها رسالة توصية من السناتور - صاح أحدهم.
خرجت نساء أخريات إلى الطرقة وقد شد انتباههن الصياح
والضحكات.

- منذ أيام الطفولة وهذا الطابور لا زال هناك - قالت
إحدهن - تصورى أن يقوم كل واحد منهم بدفع خمسين بيزو.
- فقالت التى خرجت أولاً مقررة :
- بالنسبة لى سوف أذهب لأرى ما الذى عليه ابنة السبعة
أشهر هذه.

- وأنا أيضاً - قالت أخرى - وهذا أفضل من البقاء هنا
وتسخين مكان الجلوس مجاناً.

انضم إليهن نساء أخريات وهن فى طريق الذهاب وعندما
وصلن إلى خيمة إيرينديرا كن قد كوّن فرقة مليئة بالجلبة ودخلن

عليها دون إذن . وأفزعن بضرباتهن الرجل الذى وجدنه وهو يقوم بالتمتع بأفضل شىء يمكن أن يجلبه له المال الذى دفعه ، وأمسكن بسرير إيرينديرا وخرجن به كأنه محفة إلى الشارع .

- إن هذا عدوان - كانت الجدة تصيح - أيتها القافلة غير الآمنة يا لكن من هجمات .

ثم توجهت إلى الرجال الذين كانوا فى الطابور - وأنتم أيها الذكور، أين هى رجولتكم التى سمحت بهذا العدوان على مخلوقة ضعيفة - إنكم مخثون .

ظلت تصيح بأقصى ما يصل إليه صوتها وتقوم بتوجيه ضربات بهراوتها لهؤلاء الذين هم بالقرب منها، لكن غضبها تاه وسط صيحات الجمهور واستهزائه .

لم تستطع إيرينديرا الفرار من هذه المهزلة والسخرية ذلك أن جدتها كانت تربطها بسلسلة كلب فى أحد أجناب السرير منذ محاولة الفرار . لكن لم يمسها أحد . لقد طافوا بها وهى على سريرها المغطى بالناموسية فى الشوارع المزدحمة وكأنهم يطوفون رمزياً بالتسائبة المقيدة بالسلاسل ثم يضعونها فى النهاية فى غرفة للحريق وسط الميدان الكبير . كانت إيرينديرا منكفئة على نفسها وتغطى وجهها لكن دون أن تبكى ، وهكذا ظلت تحت وطأة حرارة الشمس وهى تعض - خجلاً وغيظاً - سلسلة الكلب التى

تمثل مصيرها المؤلم حتى جاء أحد الناس وترفق بها ووضع قميصاً عليها.

كانت هذه هي المرة الوحيدة التي رأيتها فيها، لكنني عرفت بعد ذلك أنها بقيت في هذه المدينة المطلة على الحدود تحت حماية السلطات المحلية حتى أنفقت الجدة كل ما لديها من أموال وعندئذ تركتا الصحراء واتجهتا صوب البحر. كان من النادر أن يرى وفرة هائلة من ممالك الفقراء. كان الأمر عبارة عن طابور طويل من العربات التي تجرها الثيران حيث وضع فوقها نسخ مقلدة وغير جيدة من الأشياء التي لم تنج من الكارثة التي حلت بالمنزل الكبير. ولم يقتصر الأمر على التماثيل النصفية الإمبراطورية والساعات الغربية بل أيضاً كان هناك بيانو، وكذلك ماكينة ذات مقبض ومعها اسطوانات الزمن الذي مضى. تولت قافلة من الهنود عملية الحمل كما تولت فرقة موسيقية الإعلان عن وصولها المظفر إلى القرى.

كانت الجدة تسافر وهي موضوعة على محفة مزينة بزهور ورقية وهي تقوم بمضغ الحبوب التي تستخرجها من كيسها وتحميها من الشمس مظلة كنسية. كان حجمها الضخم قد زاد وذلك لأنها كانت تضع تحت البلوزة صديري من قماش قلوع المراكب تحفظ فيه سبائك الذهب كأنها طلقات مرصوفة في حزام حمل الذخيرة. كانت إيرينديرا إلى جوارها ترتدى لباساً زاهى الألوان

ومعلقة حولها شرائط الزينة، لكن لا زالت سلسلة الكلب مربوطة
فى خلخال رجلها.

- ليس من حقك الشكوى - قالت لها الجدة عند الخروج
من المدينة الحدودية - فعندك ثياب كأنك الملكة وسرير فاخر وفرقة
موسيقية خاصة وأربعة عشر هندية فى خدمتك، ألا يبدو لك هذا
رائعاً؟

- بلى يا جدتى.

- وفى اليوم الذى أفضى نحى فيه - واصلت الجدة - فلن
تكونى تحت رحمة الرجال فسوف يكون لك مسكنك الخاص فى
مدينة هامة، سوف تكونى حرة وسعيدة.

كانت رؤية جديدة وغير متوقعة للمستقبل، إلا أنها لم تعد
تحدث عن الدين القديم الذى تتعقد تفاصيله وتزداد قيمة
أقساطه، كما تعرضت التجارة لبعض العثرات، ومع ذلك لم
تتنهد إيرينديرا بشكل يعكس ما تفكر فيه. لقد أذعنت صاغرة
لعذاب السرير وسط الملاحات ووسط سبات القرى المظلة على
البحيرات وعلى السرير النقال المصنوع من القماش فى مناجم
التلك، بينما تقوم الجدة بتعداد ملامح رؤيتها المستقبلية كأنها تقرأ
الطالع من خلال أوراق الكوتشينة. وذات مساء، بعد الخروج من
شعب ضيق، تنسما رياحاً تحمل أكاليل الغار القديمة وسمعا جلبة

تشبه الحوار الذى يدور فى جامايكا وشعرتا بشغف بالحياة وبعقدة فى القلب. ها هما قد وصلتا إلى البحر.

- ها هو أمامك - قالت الجدة وهى تتنفس الضوء الشفاف للكاريبى بعد أن قضينا نصف الحياة فى المنفى - ألا يطيب لك؟
- بلى يا جدتى.

قاموا بنصب الخيمة، قضت الجدة ليلتها وهى تتحدث دون أن تحلم وأحيانًا تخلط ذكرياتها بشفافية رؤيتها المستقبلية ونامت على غير العادة ثم استيقظت وقد هدأت بصور البحر، ومع ذلك فعندما كانت إيرينديرا تقوم بمساعدتها فى حمامها عادت لتتحدث عن تصوراتها للمستقبل، وكان حديثًا شغوفًا لدرجة أنه بدا وكأنه هذيان السهاد والأرق.

- ستكونين مالكة عظيمة الشأن - قالت لها- وسيدة عريقة النسب، ويحرمك من تحمينهن، وسوف تحظين بتقدير وكرم الكبار فى السلطة - وسوف يقوم قباطنة السفن بإرسال "كروت بوستال" لك من كل موانئ العالم.

لم تكن إيرينديرا تسمعها، كانت المياه الدافئة والمعطرة بالأعشاب تنساب فى البانيو عبر قناة تتغذى من الخارج، وكانت إيرينديرا تأخذ المياه بكوب من ثمرة التوتوم دون أن تتنفس وتصب الماء على الجدة بيد وتقوم بتصيينها باليد الأخرى.

- وسوف تطوف سمعة منزلك بكل مكان ابتداء من الكاريبي حتى ممالك هولندا - كانت تقول الجدة - وسوف يكون أكثر أهمية من منزل الرئاسة ذلك أنه فى هذا البيت سوف تتم مناقشة الشؤون الحكومية وسوف يتم تحديد مصير الأمة .

وفجأة انقطعت المياه الآتية من الخارج فخرجت إيرينديرا من الخيمة لتستطلع الأمر، فوجدت أن الهنـدى المكلف بصب المياه فى المـزاب كان يقوم بتقطيع الأخشاب فى المطبخ .

- لقد انتهت المياه، ويجب تبريد المزيد منها .

توجهت إيرينديرا إلى الفرن حيث كانت هناك حلة أخرى كبيرة الحجم وبها الأوراق المعطرة بعد غليها، فغطت يديها بخرقـة من القماش وتأكدت من إمكانية رفع الحلة دون مساعدة الهنـدى .

- اذهب أنت - قالت له - سوف أقوم أنا بصب الماء .

انتظرت حتى خرج الهنـدى من المطبخ وعندئذ دفعت الحلة وهى تغلى من على النار وكلفها ذلك الكثير من الجهد حتى وصلت إلى المكان الذى تصب فيه المياه، وعندما تهيأت لصب المياه المغلية فى المجرى المؤدى إلى البانيو صاحت جدتها من داخل الخيمة .

- يا إيرينديرا

صاحت وكأنها تراها، فزعت الحفيدة من الصيحة وندمت على فعلتها فى الحال .

- أنا قادمة يا جدتى - قالت - إننى أقوم بتبديد المزيد من المياه .

فى هذه الليلة ظلت تفكر حتى ساعة متأخرة من الليل ، بينما تغنى الجدة وهى نائمة مرتدية الصديرى المحشو بالذهب ، تأملتها إيرينديرا وهى فى سريرها بعينين نفاذتين كأنهما عينا قط فى الظلام ، ثم قامت كأنها غريق بوضع يدها على صدرها وعيناها مفتوحتين ثم نادى بأعلى صوت .

- يا عليس .

استيقظ عليس فجأة وهو فى المنزل المحيطة به حديقة البرتقال . كان قد سمع صوت إيرينديرا بوضوح شديد لدرجة أنه بحث عنها فى ظلمة الحجرة . وبعد هنيهة من التأمل قام بلف ملابسه وأخذ حذائه ثم غادر غرفة النوم ، كان قد عبر الشرفة عندما فاجأه صوت والده .

- إلى أين أنت ذاهب ؟

رآه عليس وكأنه معرض لضوء أزرق تحت ضوء القمر .

- إلى هذه الدنيا - أجاب .

- أنا لن أمنعك هذه المرة - قال الهولندى - لكنى أحذرك من شيء: سوف تحل عليك لعنتى فى أى مكان تذهب إليه. فقال عليس:

- ليكن هذا.

شعر الأب بمفاجأة فى رد ابنه، وشعر بشيء من الفخر لعزيمته وتصميمه فتابعه وهو يسير فى حديقة البرتقال التى يغمرها ضوء القمر بنظرة أخذت تنفرج أساريرها شيئاً فشيئاً. كانت امرأته خلفه جميلة كعادة بنات جلدتها من الهنديات، تكلم الهولندى عندما أغلق عليس الباب الكبير.

- سوف يعود - قال - وقد علمته الحياة، وسوف تكون عودته أسرع مما تتصورين.

- إنك شديد الفظاظة - تنهدت - لن يعود أبداً.

لم يسأل عليس هذه المرة عن الوجهة التى ذهبت إليها إيرينديرا فعبر الصحراء وهو يختبئ فى شاحنات مرت عرضاً وأخذ يسرق لياكل وينام، وكثيراً ما سرق لمتعة المخاطرة - حتى وجد الخيمة فى قرية أخرى من القرى المطلة على البحر، ومن هناك كانت ترى المباني الزجاجية الفخمة لمدينة تملؤها الأضواء حيث تسمع أصوات التحية الليلية التى تصدرها السفن المبحرة إلى جزيرة "أروبا". كانت إيرينديرا تنام وهى مربوطة بالسلسلة

وتأخذ فى رقبتها وضع الغريق الذى يطفو على السطح تتقاذفه الأمواج، وهو نفس الوضع الذى كانت عليه عندما نادته. ظل عليس يتأملها لمدة طويلة دون إيقاظها لكنه تأملها بتمعن شديد حتى استيقظت. وعندئذ تبادلا القبلات فى الظلام وأخذ يداعب أحدهما الآخر دون عجلة من الأمر. وأخذا يخلعان ملابسهما رويداً رويداً ويعيشان الحنان الصامت والسعادة البريئة لدرجة كانا معها يشبهان الحب نفسه أكثر من أى وقت مضى.

فى الطرف الآخر من الخيمة تقلبت الجدة وهى نائمة وأخذت تهذى.

- كان ذلك فى الأيام التى وصلت فيه السفينة اليونانية - قال - كان طاقمًا مجنونًا يجعل النساء سعيدات، ومقابل الحب هو قطع الإسفنج وليس المال. كانت قطعاً إسفنجية حية أخذت تسير بعد ذلك وحدها فى أرجاء المنازل وهى تن مثل المرضى فى المستشفيات وتدفع الأطفال للبكاء حتى تشرب دموعهم. بعد ذلك تحركت كأن هناك دافع داخلى ثم جلست على السرير.

- كان ذلك عندما وصل هو - يا إلهى - صاحت - إنه أكثر قوة وضخامة وأكثر رجولة من أماديس. أما عليس الذى لم يبد اهتماماً بهذيانها حتى تلك اللحظة فقد حاول الاختباء عندما رأى الجدة جالسة فى السرير. فهدأت إيرينديرا من روعه.

- اهدأ - قالت له - إنها عندما تصل إلى هذا الجزء من
الحلم تجلس فى السرير لكنها لا تستيقظ .

نام عليس على جانبه .

- أنا كنت أغنى فى تلك الليلة مع البحارة وفكرت أن ذلك
ربما كان هزة أرضية .

- استمرت الجدة - وظن كل الناس هذا الأمر ذلك أنهم فروا
وهم يصيحون ، وقد ملكت الضحكات لبهم . لكن لم يبق إلا هو
تحت سقف . إننى أتذكره كأنه بالأمس وكنت أنا أغنى الأغنية التى
كان جميع الناس يرددونها فى ذلك الزمان بما فى ذلك البيغاوات
فى أفنية المنازل .

ولما كان من الممكن الغناء فقط فى الأحلام ، فإنها غنت
سطور مرارتها :

سيدى ، سيدى ، أعد إلى براءتى القديمة

حتى أتمتع بحبك مرة أخرى من البداية

فى هذه اللحظة أخذ عليس يصغى لذكريات الجدة
وحنينها .

- ها هو هناك - كانت تقول - وهو يحمل بيغاء على كتفه
وبندقية من الطراز القديم لقتل آكلى لحوم البشر ، كان مجيئه مثل

مجبئ "غواترال" إلى "لاس غواياناس" أما أنا فقد شعرت
برائحة الموت فيه عندما وقف أمامي ورأيت كل النساء من كل
الأمم، وبذلك لا يمكن أن أقول لك من واقع خبرتي أنك أكثر
النساء رفعة ووداً وجمالاً على هذه الأرض.

ثم عادت لترقد من جديد وبدأ يصدر عنها صوت بكاء
ورأسها على المخلدة - ظل عليس وإيرينديرا فترة طويلة وهما
صامتان غارقان في الظلمة بسبب التنفس غير المنتظم للعجوز
النائمة. وفجأة سألت إيرينديرا بصوت واضح ونبرة لا خوف
فيها.

- هل تجرؤ على قتلها؟

أخذه المفاجأة، فلم يعرف بماذا يجيب.

- من يدرى - قال - هل تجرؤين أنت؟

- أنا لا أستطيع - قالت إيرينديرا - ذلك لأنها جدتي.

وعندئذ لاحظ عليس مرة أخرى الجسم الضخم النائم وكأنه
يقوم بقياس حجم الحياه فيه ثم قال مقررًا.

- من أجلك يمكنني أن أفعل أى شىء.

اشترى عليس رطلاً من مبيد لقتل الفئران وأذابه في كريمة
ومربى الفراولة ثم أفرغ هذه الكريمة القاتلة في قالب للحلوى كان

قد أخرج منه حشوته الأصلية، وبعد ذلك وضع فوق القالب طبقة سميكة من الكريمة وأخذ يسويها بالمعلقة حتى أضاع كل الآثار المتعلقة بالعملية. وأكمل الخدعة باثنين وسبعين شمعة وردية اللون.

اعتدلت الجدة على العرش وأخذت تلوى الهراوة عندما رآته يدخل الخيمة وهو يحمل قالب الحلوى الخاص بالحفلة.

- أيها الوقح - صاحت - كيف تجرؤ أن تضع قدمك في هذا المنزل اختبأ عليس خلف وجهه الملائكى.

- أنا هنا من أجل طلب الصفح - قال - يوم عيد ميلادك.

خارت قوى الجدة أمام كذبه الحقيقية فأمرت بإعداد المائدة وكأن الأمر هو عشاء حفلة عرس. وأجلست عليس على اليمين بينما إيرينديرا تقوم بخدمتهما. وبعد إطفاء الشموع بنفخة واحدة قوية قطعت قالب الشيكولاتة إلى قطع متماثلة وقدمت قطعة منها لعليس.

- إن الرجل الذى يستطيع أن يجعل الآخرين يسامحوه له نصف الجنة - قالت - أقدم لك أول قطعة فهى للسعادة.

- أنا لا أحب الحلويات - قال - بالهناء والشفاء لك.

قدمت الجدة قطعة أخرى لإيرينديرا فأخذتها إلى المطبخ وقذفت بها فى صندوق الزباله.

أكلت الجدة باقى قالب الحلوى وحدها، فكانت تضع القطع بكاملها فى فمها وتبلعها بدون مضغ وهى تتلذذ بالطعام وتنظر إلى عليس من علوية المتعة، وعندما لم يتبق شىء فى الطبق الخاص بها أخذت القطعة التى رفض عليس تناولها. وبينما تقوم بمضغ آخر قطعة كانت تأخذ البقايا والفتافيت بأصابعها وتضعها فى فمها.

كانت قد أكلت زرينخا يكفى لإبادة جيل كامل من الفئران، ومع ذلك بدأت تعزف على البيانو وأخذت تغنى حتى منتصف الليل ثم نامت سعيدة وعاشت الحلم المعتاد. أما الشىء الجديد فقد كان بعض الحشرة فى التنفس.

كانت إيرينديرا وعليس يراقبانها وهما فى السرير الآخر وكانا ينتظران آخر أنفاسها، لكن الصوت ظل حياً كعادته عندما بدأت تهذى.

- لقد أطار صوابى، يا إلهى لقد أطار صوابى - صاحت - كنت أضع نبوتين غليظين خلف باب غرفة النوم حتى لا يستطيع الدخول، كما وضعت التسريحة والمنضدة أيضاً خلف الباب وفوقها الكراسى، لكن ضربة واحدة بخاتمه كانت كافية للإطاحة بكل هذا، فقد نزلت الكراسى وحدها من فوق المنضدة، أما المنضدة والتسريحة فقد ابتعدتا، وكذلك خرج النبوتان من بين الفتحات.

كانت إيرينديرا وعليس يتأملانها وقد أخذت علامات الاستغراب تزداد رويداً رويداً توافقاً مع عمق الهذيان ودراميته وتحول إيقاع الصوت إلى إيقاع حميم.

- كنت أشعر أنني سأموت وأنا غارقة في عرق الخوف وأتضرع وأنا في الداخل أن يفتح الباب دون فتح وأن يدخل هو دون دخول وألا يذهب أبداً لكن ألا يعود مطلقاً حتى لا أضطر لقتله.

ظلت تجسد الدراما الخاصة بها لعدة ساعات، وصلت خلالها إلى سرد أدق التفاصيل كأنها عادت لتعيش نفس الموقف في الحلم، لكنها قبل شروق الشمس تقلبت في السرير لتأخذ وضعاً مريحاً فكانت حركتها كأنها هزة أرضية وتهدج صوتها إيذاناً بوشوك بكائها.

- لقد حذرته، وضحك منى - كانت تصيح - وعدت للتحذير وعاد للضحك حتى فتح عينيه المفزوعتين وقال: آه يا ملكة آه يا ملكة، لكن الصوت لم يكن يخرج من فمه، بل كان يخرج من ضربة السكين التي في حنجرته.

شعر عليس بالرعب لهذا الاستدعاء الرهيب للذكريات الذي تقوم به الجدة فأمسك بيد إيرينديرا.

- أيها العجوز القاتلة صاح متعجباً.

لم تولى إيرينديرا أى اهتمام ذلك أنه فى هذه اللحظة أخذت خيوط الفجر تظهر ودقت الساعة الخامسة فى مختلف الساعات .

- اذهب قالت إيرينديرا - سوف تستيقظ .

- إنها حية ومليئة بالحياة كالفيل - تعجب عليس - هذا مستحيل

حدجته إيرينديرا بنظرة قاتلة

- الموضوع - قالت - هو أنك لا تجدى فى محاولة قتل أى إنسان .

تأثر عليس كثيراً بقسوة التأييب وخرج هارباً من الخيمة، استمرت إيرينديرا فى مراقبتها للجدة النائمة وهى تكن لها الكراهية الخفية وتشعر بالغضب من الإحباط كلما زادت خيوط نور الصباح وازدادت شقشقة العصافير ثم رمقتها بابتسامة راضية .

- حفظك الله يا ابنتى .

والتغير الوحيد الذى لوحظ هو عدم الانتظام فى الخطوات اليومية المعتادة . كان يوم أربعاء إلا أن الجدة أرادت أن ترتدى لباس الأحد وقررت ألا تستقبل إيرينديرا أى زبائن قبل الحادية عشرة وطلبت منها أن تطفى لها أظافرها بلون أحمر قانى وأن تقوم بتصفيف شعرها على طريقة الأحبار والأساقفة .

- لم أعش قبل ذلك مثل هذه الرغبة فى التقاط صورة لى
- قالت متعجبة.

بدأت إيرينديرا فى تصفيف شعر الجدة لكنها عندما وضعت
على رأسها المشط ذا الأسنان الواسعة وجدت بينها خصلة من
الشعر، وقامت مفزوعة بإظهارها للجدة التى قامت بفحصها
وحاولت أن تنتزع خصلة أخرى بأصابعها، وبقيت خصلة طويلة
من الشعر فى يدها فألقت بها على الأرض، ثم عادت لتجرب
مرة أخرى منتزعة خصلة أكبر بكلتا يديها وهى تكاد تموت ضحكاً
وتقوم بإلقاء الشعر فى الهواء بفرحة وسعادة غير مفهومة حتى
أصبحت رأسها كأنها ثمرة جوز مقشرة.

لم تعرف إيرينديرا أى شىء عن عليس إلا بعد أسبوعين
عندما سمعت صوت البوم خارج الخيمة، كانت الجدة قد بدأت
تعزف على البيانو وكانت مستغرقة فى ذكرياتها لدرجة أنها لم
تكن تعي ما حولها حولها. وتضع على رأسها باروكة من الريش
ذى الألوان الزاهية.

لبت إيرينديرا النداء، وعندئذ لاحظت الفتيل الذى يخرج
من صندوق البيانو ويمتد عبر الأعشاب والحشائش ويتوه فى
الظلام، جرت إلى حيث عليس واختبأت إلى جواره بين
الشجيرات ورأى كلاهما وهما، يضغطان على القلب، ذلك

اللهب الأزرق الذى ذهب عبر الفتيل ماراً بالمنطقة المظلمة ودخل إلى الخيمة. ثم قال عليس :

- ضعى يديك على أذنيك.

فعل كلاهما ذلك ولكن دون حاجة، فلم يقع أى انفجار، أضيئت الخيمة من الداخل من جراء اشتعال سريع انفجر صامتاً ثم اختفى فى شكل عمود دخان لبارود مبلل. وعندما جرؤت إيرينديرا على الدخول معتقدة أن الجدة قد ماتت وجدتها وقد تفسخت باروكتها وأصبحت البلوزة مهلهلة لكنها أكثر حيوية من أى وقت مضى إذ كانت تعمل على إخماد النيران باستخدام بطانية.

هرب عليس مستغلاً صيحات الهنود الذين أصابتهم الحيرة، ولا يدرون ماذا يفعلون، وذلك من جراء الأوامر المتناقضة التى كانت تصدرها الجدة. وعندما استطاعوا السيطرة على اللهب وتهوية الخيمة من الدخان كان الوضع يشبه عملية غرق سفينة.

- يبدو أنها من فعل ذلك الملعون - قالت الجدة - فالبيانو لا ينفجر بمحض الصدفة.

حاولت طرح كل الاحتمالات التى أدت إلى هذه الكارثة الجديدة ' لكن تهرّب إيرينديرا وموقفها غير الواضح جعل الأمور غير جلية فى نظر الجدة، لم تجد أى مسلك مريب فى تصرفات

الحفيدة ولم تتذكر وجود عليس . وظلت مستيقظة حتى الفجر
وهى تطرح الافتراضات وتقوم بحساب الخسارة - نامت سويعات
بشكل متقطع - وفى صباح اليوم التالى قامت إيرينديرا بمساعدتها
فى خلع الصديرى الذى به أسياخ الذهب . وجدت بقايق على
كتفيتها من جراء الحريق ، كما وجدت صدرها وقد احترق الجلد
وظهر اللحم " هذا هو السبب الذى جعلنى لا أنام مرتاحة -
قالت هذه العبارة فى الوقت الذى تقوم فيه إيرينديرا بوضع بياض
البيض على الحروق - كما أننى حلمت حلمًا غريبًا " . حاولت
التركيز لاسترجاع الحلم واستطاعت استحضار ذلك فى مخيلتها
مثلما تفعل أثناء أحلامها . قالت :

- الحلم هو وجود طاووس على سرير أبيض .

شعرت إيرينديرا بالمفاجأة ، لكنها استعادت فى الحال
التعبيرات المعتادة على وجهها .

- إنها بشرى طيبة - كذبت - الطواويس فى الأحلام هى
حيوانات تعبر عن طول العمر .

- ليسمع الله منه - قالت الجدة - لأننا عدنا من جديد من
نقطة الصفر . عليك البدء من جديد .

لم يبدُ على إيرينديرا أى تأثر ، فخرجت من الخيمة وهى
تحمل الضمادات فى طبق كبير وتركت الجدة وصدرها ملطخ

بياض البيض، أما رأسها فكانت مغطاة بالخردل، كانت تضع المزيد من بياض البيض فى الطبق، تحت الظلة المصنوعة من سعف النخيل والتي كان الفراغ الذى تحتها يستخدم كمطبخ. وفى هذه اللحظة ظهرت عيون عليس خلف الستائر وهى تنظر إليها مثل أول مرة من خلف سريرها. لم تفاجأ بل قالت له بصوت متعب. - الشئ الوحيد الذى فعلته هو أنك أسهمت فى زيادة ما على من ديون.

ظهرت اللهفة والشغف فى عيون عليس وظل جامداً بلا حراك ينظر فى صمت لإيرينديرا ويراهها وهى تقوم بتكسير البيض بإيقاع يشير إلى الاحتقار الكامل وكأنه غير موجود. بعد هنيهة تحركت العيون وأخذت تطوف فى أرجاء المطبخ من الحلل والمطبيقات الخشبية والأطباق وسكين لتقطيع الذبائح. نهض عليس دون أن ينطق بشئ كما هى عادته ودخل تحت الظلة وأخذ السكين.

لم تنظر إليه إيرينديرا لكنها قالت له بصوت خفيض وهو يخرج من تحت الظلة:

- خذ حذرك فقد جاء لها نذير الموت، إذ حلمت بطاووس يقف على سرير أبيض.

رأت الجدة عليس يدخل ومعه السكين، فبذلت كل جهدها لتنهض دون الاعتماد على العصا ورفعت ذراعيها، وصاحت:

- هل جنت أيها الفتى؟

قفز عليس فوقها وطعنها طعنة قوية فى صدرها العريان،
فصدر عن الجدة أنين وألقت بنفسها فوقه وحاولت خنقه بذراعيها
الغليظتين اللذين تشبهان قوائم الدب.

- يا ابن الساقطة - أخذت تصيح - لقد تأخرت كثيراً فى
اكتشاف أن لك وجه ملاك خائن.

لم تستطع الجدة أن تنطق بأكثر من هذا، ذلك أن عليس
استطاع أن يحرر يده التى تحمل السكين وعاجلها بطعنة أخرى فى
الضلوع، فصدر عنها أنين أشد فظاعة، وأمسكت بالمعتدى بمزيد
من القوة، فعاجلها عليس بضربة لا رحمة فيها فكان أن خرج
الدم منها باندفاع شديد تطايرت بقع منه على وجهه: كان دمًا كأنه
الزيت لامعاً وأخضر اللون وكأنه عسل النعناع.

ظهرت إيرينديرا فى المدخل وهى تحمل الطبق فى يدها،
ولاحظت صراعاً تخيم عليه جراءة إجرامية. كانت الجدة ضخمة
تئن من الألم والغیظ، فأحكمت يدها على جسم عليس. غطى
الدم الأخضر ذراعيها وأوراكيها ورأسها الحليق. كانت تتنفس فتبدو
كأنها الكبير، وبين كل نفس وآخر تظهر أول بوادر الحشرجة، كل
ذلك كان يخيم على الجو. استطاع عليس أن يفك قيد يده التى
تمسك بالسكين مرة أخرى وقام بشق بطنها فكان أن تفجر الدم

وغطاه باللون الأخضر حتى أخمص قدميه، بينما الجدة تحاول استنشاق الهواء الذى كانت فى حاجة إليه لتواصل الحياة لكنها سقطت على بطنها. خلّص عيسى نفسه من اليدين المترهلتين ولم يدخر وقتًا فقام بطعن الجسد الضخم الطعنة الأخيرة.

عندئذ وضعت إيرينديرا الطبق على منضدة ومالت على الجدة وأخذت تتفحصها جيداً دون أن تلمسها. وعندما تأكدت أنها ماتت اكتسى وجهها بلامع إنسان ناضج كأنه لم تمض عليه عشرون سنة من الحظ التعس. وبحركات سريعة ومحدودة أخذت الصديرى الذهبى وخرجت من الخيمة.

ظل عيسى جالساً إلى جوار الجثة وقد أجهده الصراع، وكلما أخذ ينظف وجهه من هذه المادة الخضراء الحية كانت تزداد لدرجة بدا أنها تفور من أصابعه. ولم يع جيداً لما هو عليه إلا عندما رأى إيرينديرا وهى تخرج من الخيمة حاملة معها الصديرى.

ناداها صائحاً لكنه لم يتلق أى إجابة، أخذ يزحف حتى مدخل الخيمة ورأى كيف أن إيرينديرا أخذت تجرى نحو شاطئ البحر فى اتجاه معاكس لاتجاه المدينة. وعندئذ بذل آخر ما عنده من جهد ليلحق بها وأخذ ينادى عليها بصيحات تعبر عن فقدان الأمل، فلم تعد صيحات العاشق بل صيحات الابن. لكن

الإرهاق الرهيب الناجم عن قيامه بقتل امرأة دون مساعدة أحد قد تغلب عليه. فأدركه الهنود الذين كانوا يعملون لحساب الجدة فوجدوه ملقى على الشاطئ ووجهه إلى الأرض وهو يبكي من الخوف والوحدة.

لم تسمعه إيرينديرا، كانت تسابق الريح لدرجة أنها تسبق الأيائل، ولم يكن هناك أى صوت فى العالم قادر على إيقافها، مرت وهى تجرى دون أن تلتفت بالبخار الناجم عن الملاحظات ومناجم التلك وبالمساكن القائمة وسط البحيرات حتى انتهى كل ما يتعلق بالبحر، وظلت كذا حتى وصلت إلى الصحراء. لكنها واصلت جريها وهى تحمل الصديرى الذهبى إلى ما وراء الريح الساخنة وأوقات الشفق التى تطول وتطول، ولم يعد أحد يدرى عنها شيئاً، كما لم يعثر على أى أثر، ولو ضئيل لتعاستها.

الصيف السعيد للسيدة / فوربس

(١٩٧٦)

عندما عدنا إلى المنزل فى المساء وجدنا ثعباناً بحرياً ضخماً معلقاً من رقبته فى إطار الباب . كان أسود اللون فسفورياً، بدا لنا أنه تعويذة سحرية للغجر . كانت عيناه مفتوحتين وبهما حياة، أما أسنانه فبدت كأنها منشار صغير على فكين أصابهما الإعياء . كان عمري آنذاك تسعة أعوام؛ شعرت بخوف شديد أمام هذا الشكل الذى يثير الهذيان لدرجة ذهب معها صوتى . لكن أخى الذى يصغرنى بعاممين انتزع أنايب الأوكسجين والقناع وزعانف العوم وخرج مذعوراً وهو يصيح صيحة فزع . سمعته السيدة/ فوربس وهى على السلم الحجرى المتعرج الذى يمتد على طول الأرصفة ابتداء من المرسى وحتى المنزل . فأدركتنا وجاءت وهى تلهث وقد علت الزرقة وجهها . وبمجرد أن رأت الثعبان مدقوقاً على الباب، عرفت سبب الرعب الذى نحن فيه . عادة ما كانت تقول بأنه إذا ما كان هناك طفلان مجتمعين فكلاهما مذنبان بما قد يفعله كل واحد منهما على حدة . وعلى ذلك نهرت كلينا بسبب صيحات الفزع التى صدرت عن أخى وظلت تؤنبنا على عدم قدرتنا على السيطرة على أنفسنا . تحدثت إلينا بالألمانية وليس بالإنجليزية، كما كان ينص العقد الذى وقع معها لتعمل كمربية . وربما كان ذلك

لأنها كانت مذعورة هي الأخرى لكنها تقاوم الاعتراف
بمشاعرهما، لكنها عادت لتتحدث بالإنجليزية غير مستقيمة وعادت
إلى هوسها التربوي بمجرد أن استعادت شجاعتها.

- إنها سمكة "أبو مرينا" الهيلينية - قالت - هكذا
يسمونها فقد كان قدماء الإغريق يقدسونها.

وفجأة ظهر "أوريستي" ذلك الفتى من أبناء المنطقة الذى
يعلمنا السباحة فى المياه العميقة.

ظهر بين الشجيرات الخاصة بنبات الكبار. يضع قناع
الغوص على جبهته ويرتدى بنطلون مسباحة قصير وحزاماً من
الجلد وقد علق به ست نصال مختلفة الأشكال والأحجام ذلك أنه
لا توجد لديه طريقة أخرى للصيد تحت الماء إلا الصراع جسداً
لجسد مع الحيوانات البحرية. يبلغ العشرين من العمر، وكان
يقضى أغلب وقته تحت الماء لدرجة بدا لنا معها أنه حيوان بحرى
ذلك أن جسده كان ملطخاً بالبقع الناجمة عن شحم الموتور.
وعندما رآته السيدة/ فُوريس لأول مرة قالت لوالدى إنه من
المستحيل أن يتصور المرء إنساناً أجمل منه، ومع ذلك لم يشفع له
جماله ووسامته من تعرضه للعقاب: فقد كان عليه أن يتعرض
لتأنيب وجه إليه باللغة الإيطالية لفعلته بتعليق "أبومرينا" على
الباب وليس لديه أى مبرر اللهم إلا إدخال الرعب على الأطفال.

وبعد ذلك أمرت السيدة فوربس أن يرفع الشعبان البحرى بحرص واحترام، فهو حيوان أسطورى، ثم طلبت منا أن نرتدى ملابسنا لتناول العشاء.

فعلنا ما أمرتنا به فى الحال، وحاولنا ألا نرتكب أية أخطاء ذلك أنه بعد أسبوعين من العيش فى ظل نظام السيدة/ فوربس كنا قد تعلمنا أن أصعب شىء هو أن يحيا المرء. وبينما نأخذ دشًا فى الحمام غير المضاء لاحظت أن أخى لا زال يفكر فى "أبومرينا". قال لى: "كانت عيناه تشبه أعين البشر"، كنت على اتفاق معه فيما يقول لكننى جعلته يظن عكس ذلك واستطعت تغيير الموضوع حتى انتهيت من حمامى. لكن عندما خرجت من تحت الدش طلب منى أن أبقى لأرافقه. فقلت له:

- لم تغرب الشمس بعد.

قمت بفتح الستارة، كان الوقت خلال شهر أغسطس يرى عبر النافذة السهل الحار المقوس فى الجانب الآخر من الجزيرة، الشمس متوقفة فى السماء.

- ليس لهذا السبب - قال أخى - إننى خائف من الخوف.

ومع ذلك فعندما جلسنا إلى مائدة الطعام بدا هادئًا وقام بفعل كل شىء بدقة استحق عليها تهتة خاصة من السيدة/ فوربس بالإضافة إلى درجتين أخريين لصالحه خلال هذا الأسبوع.

أما بالنسبة لى فقد خصصت منى درجتين من الدرجات الخمس التى كانت من نصيبى ذلك أننى سارعت فى خطاى فسُمع وقع قدمائى، ووصلت إلى المائدة وأنا غير منتظم الأنفاس. وإذا ما حصلنا على خمسين درجة يكون من حقنا قطعنا حلوى لكن كلانا لم يتجاوز الخمس عشرة نقطة. كان الأمر مؤلماً حقاً ذلك أننا لم نتذوق حلوى "البودين" فى مكان آخر أشهى من الذى كانت تعده السيدة/ فوربس.

كان العشاء يبدأ بأن نقف أمام الأطباق الخالية من الطعام لتتلو الصلوات والأدعية. لم تكن السيدة/ فوربس كاثوليكية. لكن العقد المبرم معها كان يفرض عليها أن تجعلنا نصلى ست مرات فى اليوم. كما تعلمت صلواتنا للوفاء بذلك. ثم نجلس ثلاثتنا ونحن نكتم أنفاسنا، بينما تقوم هى بفحص دقيق وشامل لكل تصرفاتنا. وعندما تتأكد من أن كل شىء على ما يرام وبالشكل المطلوب تقرع الجرس الصغير، وعندئذ تدخل "فولبيا فلامينيا" الطباخة وهى تحمل شورية الشعرية التى عهدناها منذ زمن طويل خلال هذا الصيف الممل.

عندما كنا مع والدينا بمفردنا، كان الطعام مهرجاناً. فكانت فولبيا فلامينيا تقوم بتقديم الأطعمة وهى تُقاى مثل الدجاج وتقدم الطعام بغير نظام ثابت مما يثير البهجة. ثم تجلس بعد ذلك على المائدة وينتهى بها الأمر أن تأخذ شيئاً من أطباقنا جميعاً. لكن منذ

أن تولت السيدة/ فوربس أمرنا، تقوم فولبيا بتقديم الطعام فى صمت مهيب لدرجة أننا كنا نسمع صوت الشورية وهى تغلى فى شكل فقاعات داخل السلطانية. كنا نتناول طعام العشاء وظهورنا مستقيمة مستندة على مسندة الكراسى، ونقوم بالمضغ عشر مرات على أحد الأشداق أخرى مثلها على الشدق الآخر دون أن تفارق عيوننا هذه السيدة الصارمة والنحيفة والتي وصلت إلى خريف العمر، إذ كانت تتحدث من خلال ذاكرتها عن دروس المدنية، كانت دروساً تشبه قداس الأحد لكن ليس بها أى عزاء مثل غناء الناس فى القداس.

فى اليوم الذى وجدنا فيه الثعبان البحرى معلقاً فى الباب تحدث إلينا السيدة/ فوربس عن الواجبات المقدسة نحو الوطن، بينما فولبيا فلامينيا تكاد تطير وتطفو فى الهواء الذى يملأ الصوت جنباته، وتقوم بتقديم قطعة فيليه - بعد تناول الشورية - وقد تم شواؤها على الفحم، كانت قطعة لحم بيضاء لها رائحة رائعة. وبالنسبة لى فمنذ تلك اللحظة كنت أفضل السمك على أى طعام آخر من الطيور أو الحيوانات، وكانت هذه الذكرى الخاصة التى أحملها فى منزلنا فى "غواكامايال" بمثابة شىء يثلج صدرى. لكن أخى رفض الطبق دون أن يتذوقه.

- لا أحبه - قال.

قطعت السيدة/ فوربس درسها

- لا يمكن لك أن تعرف ذلك - قالت له - فلم تذوقه بعد.

وجهت إلى الطباخة نظرة تحذير لكن بعد فوات الأوان.
- إن "أبو مرينا" هو أفضل سمك في الدنيا يا بني - قالت له فولبيا فلامينيا - جربه وسترى صدق ما أقول.

لم يطرأ أى تغيير على السيدة/ فوربس. أخذت تقص علينا - بمنهجيتها غير الرحيمة - أن "أبو مرينا" هو طعام الملوك فى العصور القديمة وأن المحاربين كانوا يتصارعون من أجل الحصول على مرارة هذه السمكة ذلك أنها تنفث فيهم شجاعة تفوق الخيال. وبعد ذلك أخذت تكرر علينا كعادتها فى هذه الفترة القصيرة معنا أن المذاق الطيب ليس صفة لازمة، كما أنها لا يتم تعلمها فى أى مرحلة من مراحل العمر، بل يجب فرضها منذ الطفولة. وبالتالي ليس هناك أى مبرر لعدم الإقبال على تناول الطبق. أما أنا الذى كنت قد جربت "أبو مرينا" دون أن أعرف ما هو، أصبحت أعيش حالة النقاش: فمن جانب أراه جميل الطعم رغم أنه حزين بعض الشيء لكن صورة الثعبان وهو معلق على طوق الباب كانت أكبر من شهيتى المفتوحة. بذل أخى أقصى جهد له مع أول لقمة من الطبق لكنه لم يستطع تحمله: تقياً.

- اذهب إلى الحمام - قالت له السيدة/ فوربس حراك - ونظف نفسك جيداً ثم عد لتناول الطعام.

شعرت بكرب شديد من أجله ذلك أننى كنت أعرف كم كان يتكلف من الجهد وهو يعبر وسط أرجاء المنزل وقد أوشكت الشمس على المغيب، ثم يبقى وحيداً فى الحمام طوال الوقت الضرورى لتنظيف نفسه. لكنه عاد سريعاً وهو يرتدى قميصاً نظيفاً، كان منتفخ الوجه ولم تكدر عشة الخوف قد زالت عنه بعد، وقاوم الامتحان الخاص بمسألة النظافة جيداً، وحينئذ أخذت السيدة/ فوربس قطعة من "أبومرينا" وأمرت بمواصلة العشاء. أخذت أنا قطعة ثانية ووضعتها فى فمى رغم أنفى. أما أخى فلم يمد يده على أى شىء حتى على طاقم الشوك والملاعق.

- لن أكل هذا الطبق - قال.

كان واضحاً فى حزمه، لدرجة أن السيدة/ فوربس تفادت ذلك.

- حسن - قالت - لكن لن تناول الحلو.

أدت الراحة التى شعر بها أخى إلى تشجيعى، فوضعت الشوك والسكين متعامدتين فوق الطبق علامة على الانتهاء من الطعام كما علمتنا السيدة/ فوربس، ثم قلت:

- وأنا أيضاً لن أتناول الحلو.

- ولن تشاهدا التليفزيون - أجابت هى.

- ولن نشاهد التليفزيون - قلت أنا.

وضعت السيدة/ فوربس الفوطة على المائدة ونهض ثلاثنا للصلاة. وبعد ذلك طلبت منا الذهاب إلى حجرة نومنا وهي تحذرننا أننا يجب أن نخلد للنوم فى الفترة التى تحتاجها هى للانتهاء من تناول طعامها. هكذا تم محو كل الدرجات التى حصلنا عليها. ولن نستطيع التلذذ بتناول حلو الكريمة أو قالب الفانيلى أو بسكويات البرقوق اللذيذ إلا بعد حصولنا على عشرين درجة. وهذا الصنف الأخير من الحلويات لم نعثر على مثيل له طوال حياتنا.

الوصول إلى هذه القطعية كان مؤكداً، لكنها مسألة وقت، فلمدة عام كامل كنا ننتظر بفارغ الصبر هذا الصيف الحار الطليق فى جزيرة "بانتيلاريا" الواقعة فى أقصى الجبهة الجنوبية من صقلية. وكان صيفاً طليقاً خلال الشهر الأول حيث كان والدنا معنا. إننى لازلت أتذكر، حتى اليوم، فيما يشبه الحلم، ذلك السهل المشمس من الصخور البركانية وذلك البحر الخالد، وذلك المنزل المدهون بالجير القوى الألوان حتى غطى طبقة الطوب، والذي كنا نرى من نوافذه أثناء الليل الساكن الوميض المتألى للفنارات المطلة على سواحل أفريقيا. كنت أقوم مع والدى بالغوص فى الأعماق الموجودة حول الجزيرة، واكتشفنا سلسلة من الطوربيدات الصفراء التى سقطت فى العمق منذ الحرب الأخيرة. كنا قد انتشلنا جرة إغريقية يبلغ طولها متراً تقريباً وعليها أكاليل

تقادمت وأصابها العطب. كان بداخلها بقايا نبيذ لا يعرف أحد إلى أى زمن يعود. كان نبيذاً مُسمماً. ثم قمنا بالاستحمام فى منطقة هادئة تنبعث منها الأبخرة. كانت مياهها ثقيلة يكاد المرء يسير فوقها. لكن الاكتشاف الأغرب بالنسبة لنا تمثل فى فولبيا فلامينيا. كانت تبدو كأنها أسقف معبد، تسير وحولها مجموعة من القطط تضيق عليها الطريق الذى تسير فيه، وتقول إنها لا تأوى هذه القطط حباً منها للحيوانات، لكن حتى تحول دون أن تأكلها الفئران. وفى المساء عندما كان والدينا يشاهدان برامج تليفزيونية للكبار تأخذنا فولبيا فلامينيا معها إلى المنزل الواقع على بعد أقل من مائة متر من منزلنا وتقوم بتعليمنا كيفية تمييز أنواع الأصوات التى تسمع من بعيد والأغاني وصوت الرياح المتقطع القادم من تونس. كان زوجها رجلاً أكثر شباباً منها بكثير، وكان يعمل طوال الصيف فى الفنادق السياحية الكائنة على الطرف الآخر من الجزيرة، يعود إلى المنزل للنوم فقط. أما الفتى أورستى فيعيش مع والده فى مكان أبعد قليلاً، وكان يظهر دائماً أثناء الليل وهو يحمل حبل سمك وشبكة بها الجمبرى الذى انتهى للتو من صيده ثم يعلق كل ذلك فى المطبخ حتى يقوم زوج فولبيا فلامينيا ببيعه للفنادق فى اليوم التالى. بعد ذلك يضع بطارية الغوص على جبهته ويأخذنا لنصطاد الفئران الجبلية الكبيرة كأنها الأرانب، كانت تعيش على فضلات المطابخ، وأحياناً كنا نعود إلى المنزل

بعد أن يكون والدانا قد خلدنا للنوم. ولم يكن النوم يداعب جفوننا بسبب الأصوات الناجمة عن معارك تدور بين الفئران فى الألفية من أجل الفوز بالبقايا. ورغم هذا فقد كان أحد المكونات الغامضة الجميلة فى صيفنا السعيد.

أما قرار التعاقد مع مربية ألمانية فلم يدر إلا بخلد والدى أحد كتاب منطقة الكاريبي، كثير الخيال قليل الألمعية. كان رماد المفاخر الأوروبية قد ملك عليه جماع عقله وكان ميالاً للتكرار لأصوله وجذوره سواء على صفحات كتبه أم فى الحياة اليومية وفرض على نفسه وهماً هو ألا يتبقى فى أبنائه أى أثر لماضيه. أما أمى فقد ظلت دائماً المرأة المتواضعة مثلما كان عليه حالها وهى تمارس وظيفة المعلمة فى أقاصى "غواطيرا" ولم يخطر ببالها أن تطوف بخلد زوجها فكرة إلا وكانت من وحي الإلهام. وبهذا لم يسأل كل منهما نفسه ويحكم قلبه حول نمط المعيشة التى سنعيشها مع "مساعدة عسكرية" من دورموند، تبذل ما فى وسعها لتعلمنا بالقوة العادات المهجورة عن المجتمع الأوروبى بينما يقوم والدنا مع أربعين مؤلفاً من مؤلفى العصر بالتنزه على ظهر عبارة ثقافية لمدة خمسة أسابيع بين جزر بحر إيجة.

وصلت السيدة/ فوربس فى السبت الأخير من شهر يوليو على متن مركب صغير وعادى قادمة من باليرمو، ومنذ أن رأيناها لأول مرة شعرنا بأن البهجة قد ولت عنا. جاءت وهى تلبس

حذاء برقبة يشبه أحذية الميليشيات وترتدى فستانًا ياقته كبيرة ومتعانقة وسط هذا الحر. أما شعرها فقد كان قصيرًا كأنه شعر رجل يضع قبعة من اللباد. كانت رائحتها تشبه رائحة بول الرجال " كل الأوروبيين رائحتهم هكذا وخاصة في الصيف " قال لنا والدي. " إنها رائحة الحضارة ". لكن خلافًا لمظهرها العسكرى فالسيدة فوربس كانت مخلوقًا نحيف الجسد ربما كان يثير شفقتنا إذا ما كنا كبارًا في السن أو كان عندها بقايا حنان. أصبحت الدنيا غير الدنيا. فالساعات الست التى كنا نقضيها فى البحر والتي كانت منذ بداية الصيف ممارسة دائمة للخيال أصبحت ساعة واحدة لا تبديل فيها كأنها الرتابة نفسها. عندما كنا برفقة والدينا نتمتع بكل ما نريد من وقت لنسبح مع أورستى وقد شعرنا بالدهشة أمام الفن والجرأة التى يواجه بها الأخطبوط البحرى وهو فى مكانه وقد اعتلته الأحبار والدم وليس فى يده إلا سكاكين المصارعة التى يحملها. وبعد ذلك ظل يأتى فى الحادية عشرة وهو على متن اللش الصغير، كما كان يفعل دائمًا. لكن السيدة/ فوربس لم تكن تسمح له أن يمكث معنا، أكثر من الوقت المحدد لحصة الغوص ولو لدقيقة واحدة. منعنا من الذهاب ليلاً إلى منزل فوليا فلامينيا ذلك أنها تعتبر ذلك ودًا زائدًا عن الحد مع العامة. واضطررنا أن نخصص الوقت المتبقى من صيد الفئران فى قراءة تحليلية لأعمال شكسبير. ولما كنا قد تعودنا سرقة ثمار المانجو

ومطاردة الكلاب حتى قتلها بالحجارة فى الشوارع الحارة لغوا كما يال كان من المستحيل علينا تصور شىء أكثر فظاعة من حياة الأمراء هذه .

لكن سرعان ما أدركنا أن السيدة/ فوربس لم تكن صارمة مع نفسها مثلها هو الحال معنا . وذلك أول شرخ فى سلطاتها . كانت - فى البداية - تظل على الشاطئ تحت الشمسية الملونة وهى ترتدى ملابس البحر وتقرأ قصائد لشيلر بينما يقوم أوريستى بتعليمنا الغوص ، وبعد ذلك تقوم بإعطائنا دروساً نظرية حول السلوك الاجتماعى ويمتد الدرس ساعات وساعات حتى يحين وقت الغذاء .

طلبت ذات يوم من أوريستى أن يحملها فى اللنش إلى المحلات السياحية التابعة للفنادق ثم عادت وقد اشترت لباس بحر من قطعة واحدة لونه أسود متموج كأنه جلد سبع البحر ، لكنها لم تنزل البحر أبداً ، إذ كانت تأخذ حمامات شمسية على الشاطئ بينما نقوم نحن بالعموم . ثم تقوم بتجفيف عرقها بالفوطة دون أن تصب الماء على نفسها من الإناء الذى تحمله . وبعد ثلاثة أيام كانت تبدو وكأنها جمبرى إحمر لحمه من الحر وتحمل رائحة حضارتها لدرجة لا يمكن التنفس معها .

كانت تقضى الليل فى استرخاء ، فمنذ أن بدأ حكمها كنا نشعر بخطوات تدور فى المنزل المظلم وتتحسس طريقها وسط الظلام وقد أصاب ذلك أخى بالقلق . وفكر أن تكون هذه هى

خطوات الغرقى تطوف بالمنازل وهى حكايات طالما قصتها علينا فولبيا فلامينيا. وسرعان ما اكتشفنا أنها السيدة/ فوربس إذ كانت تقضى الليل تمارس الحياة العادية لامرأة تعيش بمفردها. هى نمطية الحياة التى تؤنب نفسها عليها أثناء النهار. وفى فجر أحد الأيام فاجأناها وهى فى المطبخ ترتدى قميص النوم الذى يشبه قميص الطالبات. تقوم بإعداد الحلوى اللذيذة وكان كل جسدها قد تلطخ بالدقيق حتى وجهها، تتناول كأسًا من النيذ البرتقالى ويعتريها نوع من عدم الدقة والتردد كان السبب فيه الاشمئزاز الذى عليه السيدة/ فوربس الأخرى. ومنذ هذه اللحظة عرفنا أنه بعد أن نذهب إلى حجرة نومنا لم تكن تخلد هى للنوم، بل كانت تنزل للسباحة خلسة، أو أن تظل فى الصلاة حتى ساعات متأخرة من الليل تشاهد الأفلام الممنوعة على الصغار فى التليفزيون بينما تتناول قوالب كاملة من الحلوى وتشرب زجاجة كاملة من نيذ خاص احتفظ به والدى للمناسبات الخاصة. كانت تناقض كل ما تتحدث به عن التقشف والاتزان فى السلوك بأن كانت تلتهم القطع التهامًا وبشغف لا حدود له. ثم كنا نسمعها بعد ذلك تتحدث وحدها وهى فى حجرتها، إذ كانت تقوم بقراءة مستأنية بالألمانية لفقرات كاملة.

كنا نسمعها وهى تغنى وتتحبب فى سريرها حتى الصباح. ثم تظهر بعد ذلك على مائدة الإفطار وقد تضخمت عيناها من

كثرة البكاء وتزداد حزنًا وتشددًا. فارقتنا السعادة والمرح أنا وأخي لكننى كنت على استعداد لتحملها حتى النهاية ذلك أننى أعرف أن حاجتها هى التى ستتغلب على حججنا. أما أخى فقد دخل فى مواجهة معها بكل حدة طابعة وتحول الصيف السعيد إلى جحيم. وكانت واقعة "أبو مرينا" هى النقطة التى طفع معها الكيل، ففى تلك الليلة، وعندما نحن فى سريرنا نسمع الحركة الدائبة للسيدة فوربس، فى هذا المنزل النائم. قال أخى بكل ما فيه من عزم النعمة:

- سوف أقتلها.

كانت مفاجأة لى، ليس للقرار فقط، بل للتوافق العجيب ذلك أننى كنت أفكر فى هذا الأمر منذ العشاء. ومع ذلك حاولت كبح جماحه. فقلت:

- سوف يقطعون رقبتك.

- لا توجد مقصلة فى صقلية - قال - كما أنه لن يعرف أحد من القاتل.

كان يفكر فى الجرة التى انتشلت من الماء والتى لا زال فى قاعها بقايا النيذ السام. كان والدى يحتفظ بها وذلك لأنه يريد تحليله لمعرفة طبيعة ذلك السم الذى لا يمكن أن يكون قد تكون بمرور الزمن. واستخدام هذا السم لقتل السيدة/ فوربس هو أمر

غاية فى السهولة ولن يفكر أحد فى الأمر إلا على أنه حادثة أو انتحار. والخلاصة أنه عند الفجر وعندما تسقط فريسة السهاد نقوم بأخذ السم الذى فى الجرة ونخلطه بزجاجة النبيذ الجيد الخاص بوالدى، وطبقاً لما سمعنا فإن هذه الجرعة تكفى للقضاء على حصان.

كنا نتناول الإفطار فى المطبخ فى تمام التاسعة، وكانت السيدة/ فوربس هى التى تقوم بنفسها بإعداده لنا، نتناول فيه الخبز المسكر الذى تأتى به فوليا فلامينيا مبكراً وتضعه فوق الفرن. وبعد ذلك بيومين أى بعد أن وضعنا السم فى الزجاجة، وبينما نتناول طعام الإفطار الملح لى أخى بعينه لندرك ونحن غير سعيدين أن الزجاجة المسممة ظلت كما هى لم تُمس. كان ذلك يوم الجمعة وظلت الزجاجة طوال نهاية الأسبوع دون أن يقنص منها شىء، لكن السيدة/ فوربس شربت ليلة الثلاثة نصف الزجاجة وهى تشاهد الأفلام الفاضحة فى التليفزيون.

ومع كل هذا حضرت كعادتها اليومية طعام الإفطار صباح الأربعاء. كان وجهها مثل العادة وجه امرأة قضت ليلة تعسة. أما العينان فقد كان يطوف بهما شغف واضح أخذ يزداد عندما وجدت فى سلة الخبر المسكر رسالة تحمل طوابع ألمانية. قرأت الرسالة وهى تتناول القهوة رغم أنها كررت علينا كثيراً أنه لا يجب فعل ذلك. وأثناء القراءة كانت تكسو وجهها انفراجة مؤقتة

تنقلها لها الكلمات المكتوبة . وبعد ذلك انتزعت الطوابع من الظرف ووضعتها فى السلة مع الخبز المتبقى وذلك لتكون جزءاً من مجموعة الطوابع الخاصة بزواج فولبيا فلامينيا . ورغم الفكرة السيئة التى أخذناها عنها منذ البداية رافقتنا فى رحلة الغوص ذلك اليوم وظللنا نسبح فى بحر خفيف المياه حتى انتهى الأوكسجين فى الأنابيب ، وعدنا إلى المنزل دون درس السلوكيات الاجتماعية . كانت السيدة/ فوربس معتدلة المزاج ذلك اليوم أضف إلى هذا أنها بدت أثناء العشاء وهى أكثر حيوية عن ذى قبل . لم يتحمل أخى حالة فقدان الأمل . فعندما تلقينا الأمر بالبداية فى تناول العشاء بطبق شوربة الشعيرية أزاح الطبق بطريقة استفزازية . وقال :

- لقد سئمت هذه المياه المخلوطة بالديدان .

كان الأمر بمثابة إلقاء قنبلة على المائدة - انتفخ وجه السيدة/ فوربس وتوترت شفتاها وانطبقت فوق بعضها إلى أن زال دخان الانفجار وكست الدموع رجاء نظارتها . ثم رفعتها عن عينها وجففتها بالفوطة ثم وضعتها على المائدة قبل أن تنهض وهى تشعر باستسلام لا فخار فيه .

- افعل ما شئت - قالت - فأنا غير موجودة .

دخلت إلى غرفتها منذ الساعة . لكنها خرجت منها قبل منتصف الليل وقد ظنت أننا خلدنا إلى النوم فرأيناها وهى ترتدى

قميص نوم الطالبات تتجه إلى المطبخ ثم تعود إلى غرفة نومها وقد حملت معها نصف قالب من الشيكولاتة والزجاجة التي تبقى بها ما يزيد قليلاً عن أربعة قراريط من النبيذ المسموم. شعرت لحظتها برعشة الأسي.

- مسكينة يا سيدة / فوربس - قلت .

لم يكن أخى يتنفس بشكل هادئ. قال :

- المساكين هم نحن إذا لم تمت هذه الليلة .

عادت تتحدث وحيدة في تلك الليلة وظلت هكذا لفترة غير قصيرة وأنشدت لشيلر بصوت عال وكأنها أصيبت بجنون مفاجئ وأنهت إنشادها بصيحة دوت في أرجاء المنزل، ثم تنهدت كثيراً بعد ذلك حتى وصلت التنهدات إلى أعماق روحها وأخذت تصدر صفيراً حزيناً ومستمراً كأنها قارب تتقاذفه الأمواج. وعندما استيقظنا كنا نشعر بالإرهاق بسبب التوتر والسهاد، كانت الشمس تدخل عبر النافذة في شكل حزمة ضوء، إلا أن البيت بدا وكأنه غارق في صمته. عندئذ أدركنا أن الساعة قد اقتربت من العاشرة ولم يوقظنا أحد بناء على عادة السيدة/ فوربس. فلم نسمع صوت المياه وهي تنساب بقوة من "السيفون" إلى المرحاض في الثامنة صباحاً، ولم نسمع صوت حنفية حوض الغسيل أو صوت "شيش" النوافذ وهو يرفع ولم نسمع وقع حديد حذائها أو

الضربات الثلاث القاتلة على الباب بكف يدها. وضع أخى أذنه على الحائط وكنم أنفاسه حتى يتمكن من سماع أى مؤشر للحياة فى الحجرة المجاورة، وفى النهاية صدرت عنه تنهيدة الشعور بالحرية.

- انتهى الأمر ! - قال- الشئ الوحيد الذى يسمع هو صوت البحر.

أعددتنا إفطارنا قبل الحادية عشر بقليل، ثم نزلنا بعد ذلك الشاطئ ونحن نحمل اثنتين من الأنايب لكل واحد منا بالإضافة إلى اثنتين أخريين كاحتياطى، وذلك قبل مجيئ فولبيا فلامينيا بمرافقها من القطط، لتقوم بتنظيف المنزل. كان أوريسى فى الميناء يقوم بتنظيف سمكة وزنها ستة أرطال اصطادها للتو. قلنا له إننا انتظرنا السيدة/ فوربس حتى الحادية عشرة، ولما ظلت نائمة قررنا النزول وحدنا إلى البحر، وقصصنا عليه، بالإضافة إلى ذلك، أنها كانت تبكى فى الليلة السابقة وهى جالسة على مائدة العشاء، وربما نامت نومًا غير طبيعى، وفضلت البقاء فى السرير. لم يهتم أوريسى كثيرًا بالشرح وذلك ما كنا نتوقعه وذهب بنا لنغوص فى أعماق البحر لما يزيد عن الساعة بقليل. وبعد ذلك طلب منا أن نذهب لتناول الغذاء، ثم ذهب فى اللش لبيع السمكة لأحد الفنادق السياحية. ودعناه ونحن على السلم الحجرى وجعلناه يظن أننا متوجهين إلى المنزل حتى اخستفى عن ناظرينا، وبعد ذلك

وضعنا أنابيب الأوكسجين وعدنا نسبح دون إذن من أحد .

كان الجو غائماً، وكانت تشم رائحة الرعد القاتم فى الأفق، لكن البحر كان ساكناً وشفافاً، وكان مكتفياً بضوئه هو . قمنا بالسباحة على السطح حتى خط الفنار المسمى "بانتيلاريا" ثم انحرفنا بعد ذلك وسرنا مائة متر على اليمين ثم قمنا بالغوص فى المكان الذى اعتقدنا أننا رأينا فيه صف الطوربيدات الحربية فى بداية الصيف .

كانت هناك ستة طوربيدات مدهونة باللون الأصفر وعليها أرقاماً مسلسلّة وملقاة فى الأعماق البركانية فى نظام لا يمكن أن يكون بمحض الصدفة . وبعد ذلك واصلنا الطواف حول الفنار بحثاً عن المدينة الغارقة التى حدثتنا عنها فوليا فلامينيا كثيراً، لكن لم نعثر لها على أثر . وبعد ساعتين صعدنا إلى سطح المياه بعد أن اقتنعنا أن ليس هناك المزيد من الأسرار، ولم يتبق معنا إلا القليل من الأوكسجين .

كانت قد بدأت عاصفة من عواصف الصيف ونحن نسبح، البحر هائج وهناك أسراب من الطيور الآكلة للحوم، تحوم وهى تصيح صياحاً حاداً مقتتلة حول بقايا الأسماك الملقاة على الشاطئ، لكن ضوء المساء لم يكن قد بدأ بعد، كما أن الحياة جميلة بدون السيدة/ فوربس . ومع ذلك عندما انتهينا من صعود

السلم الحجري رأينا المنزل وأمامه جمع غفير، وسيارتى بوليس،
عندئذ أدركنا جيداً حقيقة ما فعلناه. ارتعد أخى وحاول الرجوع
عن دخول المنزل.

- أنا لن أدخل المنزل - قال.

أما أنا فقد كنت أضمن تخميناً غامضاً يقول بأنه لو شهدنا
الجلثة مجرد مشاهدة فسوف ننجو من أى شبهة.

- كن هادئاً - قلت له - عليك أن تتنفس بعمق وفكر فى
شئ واحد : نحن لا نعرف شيئاً.

لم يهتم بنا أحد، تركنا أنابيب الأوكسجين والأقنعة
والزعانف على الباب الرئيسى ودخلنا الردهة الخلفية حيث كان
هناك رجلان يدخان وهما جالسان على الأرض إلى جوار سرير
نقال. عندئذ أدركنا أن هناك عربة إسعاف على الباب الخلفى
وبعض العسكريين المسلحين بالبنادق. أما الصالة فكانت هناك
نساء الجوار وهن يصلين بلغتهن المحلية، كن جالسات على
الكراسى التى رصها إلى جوار الحائط، بينما الأزواج قد وقفوا فى
الفناء وهم يتحدثون عن أشياء لا علاقة لها بالموت. ضغطت بقوة
على يد أخى التى كانت جامدة وسرت فيها رعشة برودة، ودخلنا
المنزل عبر الباب الخلفى. كانت حجرة نومنا مفتوحة وهى على
نفس الحالة التى تركناها عليها. أما حجرة السيدة/ فوربس فكانت

هى الحجرة التالية وكان بها أحد الرجال المسلحين يراقب المدخل ، لكن الباب كان مفتوحاً . تطلعنا إلى الداخل ونحن نمسك قلوبنا بأيدينا ولم نكد نفعل ذلك حتى خرجت فولبيا فلامينيا من المطبخ كأنها السهم وأغلقت الباب وهى تصيح صيحة مفزعة .

- بحق الله يا أبنائي لا تنظروا إليها !

كانت صيحتها متأخرة ، فلن ننسى طوال حياتنا ما رأيناه فى تلك اللحظة الخاطفة ، كان هناك رجلان يرتديان ملابس مدنية ويقومان بقياس المسافة بين السرير والحائط بينما يقوم آخر بالتقاط الصور بكاميرا لها كم أسود مثل المصورين الذين يطوفون بالحدائق . لم تكن السيدة/ فوربس على السرير غير مرتب الفراش ، كانت ملقاة على جانبها بعض الشيء على الأرض وهى عريانة وغارقة فى بركة دماء جافة كانت قد غطت أرض الحجرة بالكامل ، كما كان جسمها تغطيه طعنات مختلفة ، كانت سبعة وعشرين طعنة قاتلة ، وانطلاقاً من كثرة الطعنات وحدثها يلاحظ أنها عوملت بقسوة بسبب حب لا يعرف الكلل ، وأن السيدة/ فوربس قد تلقت هذه الطعنات بنفس الشغف دون أن تصيح بل كانت تبكى وهى تنشد لشيلر بصوتها العذب الذى يشبه صوت الجندى وعلى وعى كامل بأن ذلك هو الثمن الحتمى لصيفها السعيد .

جئت لأتصل بالتليفون فقط

(١٩٧٨)

ذات مساء ممطر من أمسيات الربيع وعندما كانت ماريا لوث ثريانتس تسافر وحدها تعرضت السيارة التي استأجرتها لعطل فى صحراء "مونيغروس". كانت مكسيكية، تبلغ من العمر سبعاً وعشرين عاماً، جميلة وجادة، وقد حازت قبل سنوات نصيباً من الشهرة كممثلة لأدوار مختلفة. متزوجة بواحد ممن يؤدون الألعاب السحرية فى الصالونات، وفى ذلك اليوم كانت عائدة إليه بعد زيارة قامت لبعض أقربائها فى سرقسطة، وبعد ساعة من النداءات غير المجدية على السيارات المارة والشاحنات التى تمر مندفعة وسط عاصفة المطر أشفق عليها سائق أتوبيس متهالك. وحذرهما إلى أنه لن يذهب بعيداً.

- لا يهم - قالت ماريا - إن ما أريده فقط هو الاتصال بالتليفون.

كان ما تقول صحيحاً، إذ هى فى حاجة إلى التليفون لتبلغ زوجها أنها لن تصل قبل الساعة مساءً، تبدو كأنها طائر مبلل وهى ترتدى معطفاً من المعاطف الطلابية وتلبس حذاء مخصصاً للشاطئ خلال شهر أبريل، كما كانت خائفة لأنها لم تأخذ حذرهما وتحمل معها مفاتيح السيارة. كانت هناك امرأة تسافر إلى

جوار سائق ذى هيئة عسكرية لكنه حسن التصرفات إذ أعطاها فوطه وبطانية وبحث لها عن مكان بجانبه، وبعد أن جففت نفسها بعض الشيء جلست والتحففت البطانية وحاولت إشعال سيجارة من السجائر القليلة التى نجت من مياه المطر. وبينما تدخنان فتحت ماريا باب الحوار لتفرج عن نفسها بالكلام. صوتها أعلى من صوت المطر وإيقاع صوت الأتويس. قاطعتها المرأة وهى تضع سبابتها على شفيتها. وهمست لها.

- إنهن نائمات.

نظرت ماريا من أعلى كتفها ورأت أن الأتويس كان مليئاً بنساء ذوات أعمار متقدمة وأوضاع اجتماعية مختلفة. كُنَّ نائمات وهن يلتحفن بطانيات ممائلة لتلك التى معها. أصابت ماريا عدوى راحتهم فتمكن من مقعدها وتركت نفسها لصوت المطر. وعندما استيقظت كان الظلام مخيماً وتحولت رذاذات المطر إلى نتف ثلج تهبط بهدوء. لم تدرك كم من الوقت نامت أو فى أى مكان من العالم هى موجودة. كانت جارتها فى المقعد تتخذ موقفاً حذراً. سألت ماريا :

- أين نحن.

- وصلنا - أجابت المرأة.

دخل الأتويس الفناء المبلط بالحجارة، وهو فناء مبنى ضخم ومظلم بدا على شكل دير أقيم وسط غابة من الأشجار العالية،

أما المسافرين فقد كانت تسقط عليهن أشعة ضوء لمبة واحدة في الفناء، وظللن ساكنات حتى جاءت المرأة ذات الشكل العسكري وأشارت إليهن بالنزول في نظام وكأنهن في حضانة للأطفال. كن كبيرات في السن وكن يتحركن في ظلمة الفناء ببطء لدرجة بدين معها صوراً من صور الأحلام. كانت ماريا آخر من تركت الأتوبيس وفكرت أنهن راهبات. لكنها أخذت تستبعد هذا الظن عندما رأت بعض النساء وهن يرتدين الزى ويستقبلن المسافرين على باب الأتوبيس ويقمن بتغطية رؤوسهن بالبطانيات حتى لا تبتل، ثم يقمن بصفهن صفّاً واحداً على طريقة الهنود ويربتن عليهن دون التوجه بالحديث إليهن. وبعد أن ودعت ماريا جارتها في المقعد أرادت أن ترد لها البطانية، لكن الأخرى قالت لها بأن تغطي بها رأسها حتى تتمكن من عبور الفناء ثم تسلمها في البوابة.

- هل سيكون هناك تليفون؟ سألتها ماريا.

- بالطبع - قالت المرأة - سيرشدنك عن مكانه.

طلبت من ماريا سيجارة أخرى فأعطتها باقى العلبة بالسجائر المبتلة. "سوف تجف في الطريق" قالت لها. لوحت المرأة بيدها مودعة وهي على سلم الأتوبيس وقالت لها بصوت مرتفع "حظاً طيباً" أخذ الأتوبيس طريق الخروج دون أن تتمكن من أكثر من هذا.

بدأت ماريا تجرى صوب مدخل المبنى ، فحاولت إحدى الحراسات إيقافها بتريئة صارمة ، ورغم ذلك لجأت إلى صيحة مكتومة : " قلت توقفي ! " نظرت ماريا من تحت البطانية فرأت عينيْن جامدتين وسبابه صارمة تشير إليها أن تلتزم الطابور ، فأطاعت ، وعندما دخلت دهليز المبنى انفصلت عن الباقيات وتوجهت للبواب لتسأل عن تليفون ، فجعلتها إحدى الحراسات تعود مرة أخرى إلى الطابور وهي تربت على كتفها كما تقول لها بتلطف شديد .

- من هنا يا جميلة ، التليفون من هنا .

واصلت ماريا مثل باقى النساء سيراً عبر عمر مظلم وفى النهاية دخلت عرفة نوم جماعية حيث قامت الحراسات باسترجاع البطانيات وبدأن فى توزيع الأسرة . كانت هناك امرأة ، بدت فى عين ماريا مختلفة وأكثر إنسانية ومختلفة عن الباقيات ، هذه المرأة تقوم بمراجعة الطابور على أساس قائمة من الأسماء تحملها وتضاهيها بالأسماء المكتوبة على قطعة كرتونية مثبتة بواسطة خيط على ملابسهن . وعندما وصلت إلى ماريا فوجئت بأنها لا تحمل إثبات شخصيتها .

- الأمر هو أننى جئت لأتصل بالتليفون - قالت ماريا .

وقامت بسرعة شديدة لإيضاح بأن سيارتها تعطلت فى الطريق ، وأن زوجها الذى يقوم بالعباب السحر فى الحفلات

ينتظرها في برشلونة وذلك حتى يفي بثلاثة من التزاماته تمتد حتى منتصف الليل، وأنها لذلك تريد إبلاغه بأنها لن تصل في الوقت المناسب لمرافقته. كانت الساعة قد اقتربت من السابعة، ومن المفترض أن يغادر المنزل في غضون عشر دقائق. وكانت تخشى أن يقوم هو بإلغاء كل ارتباطاته بسبب تأخيرها. بدا أن الحارسة تصغى إليها باهتمام.

- ما هو اسمك؟ سألتها.

ذكرت لها ماريا اسمها بالكامل وهي تصدر تنهيدة ارتياح، لكن المرأة لم تعثر على الاسم بعد مراجعة القائمة عدة مرات. فسألت مستفسرة من إحدى الحارسات، لكنها هزت كتفها دون أن تنطق بشيء.

- إننى جئت إلى هنا لأتصل بالتليفون فقط - قالت ماريا.

- وهو كذلك يا حلوة - قالت لها الرئيسة، وأخذتها إلى سريرها بعدوبة شديدة تفقدها مصداقيتها وواقعيتها - إذا ما تصرفت جيداً ستتمكنين من الاتصال بالتليفون بمن تريدين، لكن ليس الآن - غداً.

طراً خاطر في عقل ماريا في هذه اللحظة جعلها تفهم لماذا كانت النساء في الأتوبيس تتحركن وكأنهن في قاع جدول. لقد تم إعطاؤهن المنومات، أما هذا القصر المظلم ذو الأسوار السميقة

المبينة من الحسجارة والسالام المتجمدة فلم يكن فى الحقيقة إلا مصحة للأمراض العقلية. فشعرت بالفزع وفرت هاربة من حجرة النوم، لكنها قبل أن تصل إلى الباب قابلتها حارسة ضخمة الجثة وعاجلتها بضربة قوية كلها غلظة فطرحتها أرضاً وأفقدتها القدرة على الحركة بلى ذراعيها.

نظرت إليها ماريا وقد أعجزها الرعب.
- بحق الله - قالت - أقسم لك بأسمى الميتة أننى جئت لأتصل بالتليفون.

كان كافياً أن ترى وجهها لتعرف أن لا ملاذ أمام هذه الجثة الضخمة الغبية التى كن يطلقن عليها "هريقلة" نظراً لقوتها غير العادية. كانت توكل إليها المهام الصعبة لدرجة أن اثنتين من السجينات لقيتا حتفهن خنقاً بذراع الدب القطبى هذا، والمدرّب على فن القتل سهواً. وتم حل القضية الأولى على أنه حادث، أما الحالة الثانية فكانت غير واضحة، وتم توجيه اللوم والتحذير لهريقلة، وأنه فى المرة القادمة سوف تتعرض للمساءلة الدقيقة. والصورة الشائعة عنها هو أنها تلك النعجة الضالة التى تنسب إلى عائلة ذات ألقاب كثيرة، تاريخها ملئ بالحوادث المشبوهة التى وقعت فى أكثر من مصحة عقلية فى أسبانيا.

وحتى تنام ماريا أول ليلة حقنوها بمنوم. وقبل شروق الشمس أيقظتها الرغبة فى التدخين فوجدت نفسها مربوطة من

يديها ورجليها فى السرير . لم يلب أحد صيحاتها . وفى الصباح وبينما لم يجد الزوج أى أثر لها فى برشلونة ، أخذوها إلى العيادة ذلك أنهم وجدوها وهى غارقة فى بحر من البول والبراز .

لم تدر كم من الوقت استغرقته عندما تنبعت من سباتها . لكن الدنيا كانت فى هذه اللحظة ينبوع حب ، فقد كان على رأس سريرها رجل عجوز أثرى يسير على أطراف قدميه وله ابتسامة ناعمة ، ومن خلال لمستين حائيتين أعاد إليها فرحة الحياة ، كان مدير المصحة .

وقبل أن يقول لها شيئاً أو حتى يحييها طلبت منه ماريا سيجارة فأعطاهما واحدة مشتعلة وأهداها باقى العلبة . فأجهشت ماريا بالبكاء .

- انتهزى الفرصة الآن لتبكى كما تشائين - قال لها الطبيب بصوت يبعث على النوم - فالدموع هى أفضل علاج .

بكت ماريا تفضفض عن نفسها دون حرج ، ولم تكن قد فعلت ذلك أبداً وهى مع عشاق الصدفة الذين صادفوها ، وخاصة فى فترة الاسترخاء التالية لممارسة الحب . وبينما كان الطبيب يستمع إليها كان يقوم بتمشيط شعرها بأصابعه ويقوم بإزاحة المخدة عن أنفها حتى تتنفس بشكل أفضل ، وأخذ يساعدها وهى غارقة فى حيرتها ، ويتمتع فى ذلك بحكمة وعذوبة لم تحلم بهما أبداً .

ولأول مرة فى حياتها تشعر أن هناك من يفهمها، وأن الرجل الذى ينصت إليها يفعل ذلك من أعماق روحه دون انتظار للمقابل، وهو ممارسة الحب معها. وبعد ساعة طويلة من البكاء بحرارة طلبت منه الموافقة على أن تتصل بزوجها تليفونيا.

اعتدل الطبيب فى مهابة تليق بمنصبه. "ليس الآن يا مليكتى، قال لها ذلك وقد ربت على خدها برقة لم تشعر بمثلها من قبل" سيتم كل شىء فى وقته، كما باركها كأنه رجل دين وهو على الباب واختفى للأبد.

- ثقى فى - قال لها.

تم تسجيلها مساء ذلك اليوم فى المصححة، وأخذت رقماً مسلسلاً وأضيف إلى جوار اسمها تعليقاً سطحياً يتعلق بغموض المكان الذى جاءت منه والشكوك حول حقيقتها. وفى نهاية التعليق هناك عبارة كتبها المدير بخط يده "حالة هياج".

وكما توقعت ماريا كان زوجها قد خرج من شقته المتواضعة الكائنة فى حى "أورتا" نصف ساعة متأخراً عن الوقت المتفق عليه ليفى بالارتباطات الثلاثة. هذه هى المرة الأولى التى لا تأتى فى موعدها طوال ما يقرب من عامين من بداية الزواج الحر الذى تم الاتفاق عليه جيداً. وفهم هو أن التأخير بسبب غزارة المطر الذى نزل على المنطقة فى نهاية ذلك الأسبوع، لكنه قبل أن ينزل ترك رسالة علقها فى الباب يوضح فيها مساره فى تلك الليلة.

وفى الحفلة الأولى كان الأطفال جميعهم قد ارتدوا قناع الكنغر وبذلك تخلى عن اللعبة المعتادة وهى لعبة الأسماك غير المرئية، فلم يتمكن من القيام بها دون مساعدتها. أما الحفلة الثانية فكانت فى منزل سيدة عجوز تبلغ الثالثة والتسعين من العمر جالسة على كرسى متحرك. كانت هذه العجوز تفخر بأنها احتفلت كل عام بعيد ميلادها خلال الثلاثين سنة الأخيرة، وفى كل مرة تتعاقد مع ساحر مختلف. كان يشعر بالقلق بسبب تأخير ماريا ولم يستطع التركيز فى الألعاب التى تتسم بالبساطة. أما الحفلة الثالثة فكانت هى التى اعتاد المشاركة فيها كل ليلة والمكان هو عبارة عن مقهى تعزف فيه الفرق الموسيقية فى شارع/ لاس رامبلاس. وقد أدى النمر المعتادة دون أى إلهام، أمام مجموعة من السياح الفرنسيين الذين لم يصدقوا ما يرونه ذلك أنهم كانوا يقاومون الاعتقاد فى السحر. وكان يقوم بالاتصال بمنزله بين كل لعبة وأخرى، وانتظر بلا أمل، أن تجيب على اتصالاته. وفى آخر مرة لم يستطع كبح جماح قلقه فى أن شيئاً سيئاً قد حدث لها.

عندما عاد إلى المنزل وهو يقود الشاحنة الصغيرة التى قام بإعدادها لتتناسب مع العروض فى الأماكن العامة شهد جمال الربيع متمثلاً فى النخيل المصطف فى طريق/ جراثليا. وسيطرت عليه فكرة أخذت تلح عليه وهى كيف يمكن أن تكون المدينة بدون ماريا. ضاعت آخر آماله عندما وجد الورقة التى تركها على

الباب كما هي . كان القلق قد استبد به لدرجة أنه نسي إعداد وجبة الطعام للقط .

عندما أقوم الآن بكتابة الاسم أدرك أنني لا أعرف ما اسمه في الحقيقة . ذلك أننا في برشلونة كنا نعرفه باسمه المهني / ساتورنو الساحر . كان رجلاً ذو طبيعة غريبة ، ولم يكن به أى ذكاء اجتماعي إلا أن الظرف والحساسية في التصرفات اللتان تنقصه توجدان بشكل زائد في ماريا . كانت هي التي تأخذ بيده في هذا المجتمع المليء بالكثير من الأسرار والذي لم يخطر ببال أحد منه أن يتصل تليفونياً بآخر بعد منتصف الليل ليسأل عن زوجته . لكن ساتورنو فعلها وقد وصل للتو للمنزل ، ولم يكن يريد أن يتذكر ذلك الموقف . وعلى هذا اكتفى بالاتصال بسرقة حيث ردت عليه إحدى الجدات وهي شبه نائمة ودون أن تشعر بأي خوف ، وقالت له بأن ماريا رحلت بعد تناول الغداء . ولم ينم أكثر من ساعة حتى الفجر ، ورأى أثناء النوم حلمًا طينياً - شهد فيه ماريا وهي ترتدى فستان زفاف مكون من القصاصات ومخضب بالدماء . واستيقظ وهو على يقين بأنها عادت وتركته ، وهو الآن يعيش وحده في هذا العالم الواسع بدونها .

كانت قد فعلت تلك الفعلة قبل ذلك ثلاث مرات مع ثلاثة من الرجال وكان هو واحد من هؤلاء الثلاثة خلال الخمسة أعوام الأخيرة ، قد تركته في مدينة " المكسيك " بعد مضي ستة أشهر

على تعارفهما عندما كانا فى قمة السعادة وهما يعيشان حباً
مجنوناً فى حجرة حمام فى مستعمرة أنثوريس . وذات صباح
كانت ماريا قد غادرت المنزل قبل الشروق وتركت كل متعلقاتها بما
فى ذلك خاتم زيجتها السابقة وكذا رسالة تقول فيها بأنها، بعد
ليلة من الممارسات الزائدة عن الحد والتي لا يمكن الإفصاح بها،
غير قادرة على تحمل تبعات ذلك الحب الذى لا يقف عند حد .
وفكر ساتورنو أنها ربما عادت إلى زوجها الأول الذى كان أحد
تلاميذها فى المدرسة الثانوية، وتزوجت به خفية لأنه لم يبلغ سن
الرشد ثم تركته من أجل آخرين بعد عامين من اللا حب . لكن
ليس هذا هو ما حدث، لقد عادت إلى منزل والديها وذهب
ساتورنو إلى هناك ليبحث عنها بكل السبل . أخذ يرجوها، دون
أن يضع أية شروط، ووعدها بأكثر مما هو قادر على الوفاء به،
لكنه لم يجد إلا الصمد الذى لا يلين : "هناك أنواع من الحب
قصيرة العمر وأنواع أخرى طويلة العمر" . قالت له واختتمت
حديثها بلا رحمة "كان ذلك الحب من النوع القصير العمر" .
استسلم أمام قوة إرادتها، ومع ذلك فذات صباح وهو بالتحديد
يوم القديسين، وعندما كان عائداً إلى حجراته وهو يشعر باليتم
بعد عام من النسيان، وجدها نائمة على الكنبه الكائنة فى الصالة
وهى تحمل باقة الورد وذيل فستان الزفاف يمتد كأنها عروس لم
تدخل الدنيا بعد .

قصت عليه ماريا الحقيقة، وهى أن خطيبها الجديد رجل أرمل ليس عنده أولاد يعيش حياة سهلة ومستعد للزواج عن طريق الكنيسة الكاثوليكية، هذا الرجل تركها وهى ترتدى فستان الزفاف وتنتظره فى مذبح الكنيسة. وقرر والدها إتمام الحفل. فواصلت هى معها اللعبة، فرقصت وغنت وشربت حتى سكرت وهاجمها إحساس رهيب بتأنيب الضمير، ذهبت فى منتصف الليل لتبحث عن ساتورنو.

لم يكن فى المنزل، لكنه وضع المفاتيح فى إحدى إصص الزهور الكائنة فى الممشى حيث كانا يضعانها دومًا. كانت هى هذه المرة التى استسلمت له بلا قيد أو شرط "والآن إلى متى؟" سألتها. فأجابت عليه بيت من الشعر لفيتشوس دى موراليس :
" الحب خالد ما دام مستمرًا " وبعد ذلك بعامين كان الحب لا يزال خالدًا.

بدا أن ماريا نضجت! إذ تخلت عن أحلامها بأن تكون ممثلة وكرسى نفسها له سواء فى ممارسته لمهنته أم فى السرير. وفى نهاية العام الماضى كانا قد حضرا مؤتمرًا للسحرة فى بريسبان، وعندما عادا تجولا فى برشلونة فأعجبتهما المدنية لدرجة أنهما اشتريا شقة فى حى قطلانى محض هو حى "أورتا" إنه حى كثير الضوضاء، كان المنزل الذى هما فيه بلا بواب، إلا أن به مساحة

تكفى لخمسة أبناء، كانت تلك هي السعادة الممكنة حتى قامت هي في نهاية الأسبوع واستأجرت سيارة وذهبت لزيارة أقربائها في سرقسطة على وعد بأن تعود في السابعة من مساء الاثنين، لكن لم يظهر لها أى أثر حتى فجر الخميس.

وفي يوم الاثنين من الأسبوع التالى اتصلت شركة التأمين على السيارة المؤجرة تليفونيا بالمنزل لتسأل عن ماريا "لا أعرف شيئا" قال ساتورنو "ابحثوا عنها في سرقسطة" ثم وضع الساعة، وبعد ذلك بأسبوع ذهب أحد رجال البوليس وكان يرتدى زيا مدنياً إلى منزله ليلغفه بأنهم وجدوا السيارة، وقد جردت من كل شيء، في طريق فرعى بالقرب من قادش، أى على بعد تسعين كيلوا متراً من المكان الذى تركتها فيه ماريا. وكان رجل البوليس يريد أن يعرف المزيد من التفاصيل عن عملية السرقة هذه. كان ساتورنو يقوم بتقديم الطعام للقط، ولم يكذ ينظر إليه وهو يقول لرجل البوليس بألا يضيعوا الوقت ذلك أن امرأته قد هربت من المنزل وهو لا يعرف مع من هربت أو إلى أين ذهبت. كان على هذه القناعة لدرجة أن رجل البوليس شعر بالخرج واعتذر له عن كثرة أسئلته. وأعلن حفظ القضية.

داهمت ساتورنو الغيرة من أن تقوم ماريا بالهرب من المنزل في عيد القيامة في "كاداكييس" حيث كانت روسا ريجاس قد دعته لممارسة رياضة الإبحار بالمراكب الشراعية. كنا في

"ماريتيم" البار الشعبى الشهير الملىء بالضوضاء الكائن فى "لاجوش دين" وذلك فى فترة مغيب شمس الحكم الفرنكوى . وكنا نجلس على مائدة مصنوعة من الحديد، وكذلك كراسى من نفس المادة، كان المكان يستوعبنا نحن الستة بالكاد، لدرجة أننا كنا نشعر بأننا محشورون كأننا عشرون فرداً. وبعد أن انتهت علبة السجائر الثانية خلال ذلك اليوم وجدت ماريا نفسها بدون كبريت. وفجأة امتدت ذراع نحيفة مليئة بالشعر القوى، وفى المعصم سوار من البرونز الرومانى، وفتحت لنفسها مكاناً وسط الجموع الجالسة حول المنضدة وأعطتها الكبريت. أما هى فقد شكرته دون أن تنظر إليه لكن ساتورنو الساحر رآه، كان شاباً يافعاً نحيفاً وأمرداً شاحب اللون شحوب الموت، وكان شعره طويلاً يمتد فى حزمة سوداء حتى خصره. أما زجاج البار فلا يكاد يقاوم غطسة الربيع إلا أن الفتى كان يرتدى نوعاً من البيجامات الشعبية المصنوعة من القطن الخام وحذاءً مثل أحذية العمال.

لم يرياه بعد ذلك اليوم إلا فى نهاية الخريف، وذلك فندق صغير تباع فيه القشريات والرخويات البحرية فى منطقة "بارثيلونيتا" وهو يرتدى نفس الطقم الواسع الانتشار، كذلك كان شعره فى الضفيرة الطويلة بدلاً من الحزمة. حياهما وكأنه يحيى أصدقاء قدامى، وبناء على شكل تقيله لماريا ومبادلتها له زادت شكوك ساتورنو فى أنهما كانا يتواعدان سرّاً. وبعد ذلك بعدة أيام

وجد بمحض الصدفة اسمًا جديدًا ورقم تليفون جديد وقد دونتهما ماريا فى النوتة المنزلية. وأسهمت الغيرة غير الرحيمة فى تخمينه لمن يكون الاسم والرقم. وأدى العثور على المفكرة الشخصية للدخيل إلى التأكد من كل شىء : العمر اثنين وعشرين عامًا، هو ابن وحيد لأسرة غنية يتمثل عمله فى إعداد ديكورات فترينات العرض، ويشتهر بأنه شاذ جنسيًا وأنه ذا سمعة معترف بها فى قدرته على تسلية السيدات المتزوجات مقابل أجر مادي، ومع ذلك استطاع ساتورنو أن يتحمل هذه الغيرة حتى الليلة التى لم تعد فيها ماريا إلى المنزل. وعندئذ أخذ يتصل به تليفونيًا كل يوم، وكان يتصل، فى البداية، بمعدل كل ساعتين أو ثلاث ساعات ابتداء من السادسة صباحًا وحتى فجر اليوم التالى. ثم أخذ يتصل به كلما وجد أمامه الفرصة مهياة لاستخدام التليفون. ولما لم تكن هناك إجابة زادت تعاسته وعظم شقاؤه.

وفى اليوم الرابع رد عليه صوت أندلسية كانت تقوم بأعمال النظافة "لقد خرج الأستاذ" قالت له هذه العبارة بكثير من الغموض لتزيد من جنونه. فلم يستطع ساتورنو مقاومة فضوله بسؤالها عما إذا كانت قد رأت الأنسة ماريا هناك على سبيل الصدفة.

- لا تعيش هنا أى امرأة اسمها ماريا - قالت له المرأة -
تعرف أن الأستاذ أعزب.

- أنا أعرف - قال لها - إنها لا تعيش هناك ولكن أحياناً
تذهب إلى المكان، أليس كذلك؟

اغتاظت المرأة

- من الذى يتحدث؟

وضع ساتورنو السماعية، وبدأ نفى المرأة كأنه المزيد من
التأكيد على أن ما يتصوره ليس مجرد شكوك، بل حقيقة لا مرأى
فيها. فقد سيطرته على نفسه، وأخذ خلال الأيام التالية يجرى
اتصالات بكل من يعرفهم فى برشلونة واستعمل فى ذلك نظام
الترتيب الأبجدى. لم يقده أحد لشيء، لكن كل مكالمة كانت
تزيد من تعاسته، ذلك أن هوس الغيرة عنده كان معروفاً لدى
السهارى الدءوبين فى "لاجوش ديين" وكانوا يرددون عليه ببعض
العبارات الساخرة التى كانت تزيد من عذابه. وفى هذه الآونة
أدرك أنه إلى أى مدى يعيش وحيداً فى هذه المدينة الجميلة المجنونة
والصعبة المنال والتى لن يكون سعيداً فيها أبداً، وفى الفجر، وبعد
أن وضع الطعام للقط أمسك بقلبه حتى لا يموت واتخذ قراراً
بنسيان ماريا.

لم تكن ماريا قد تعودت بعد على الحياة فى المصحة بعد
مرور شهرين، كانت تعيش على القليل من جراحة السجن وهى
تستخدم طقم الطعام المربوط إلى المنضدة المصنوعة من ألواح

الخشب غير الناعمة وعيناها ثابتان على صورة الجنرال فرانكو التي كانت تسيطر على حجرة طعام، من العصور الوسطى، تستسم بالكآبة. كانت في البداية تقاوم ساعات الوعظ الديني بروتينيتها الغبية من صلوات الفجر والظهر والمساء، وكذلك بعض التراتيل الكنسية الأخرى التي تغطي معظم الوقت. وكانت ترفض اللعب بالكرة في الفناء أو العمل في ورشة الزهور الصناعية التي تقوم على رعايتها مجموعة من السجينات باهتمام بالغ. وفي الأسبوع الثالث أخذت ماريا تنضم رويداً رويداً للحياة في الدير، وعلى حد قول الأطباء فإن البداية عندهن واحدة، وبعد ذلك ينخرطن في صفوف المجتمع المحيط بهن.

كانت تجد حلاً لمشكلة السجائر خلال الأيام الأولى بواسطة إحدى الحارسات التي تبيعها بسعر مرتفع، وأدت حاجتها للسجائر إلى إقلاقها عندما انتهى ما معها من النقود القليلة. وكان عزاؤها بعد ذلك تدخين السجائر المصنوعة من ورق الصحف التي تقوم بصناعتها بعض السجينات باستخدام "السيبارس" التي تجمعها من القمامة. وقد وصلت رغبتها الشديدة في التدخين إلى نفس درجة رغبتها في الاتصال بالتليفون، وكانت البيزيتات القليلة التي جنتها من المشاركة في إعداد الزهور تشكل نوعاً من المسكنات قصيرة المفعول.

إن أقصى شيء هو العزلة أثناء الليل. فكانت الكثيرات من السجينات تمكثن يقظات في الظلام مثلها لكن دون أن تجرؤ واحدة

منهن على شىء، فها هى هناك الحارسة الليلية التى تراجع البوابة الموصدة بواسطة سلسلة وقفل. ومع ذلك، اشتد بها الضيق ذات يوم فسألت بصوت واضح حتى تسمعها جارتها فى السرير.

- أين نحن؟

أجابها الصوت الحاد والواضح للجارة.

- فى أعماق أعماق الجحيم.

- يقولون إن هذه هى أرض عربية - قال صوت آخر بعيد رن فى فراغ حجرة النوم - ولا بد أن يكون هذا الكلام سليماً، ففي الصيف وعندما يطلع القمر تسمع الكلاب وهى تنبح على البحر.

سمع صوت السلسلة وهى تدور فى الحلقة وكأنها خطاف لأحد المراكب التى تستعد للرسو أو الإبحار، ثم فتح الباب، كانت الحارسة الشديدة هى الكائن الوحيد الذى يبدو حياً فى هذا الصمت المفاجئ. أخذت تروح وتغدو من طرف لآخر فى حجرة النوم. أصاب الخوف ماريما وكانت هى الوحيدة التى تعرف السبب.

منذ الأسبوع الأول لها فى المصلحة عرضت عليها الحارسة الليلية بوضوح ودون لف أو دوران أن تنام معها فى حجرة الحراسة. وقد بدأت عرضها بإيقاع يشير إلى مصلحة محددة:

مبادلة الحب بالسجائر والشيكولاتة أو أى شىء آخر . " سيكون لك كل شىء " . كانت تقول لها وهى خائفة " وستكونين المليكة المسيطرة " . وأمام رفض ماريا تغيرت الطريقة عند الحارسة . فقد كانت تترك لها عبارات مكتوبة تعبر لها عن حبها ، تحت المخلدة ، أو فى جيوب البيجامة أو فى الأماكن الأخرى التى قد لا تخطر على البال . كانت رسائل استعجال وفيها وله يمكن أن يلين له الحجر . منذ ما يقرب من شهر وهى تبدو أنها استسلمت للهزيمة وهى تلك الليلة التى دبرت فيها الواقعة التى جرت فى حجرة النوم . وعندما تأكدت أن كافة السجينات نائمات اقتربت الحارسة من سرير ماريا وهمست فى أذنها بكل العبارات الرقيقة وهى تقبل وجهها ورقبتها التى توترت من الرعب وتجمدت أطرافها . ولما تصورت الحارسة أن حالة الجمود التى عليها ماريا لا ترجع للخوف بل لأنها تشعر بالمتعة جرؤت على الذهاب إلى أبعد من هذا ، وعندئذ سددت لها ماريا ضربة بظهر يدها جعلتها تطير إلى السرير المجاور ، نهضت الحارسة مغتظة وسط الضجيج الذى أحدثته السجينات .

- يا ابنة الساقطة - صاحت - سوف نهلك هنا جميعاً فى حظيرة الخنازير هذه حتى تصابين بالجنون من حبك لى .

هل الصيف ، دون أن يعلن عن نفسه ، يوم الأحد الأول من شهر يونيو ، وكان من الضرورى اتخاذ إجراءات عاجلة ذلك أن

السجينات كن يشعرن بالحر ويخلعن المعاطف الصوفية أثناء القداس. كانت ماريا تتسلى بمشاهدة المريضات وهن عاريات وتقوم السجينات بسوقهن كأنهن دجاج أعمى. ووسط هذا الهرج والمرج حاولت أن تحمى نفسها من الضربات الطائشة، ودون أن تدري وجدت نفسها بمفردها فى مكتب خال وجهاز تليفون يدق دون توقف وبه زر الطلب. أخذت ماريا الساعة دون تفكير وسمعت صوتاً بعيداً وضاحكاً يتسلى وهو يقلد خدمة الساعة التليفونية:

- أنها الساعة الخامسة والأربعون واثنان وتسعون دقيقة -
ومائة وسبعة من الثوانى.

- أيها الشاذ جنسياً - قالت ماريا.

وضعت الساعة وهى تشعر بروح الدعابة. كانت على وشك الانصراف عندما أدركت أنها أمام فرصة ذهبية لا تتكرر. وعندئذ ضربت أرقاماً ستة، بسرعة وتوتر، ولم تكن متأكدة أن الرقم الذى طلبته هو رقم المنزل. انتظرت وقلبها يدق بعنف، سمعت الجرس المعتاد بصوته الحزين، يدق مرة ثم اثنتين ثم ثلاثة وسمعت بعد ذلك صوت الرجل شريك حياتها وهو فى المنزل بدونها.

- حسن؟

كان عليها الانتظار حتى تنقضى خنقة الدموع التي تكونت في حنجرتها.

- أيها الأرنب - يا حياتي - تنهدت.

هزمتها الدموع، وعلى الطرف الآخر من الخط كان هناك صمت وجيز يتسم بالفزع والصوت الذي أصابته الغيرة بالتوتر.

- أيتها القحبة !

ووضع السماعه بعنف.

في هذه الليلة - خلال نوبة حادة - قامت ماريا بإنزال صورة جنرال الجنرالات وألقت بها بكل ما أوتيت من قوة على أرض الحديقة ووقعت غارقة في دمائها. كان لا زال بها بعض الغيظ لتواجه الحارسات اللاتي حاولن السيطرة عليها دون جدوى بأن وجهت لهن بعض اللكمات حتى رأت "هريقلية" واقفة على الباب وهي معقودة الذراعين تنظر إليها، عندئذ استسلمت، ومع ذلك جررتها حتى عبر المجنونات الخطرات وضربنها بخرطوم مياه قوى وقمن بحقنها في فخذهما بمادة "التربتين". وقد أدى الحقن إلى تورم حال دون قدرتها على المشي وأدركت ماريا أن ليس هناك شيء في هذه الدنيا يحول دون العمل على الفرار من الجحيم. وفي الأسبوع التالي وعند العودة إلى حجرة النوم الجماعية نهضت على أطراف قدميها وضربت على مكان إقامة الحارسة الليلية.

كان السعر الذى تطلبه ماريا هو الدفع مقدماً وهى أن تقوم بتوصيل رسالة إلى زوجها فوافقت الحارسة طالما أن الاتفاق بينهما يظل فى طى الكتمان، وحذرتها بسبابتها التى تصلبت من شدة التأكيد.

- إذا ما عُرِف عن الأمر شيء فسوف تموتين.

وهكذا ذهب ساتورنو الساحر إلى المصلحة العقلية للنساء يوم السبت التالى وهو يركب شاحنته الصغيرة المهيأة لألعاب السحر وسط الجماهير وذلك ليحتفل بعودة ماريا. فاستقبله مدير المصلحة بنفسه فى مكتبه النظيف والمرتب وكأنه مركب هارب. وأبلغه برقة عن حالة زوجته. فلا أحد كان يعرف من أين أتت أو كيف أو متى ذلك. إن أول البيانات الخاصة بتسجيلها فى الدفاتر الرسمية قام هو بنفسه بتدوينها عندما التقى بها، وبعد ذلك تم إجراء تحرير فى نفس اليوم لم يسفر عن أى شيء. وعلى أى الأحوال فإن كل ما كان يهم المدير هو معرفة الكيفية التى عرف من خلالها ساتورنو المكان الذى فيه زوجته. فما كان من ساتورنو إلا حماية الحارسة.

- لقد أبلغتني شركة التأمين على السيارة بذلك - قال.

فما كان من المدير إلا القبول راضياً بالإجابة "لست أدري كيف يقومون بالتأمينات حتى يعرفوا كل شيء" قال ثم ألقى نظرة على ملفها الموجود على منضدة مكتبه واختتم حديثه قائلاً:

- الشيء الوحيد المحقق هو خطورة حالتها.

كان مستعداً للموافقة على زيارته لها مع الأخذ فى الاعتبار المحاذير اللازمة إذا ما وافق ساتورنو الساحر على الالتزام بما يملى عليه وذلك حرصاً على مصلحة زوجته وخاصة فيما يتعلق بمعاملتها للحيلولة دون إثارة هيجانها الذى أصبح يتكرر بكثرة وخطورة فى الفترة الأخيرة.

- إنه لأمر غريب - قال ساتورنو - كانت دائماً حادة المزاج، لكنها كانت تسيطر على نفسها.

أوما الطبيب إيماءة العارف بكل شيء "هناك سلوكيات تظل ساكنة لسنوات طويلة ثم تنفجر بعد ذلك ذات يوم". قال "وعلى أى الأحوال فإن حظها الطيب جعلها تأتى إلى هنا ذلك أننا متخصصون فى حالات تتطلب العزيمة الصلبة" وفى النهاية حذره من الهوس الذى تبديه ماريا بالتليفون.

- عليك مسايرتها - قال.

- اطمئن يا دكتور - قال ساتورنو وهو يبدى مرحه - إن ذلك هو تخصصى.

كانت صالة الزيارات خليطاً من السجن وكرسى الاعتراف، وكانت هى غرفة الدردشة القديمة فى الدير، لم يكن دخول ساتورنو هو تفجير الفرحة التى كان كلاهما فى انتظارها. كانت

ماريا واقفة فى وسط الصالون إلى جوار منضدة صغيرة وإلى جوارها مقعدين واثنين من الأصوص دون ورود. كان من البديهي أنها كانت جاهزة لترحل عن المكان وهى ترتدى معطفها المحزن بلون الفراولة وتلبس حذاءها العجيب الذى أعطى لها على سبيل الشفقة. كانت هيريقلية تقف ولا تكاد تلمح فى أحد الأركان وهى معقودة الذراعين، لم تتحرك ماريا عندما رأت زوجها وهو يدخل، لم يبد أى انفعال على وجهها الذى لا زالت به آثار الكدمات، تبادلا القبلة الروتينية.

- كيف حالك - سألها.

- سعيدة بأنك جئت فى النهاية أيها الأرنب - قالت - كان ذلك هو الموت.

لم يسعفهما الوقت للجلوس فقد غرقا فى الدموع وقصت عليه ماريا مآسى الدير ووحشية الحارسات والطعام الذى لا تقبله الكلاب والليالى الطويلة التى تنقضى دون أن تغمض لها عين بسبب الرعب.

- أنا لا أعرف كم يوماً قضيتها هنا، أم هل كانت شهوراً أم أعواماً، لكننى أعرف جيداً أن كل يوم هو أسوأ من الآخر - قالت ذلك وتنهدت من أعماقها - أعتقد أننى لن أعود كما كنت سابقاً.

- ها قد انتهى كل شئ - قال العبارة وهو يداعب بينان أصابعه البثور والندب التى فى وجهها - سوف أظل أحضر كل سبت وأكثر من ذلك إذا ما سمح لى المدير بهذا، وسوف ترين أن كل شئء سوف يكون على ما يرام.

حدجته بنظرة من عينيها الفزعتين، فحاول ساتورنو استخدام فنونه السحرية، فأخذ يقص عليها فى أسلوب صياني الأكاذيب الكبرى ورواية مخففة عن تشخيص الطبيب " وإيجازاً للقول " اختتم " لا زالت أمامك بعض الأيام حتى تستردى عافيتك تمامًا " عندئذ فهمت ماريا الحقيقة.

- بحق الله يا أرنبى ! قالتها بمرارة - لا تقل لى أنك أيضاً تظن أننى مجنونة!

- كيف يخطر لك هذا على البال ! قال ذلك وهو يحاول الابتسام - الأمر هو أنه من المناسب للجميع أن تظلى هنا بعض الوقت، وهذا يعنى أنك فى ظل ظروف أحسن بالطبع.

- لكنى أقول لك أننى جئت إلى هنا للاتصال بالتليفون - قالت ماريا.

لم يعرف كيف يكون رد فعله إزاء هذا الهوس المخيف، فنظر إلى هيريقلية، فانتهزت هى هذه النظرة لتشير إليه بساعتها أن زمن الزيارة قد انتهى. أدركت ماريا الإشارة فنظرت إلى الخلف

ورأت هيريقلية فى حالة استعداد لهجوم وشيك ، وعندئذ أمسكت بكل قوة برقبة الزوج وأخذت تصيح وكأنها مجنونة حقيقية ، فأبعدها عنه بكل حب قدر الإمكان وتركها تحت رحمة هيريقلية التى هاجمتها من الخلف ولم تدع لها فرصة ، كرد فعل ، حتى لوت ذراعها بيدها اليسرى وطوقت بيدها الحديدية الأخرى رقبتها وصاحت فى ساتورنو الساحر .

- اذهب من هنا !

هرب ساتورنو الساحر فرعاً .

كان قد استرد أنفاسه من الرعب الذى عاشه فى الزيارة السابقة ، فعاد يوم السبت التالى إلى المصحة وهو يحمل القط ، وقد ألبسه ثوباً مماثلاً لما يلبسه هو : زرد مكون من اللونين الأحمر والأصفر مثل الساحر الكبير ليوناردو والقبعة الطويلة كأنها الكأس وجاكتة عريضة الياقات فى الصدر وكأنها من أجل الطيران . دخل وهو يقود شاحنته الصغيرة حتى داخل الفناء ، وهناك قام بأداء الألعاب السخرية الطريفة واستمر فيها لمدة ثلاث ساعات وقد سعدت السجينات وهن فى الشرفات وأعربن عن سعادتهن بصيحات متنوعة وهتافات غير مناسبة - شهدن جميعهن العرض ما عدا ماريا " فلم ترفض فقط استقبال الزوج ، بل رفضت أن تراه من الشرفة ، شعر ساتورنو بأنه أصيب بطعنة قاتلة .

- إنه رد فعل تقليدى - قال المدير معزياً - وسوف يذهب عنها .

لكن رد الفعل لم يتغير أبداً، فبعد الكثير من المحاولات لرؤية ماريا وعمل المستحيل حتى تستقبل رسالة منه ذهبت جهوده سدى، فقد عادت إليه الرسائل أربع مرات وهى مغلقة ودون أى تعليق. تخلى ساتورنو عنه زياراته لكنه ظل يترك على بوابة المستشفى كمية من السجائر دون أن يعرف فيما إذا كانت تصل إلى ماريا أم لا، حتى هزمه الواقع.

لم يعرف عنه بعد ذلك أى شىء - باستثناء أنه تزوج بأخرى وعاد لبلده. وقبل أن يترك برشلونة ترك القط وهو شبه ميت من الجوع إلى خطيبة صدفه، وقد وعدت هذه الخطيبة بأن تظل على إرسال السجائر إلى ماريا، لكنها اختفت هى أيضاً. وتذكر "روسا ريجاس" أنها رأت فى محلات "الكورت إنجليز" هذه الخطيبة منذ حوالى اثنتى عشر عاماً وكان رأسها حليقاً، وترتدى معطفاً برتقالى اللون يتمى إلى إحدى الطوائف الشرقية. وكانت حاملاً فى شهرها الأخير. وقد قصت عليها بأنها ظلت ترسل بالسجائر إلى ماريا طالما سمحت لها الظروف. وكانت تتدخل فى حل بعض المسائل العاجلة المتعلقة بها حتى وجدت المستشفى وقد تحول إلى أنقاض. وكأنه ذكرى سيئة لتلك الأيام الكئيبة. بدت ماريا فى نظرها وقد اكتست بالحيوية فى آخر مرة

رأتها وقد زاد وزنها بعض الشيء وسعيدة بالسلام الذي يخيم على
الدير. ذهبت إليها في ذلك اليوم وهي تحمل القط وذلك لأن المال
الذي تركه لها ساتورنو من أجل إطعامه قد نفذ.

رحلة طيبة يا سيدى الرئيس

(١٩٧٩)

كان جالسًا على المقعد الخشبي تحت الأوراق الصفراء
للحديقة الخالية، يتأمل البجع الذى تعلوه طبقة من التراب، يضع
كلتا يديه على قمة العصا ذات المقبض المستدير والمكسو بالفضة
وهو يفكر فى الموت. فعندما جاء إلى جنيف لأول مرة كانت
البحيرة هادئة ورقراقة، كما كانت طيور النورس المستأنسة تقترب
لتنقر طعامها من الأكف. ونساء للإيجار كأنهن أشباح فى
السادسة مساء وهن يرتدين فساتين بها كرايش مصنوعة من قماش
من القطن الأبيض الشفاف ويضعن على رؤوسهن قبعات من
الحرير. أما الآن فالمرأة الوحيدة التى يمكن أن يراها على مرمى
البصر هى بائعة الزهور فى الميناء الصغير الخالى من البشر. لا
يكاد يصدق ما أحدثه الزمن من خراب ودمار ليس فقط فى حياته
بل فى الدنيا كلها.

كان مجرد فرد آخر من أفراد المدينة من هؤلاء المشاهير غير
المعروفين يرتدى حلة لونها كحلى بخطوط بيضاء، أما الصديرى
فكان من الديباج، كما كان يضع قبعة سمكة مثل تلك التى
يضعها القضاة المحالون للتقاعد، شاربه قوى وكث، أما شعره
فيميل إلى الزرقة وبه تموجات رومانسية ويداه كيدى عازف آلة

وترية، وفي بنصر اليد اليسرى، يضع خاتم الترميل وعينه تلمعان بالسعادة، أما الشيء الوحيد الذى لا يدل على حالته الصحية فهو ترهل الجلد، لكن رغم بلوغه الثالثة والسبعين من العمر كان لا يزال يتمتع بشياكة واضحة. ومع هذا ففي ذلك الصباح كان يشعر بتباعده عن كل ما يتفاخر به المرء. فها هى أعوام المجد والجاه قد ولت ولا مناص من ذلك ولم يتبق إلا أيام انتظار الموت.

عاد إلى جنيف بعد حربين عالميتين وذلك بحثاً عن علاج ناجح للألم لم يستطع الأطباء فى "مارتينيك" تحديد ماهيته. كان من المقرر أن يمكث خمسة عشر يوماً كحد أقصى، لكن ها هو يقضى سبعة أسابيع فى إجراء فحوصات مفضية تؤدى إلى نتائج غير مؤكدة، ولم تبد حتى الآن بارقة أمل فى إنهاؤها. الأطباء يتحدثون عن موطن الألم فى كل مكان، فى الكبد، وفى الكلية، وفى البنكرياس، والبروستاتا ولم يعثر على أثر، وظل على هذا الحال حتى ذلك الخميس الملعون حيث ضرب له واحد من الأطباء الذين يجرون له الفحوصات- وكان أقلهم شهرة - موعداً ليأتى فى التاسعة صباحاً إلى قسم الأعصاب.

المكتب يبدو كأنه مكان لتهجد الرهبان، والطبيب صغير الحجم ومتجهماً ويده اليمنى فى الجبس لكسر فى إبهامه. وعندما أطفأ النور ظهرت صورة الأشعة الخاصة بالعمود الفقرى لكنه لم يتعرف عليه ويدرك أن صورة الأشعة تخصه حتى أشار الطبيب بعصا يحدد بها التحام فقرتين فى المنطقة التى توجد تحت الوسط.

- مصدر ألمك ها هنا - قال له .

لم يكن الأمر سهلاً عليه، فقد كان الألم يتنقل من مكان إلى آخر، وأحياناً ما يبدو أن مصدره هو الأضلاع اليمنى، وأحياناً ينظر أسفل البطن، لكنه كثيراً ما يفاجئه بوخزة في الحوض. سمعه الطبيب وهو صامت، لكن العصا موضوعة على الشاشة بلا حراك "ولهذا فقد بحثنا عنه في كل مكان طوال فترة من الزمن" قال "لكننا الآن نعرف أنه هذا هو مصدر الألم" ثم وضع سبابته على الجزء العلوى من صدغه وقال:

- وبمفهوم دقيق ومحدد فكل ألم هو هنا يا سيدى الرئيس .

كان أسلوبه التشخيصى درامياً للغاية لدرجة أن ما قاله بدا رحيماً: فالرئيس لابد أن يجرى عملية جراحية خطيرة لا مناص منها، فسأل الطبيب عن حجم المخاطرة، فما كان من الطبيب العجوز إلا أن أغرقه بضوء القلق.

- لا يمكننا أن نحدده بوضوح - قال له .

وحتى وقت قريب، أوضح، كانت مخاطر وقوع مضاعفات جسيمة كبيرة، وخاصة إمكانية حدوث شلل بدرجات مختلفة. لكن التقدم العلمى فى الطب الناجم عن الحربين أدى إلى أن تكون هذه المخاوف تاريخاً مضى.

- كن هادئاً - استتج - استعد للأمر، وأبلغنا، لكن لا تنس أنه كلما عجلت كان ذلك مناسباً.

لم يكن صباحاً جيداً حتى يهضم هذا الخبر السيئ وخاصة في التقلبات الجوية، خرج مبكراً من الفندق ولم يترد المعطف، ذلك أنه رأى الشمس ساطعة من النافذة ثم ذهب بخطواته المعدودة ابتداء من "شيمين دى بوسولى" حيث المستشفى، متجهاً إلى المكان الذى يلجأ إليه العشاق فى الخفاء فى "الحديقة الإنجليزية"، أمضى فى هذا المكان أكثر من ساعة وهو يفكر فى الموت عندما بدأ الخريف. هاجت البحيرة كأنها المحيط وهبت رياح من كل مكان فأفزعت طيور النورس وأطاحت بما بقى من أوراق الشجر، نهض الرئيس وبدلاً من أن يشتري بعض الورود من البائعة قام بقطف زهرة الأقحوان من الأصوص العامة ووضعها فى فتحة الزرار الموجودة فى ياقة الجاكتة. فاجأته بائعة الزهور:

- هذه الزهور ليست مشاعاً يا سيدى - قالت له وهى غاضبة - إنها ملك البلدية.

لم يولها اهتماماً وأخذ يبتعد عنها بخطوات سريعة وهو يمسك عصاه من منتصفها وأحياناً ما يطوحها فى الهواء بلا إيقاع ثابت. وعلى كوبرى "مونت بلانك" كانوا يسارعون بإنزال الرايات الخاصة "بالاتحاد الكونفدرالى" وقد كانت تهتز بشدة من

أثر الرياح . أما النافورة الملساء والمليئة بالرغوة فقد أطفئت قبل الوقت المحدد لها . ولم يتعرف الرئيس على الكافيتريا التي تعود عليها والكائنة على الميناء ذلك أنهم قاموا بدفع القماش الأخضر للمظلة ، كما أغلقوا الشرفات المزدهرة . أما فى الصالون فقد أضيئت الأنوار رغم أننا فى وضوح النهار ، كما أن الرباعية الوترية كانت تعزف موزار محذراً . مد الرئيس يده على اللوحة الخشبية الحاملة وأخذ صحيفة من المكان المخصص للزبائن ، ثم قام بتعليق القبعة والعصا على الشماعة المخصصة ووضع نظارة القراءة ذات الشنبر الذهبى وجلس إلى المائدة الأكثر انعزالاً . وعندئذ أدرك فى هذه اللحظة مجيء الخريف . أخذ يتصفح الجرنان بادئاً بالصفحات المخصصة للأخبار العالمية ، وقلما كان يجد أخباراً عن أمريكا اللاتينية ، وواصل قراءته للصحيفة على عكس الترتيب المعتاد ، وظل على هذا الحال حتى جاءت إليه النادلة وهى تحمل له رجاجته اليومية من المياه ماركة "إيفيان" . كان قد أقلع عن عاداته بتناول القهوة منذ ثلاثين عاماً وذلك بناء على تعليمات الأطباء ، غير أنه قال : "إذا ما تأكدت من أننى سأموت بعد وقت محدد ، فإننى سأعود إلى تناول القهوة" ، وربما حانت هذه الساعة .

- أحضرى لى فنجان قهوة - قال هذه العبارة بلغة فرنسية سليمة ثم أكد : على الطريقة الإيطالية وكأنها قهوة لإحياء ميت - قالها دون أن يأخذ فى اعتباره ما تحمله العبارة من تورية .

تناول قهوته السادة، رويداً رويداً. وبعد ذلك قلب الفنجان فوق الطبق حتى تقوم رواسب القهوة بعد أعوام وأعوام بكتابة حظه في المستقبل. هذا المذاق الذى استعاده أخرجه ولو للحظة من أفكاره السوداوية. وبعد ذلك بلحظة، وكأنها جزء من التكهّن بالمستقبل، شعر بأن أحداً يتطلع إليه. وعندئذ قلب الصفحة فى حركة عفوية ونظر من فوق عدسات القراءة فرأى الرجل الشاحب وغير حليق الذقن وهو يضع قبعة رياضية ويرتدى جاكته فروشاه متموجة، وفى هذه اللحظة أبعد ذلك الرجل ناظره حتى لا تلتقى بعينه.

كان وجهاً مألوفاً، فقد رآه بشكل عابر فى ممرات المستشفى ثم عاد وراه فى يوم من الأيام السابقة وهو يركب دراجة بخارية صغيرة فى شارع "بروميناد دى لاك" بينما كان هو يتأمل البجع. لكنه لم يشعر أبداً أن أحداً تعرف عليه. إلا أنه لم يستبعد أن ما يحدث ليس إلا واحدة من الأوهام الكثيرة الخاصة بالملاحظات فى المنفى.

انتهى من قراءة الصحيفة دون عجلة من أمره وهو غارق فى المعزوفات "التشيلو" الرائعة لبراهامز إلى أن تغلب صوت الألم على المسكن الموسيقى، فتناول القرصين المسكين وهى جرعة منتصف النهار واستخدم فى ذلك آخر جرعة ماء كانت أمامه. وقبل أن يخلع نظارة القراءة ألقى نظرة على الفنجان ليقرأ طالعَه فشعر برعشة باردة : إذ كان الأمر مثيراً للحيرة.

وأخيراً دفع الحساب ومعه بقشيشاً ضئيلاً ثم أخذ عصاه وقبعته من الشماعة وخرج إلى الشارع دون أن ينظر إلى الرجل الذى كان يتطلع إليه: ابتعد عن المكان بخطوات فيها تبختر ماراً بأصص الزهور التى حطمتها الرياح وظن أنه تحرر من القيود. لكنه سرعان ما شعر بخطوات ورائه، فتوقف عند الناصية ونظر إلى الخلف. فما كان على الرجل الذى يتابعه إلا التوقف فجأة حتى لا يصطدم به ونظر إليه بدهشة وهو على بعد ضئيل جداً عن عينيه.

- سيدى الرئيس - قال بصوت خفيض.

- قل لمن يدفعون لك ألا تأخذهم الآمال بعيداً - قالها الرئيس دون أن يطرأ أى تغير على ابتسامته أو صوته - أنا أتمتع بصحة جيدة.

- لا أحد يعرف هذا أفضل منى - قالها الرجل وقد شعر بالخرج أمام هذا الشعور بالجدارة التى أمامه - إننى أعمل فى المستشفى.

كانت النغمة والعبارة والاستحياء تدل على أنه من أعماق منطقة الكاريبى.

- لن تقول لى أنك طبيب - قال له الرئيس.

- كم كنت أود ذلك يا سيدى - قال الرجل - أنا سائق سيارة إسعاف.

- أنا متأسف - قال الرئيس وهو على قناعة بخطئه - إنه عمل شاق.

- ليس بنفس درجة العمل الذي تقوم به يا سيدى.
نظر إليه بلا تحفظ واثكأ على عصاه بكلتا يديه وسأله
باهتمام حقيقى "

-من أين أنت؟

- من الكاريبى

- هذا ما تصورته - قال الرئيس - لكن من أى البلاد
أنت.

-من نفس بلدك يا سيدى - قال الرجل ومد يده مصافحاً
- أنا أدعى هومىرو رى

قاطعه الرئيس وهو يشعر بالمفاجأة ودون أن يسحب يده من
يد الرجل.

- عجباً - قال له - يا له من اسم طيب.

خف التوتر عن هومىرو.

- وهناك ما هو أكثر من ذلك أن اسمى بالكامل هو
"هومىرو رى دى لاكاسا"

هاجمتهما زوبعة شتوية فجأة وهما فى وسط الشارع . فـشعر الرئيس بقشعريرة تسرى فى جسده وتصل إلى العظام وأدرك أنه لا يمكنه مواصلة السير دون معطف، هذه المسافة القصيرة حتى المطعم الفقير حيث اعتاد تناول طعامه .

- هل تناولت طعام الغداء؟ سأل هوميرو .

- أنا لا أتناول طعام الغداء أبداً، قال هوميرو - إننى أتناول وجبة واحدة فى منزلى فى المساء .

- حاول أن تجعل هناك استثناء - قالها له بكل ما أوتى من عذوبة القول - أدعوك لتناول الغداء .

أخذه فى ذراعه وقاده إلى المطعم الكائن فى الناحية المقابلة "اسم المطعم مطبوع باللون الذهبى على السحابة القماشية : "لوبوف كورنييه" المطعم ضيق ودافئ، ولأول وهلة بدا أنه لا توجد أماكن خالية، شعر هوميرو ربى بالمفاجأة وهو أن أحداً لا يعرف الرئيس وواصل حتى نهاية المطعم طلباً للعون .

- هل الرئيس لا زال يمارس مهام منصبه؟ سألـه صاحب المطعم .

- لا - قال هوميرو - لقد أقصى من منصبه .

فكانت ابتسامة الموافقة من صاحب المطعم .

- لمثل هؤلاء هناك مائدة خاصة.

قادهما إلى مكان منعزل فى آخر الصالون حيث يمكن لها الدردشة بحرية، وشكر له الرئيس ذلك.

- هم نادرون هؤلاء الذين يعترفون بجدارة من هم فى المنفى مثلما فعلت.

كان المطعم متخصصاً فى طبق معين وهو لحم ضلع الثور المشوى على الفحم، نظر الرئيس ومدعوه حولهما فشاهدا قطع اللحم الكبيرة المشوية والمقدمة للزبائن على الموائد المجاورة. . "إنه طبق رائع" همهم الرئيس، لكنى ممنوع من تناول مثل هذا الطعام، ألقى نظرة مأكرة ومداعبة على هوميرو، وغير من لهجة الحديث.

- فى الحقيقة لقد منعت من كل شىء.

- أيضاً ممنوع عليك تناول القهوة - قال هوميرو - ومع ذلك تناولها.

- هل لاحظت ذلك؟ قال الرئيس - لكن كان هذا استثناء فى يوم خاص.

فالاستثناء الذى حدث ذلك اليوم لم يكن فى موضوع القهوة فقط، بل طلب الرئيس طبق لحم الثور المشوى على الفحم

وسلاطة بقوليات طازجة دون أى متبيلات اللهم إلا بعضاً من زيت الزيتون. وطلب المدعو نفس الشيء وأضاف إليه نصف لتر من النبيذ الأحمر. وبينما هما فى انتظار الطعام أخرج هوميرو من جيب سترته حافظة أوراق ليس بها نقود وإنما مليئة بالأوراق، وأبرز للرئيس صورة ذهببت ألوانها، لقد تعرف الرئيس على صورته حيث كان يرتدى قميصاً، وكان وزنه أقل، كما كان شعره وشاربه فاحمى السواد، يقف وسط مجموعة من الشبان تصارعوا على الظهور فى الصورة. تعرف على المكان من أول نظرة وتعرف أيضاً على الشعارات الخاصة بحملة انتخابية مملة، وكذلك تذكر التاريخ المقيت لها " يا للهول! " همهم، لقد قلت دوماً إن الإنسان يعتريه التقدم فى السن فى الصورة أكثر منها فى الواقع. وأعاد إليه الصورة بإيماءة تشير إلى النهاية.

- إننى أتذكر ذلك جيداً - قال - كانت هذه الصورة فى مباراة مصارعة الديكة ببلدة "سان كريستوبال دى لاس كاساس" منذ آلاف السنين.

- إنها قرىتى - قال هوميرو وأشار لنفسه كواحد من الذين فى الصورة - هنا هو أنا.

تعرف عليه الرئيس.

- كنت صغير السن!

- نعم - قال هوميرو - لقد رافقت سيادتك طوال الحملة الانتخابية في الجنوب بصفتي زعيم اللجان الطلابية .
حاول الرئيس أن يسبق التأييب .
- أنا بالطبع لم أمعن النظر جيداً فيك - قال .
- على العكس من ذلك كنت لطيفاً معنا جداً - قال هوميرو - لكن كان عددنا كثيراً لدرجة يصعب على المرء تذكر كل هؤلاء .

- وبعد ذلك؟

- من يعرف هذا أكثر منك يا سيدى - قال هوميرو - فبعد الانقلاب العسكرى أجد أنه من المعجزات أن يكون كلانا هنا ونحن على وشك تناول نصف ثور . هناك الكثيرون الذين لم يحالفهم نفس الحظ .

وفى هذه اللحظة قُدمت لهم الأطباق . قام الرئيس بوضع الفوطة على رقبته كأنها فوطة لطفل ، ولم يكن غير معنى بالصمت المفاجئ الذى حدث لدعوه . "إذا لم أفعل هذا سوف أخسر رابطة عنق فى كل وجبة أتناولها" قال - وقبل أن يبدأ تذوق درجة الشواء وأعلن موافقته بإشارة تعبر عن تلذذه . ثم عاد لنفس الموضوع .

- الأمر الذى لا أفهمه - قال - هو لماذا لم تقترب منى قبل ذلك بدلاً من السير ورائى بهذا الشكل؟

عند ذلك قص عليه هوميرو أنه تعرف عليه منذ أن رآه وهو يدخل المستشفى عبر باب مخصص للحالات الشديدة الخصوصية. كان الوقت صيفاً وكان يرتدى حلة كاملة من كتان الكاريبى الأبيض ويلبس حذاءً ذا لونين - الأبيض والأسود - وزهرة البنفسج الحمراء فى فتحة الزرار على صدر الجاكّة والشعر الجميل يداعبه الهواء. تأكد هوميرو من أنه وحده فى جنيف ولا يساعده أحد، فقد كان يعرف بذاكرته المدينة التى درس فيها القانون. وبناء على طلبه اتخذت المستشفى الإجراءات الداخلية الأمنية للمحافظة على سرية الموضوع بشكل مطلق. وفى نفس تلك الليلة كان هوميرو قد اتفق مع زوجته لإجراء اتصال معه. ومع ذلك فقد ظل يتابعه خمسة أسابيع متوالية محاولاً البحث عن الفرصة السانحة وربما لم يكن ليتمكن من تحيته لو لم يواجهه الرئيس.

- أنا سعيد بما فعلته - قال الرئيس - رغم أنه لا ينتابنى أى ضيق لأننى وحدى هنا.

- ليس من العدل.

- لماذا؟ - سأل الرئيس بصراحة - إن أكبر نصر فى حياتى هو أننى تمكنت من جعلهم ينسونى.

- إننا نذكرك يا سيدى أكثر مما تتصور - قال هوميرو دون
أن يخفى تأثره - إنه لمصدر سعادة لى أن أراك معافى ومليئاً
بالحيوية .

- ومع ذلك - قال دون درامية - فكل شىء يشير إلى أننى
سأموت قريباً .

- إن احتمالات نجاح العملية عالية - قال هوميرو .

صدرت عن الرئيس قفزة مفاجأة لكن لم يفقد خفة روحه .
- عجباً ! - صاح مستغرباً- هل لم تعد هناك أسرار طبية
فى سويسرا الجميلة؟

- لا توجد أسرار تخفى على سائق سيارة إسعاف فى أى
مستشفى فى العالم - قال هوميرو .

- إن ما أعرفه عن حالتى لم يمض عليه إلا ساعتين ومن
خلال الرجل الوحيد الذى يجب أن يعرف السر .

- على أى الأحوال لن تموت سيادتك بلا جدوى - قال
هوميرو - فسوف يقوم أحد ما بوضع سيادتك فى المكانة التى
تليق وهى النموذج الحى للجدارة .

أظهر الرئيس نوعاً من الاستغراب الكوميدى .
- شكراً لتحذيرك - قال .

كان يأكل بنفس الطريقة التى يؤدى بها كافة أنشطته: ببطء ودقة، وفى نفس الوقت كان ينظر إلى هوميرو محدقاً فى عينيه حتى إن هذا الأخير واثاه إحساس بأن الرئيس يرى ما يفكر فيه، وبعد جدال طويل وتطرق للأيام الخوالى ابتسم ابتسامه فيها دهاء. -لقد قررت ألا أقلق على جثتى - قال - لكننى أرى الآن أن على اتخاذ بعض التدابير على طريقة القصص البوليسية حتى لا يجد الجثة أحد.

- سيكون ذلك غير مجد - قال هوميرو بفكاهة - الألغاز فى المستشفى لا تستمر أكثر من ساعة.

عندما انتهيا من تناول القهوة قام الرئيس بقراءة قاع الفنجان وعادت له القشعريرة: إذ كانت نفس الرسالة السابقة. ومع ذلك لم يطرأ أى تغيير على تعبيرات وجهه. دفع الحساب نقداً لكنه قام بالتأكد من صحة المبلغ أكثر من مرة وباهتمام زائد عن الحد، وترك بقشيشاً كان زدل النادل عليها هو الغمغمة.

- أنا بالطبع لم أمعن النظر جيداً فيك - قال.

- سررت بمعرفتك - قال الرئيس وهو يودع هوميرو - ليس هناك تاريخ لإجراء العملية كما أننى لم أقرر بعد إجرائها أم لا. لكن إذا ما كانت الأمور مواتية فسوف نلتقى من جديد.

- ولماذا لا يكون قبل ذلك؟ قال هوميرو - إن روجتى "لائارا" طباحة الأغنياء، فلا أحد مثلها يستطيع إعداد طبق الأرز

بالجمبرى ويطيب لنا أن ندعوك إلى المنزل فى إحدى الليالى القادمة .

- إن الرخويات ممنوعة بالنسبة لى لكنى سأكل ذلك الطبق بكل سرور - قال - قل لى متى؟

- إن يوم الخميس هو اليوم الذى لا أعمل فيه - قال هوميرو .

- تمام - قال الرئيس - إذن يوم الخميس فى السابعة مساء سوف أكون فى منزلك، وسوف يكون هذا مصدر سعادتى .

- سوف أمر لأخذك يا سيدى - قال هوميرو - العنوان هو فندق "دام" ١٤ شارع إندوستريا - خلف المحطة - هل هذا صحيح؟

- نعم - قال الرئيس ونهض وهو يشعر بمرض عن أى وقت مضى - على ما يبدو تعرف كل شىء حتى مقاس حذائى .

- نعم يا سيدى - قال هوميرو بمرح - المقاس هو ٤١

* * *

إن ما لم يقم هوميرو ربي بسرده على الرئيس، لكنه ظل يقصه طوال أعوام طويلة لكل من أراد أن يستمع إليه هو أن هدفه الأول لم يكن بريئًا للغاية، فهو مثل غيره من سائقى سيارات الإسعاف له اتصالاته مع شركات التجهيزات الجنائزية وشركات

التأمين لبيع بعض الخدمات داخل المستشفى وخاصة بالنسبة للمرضى الأجانب من ذوى الموارد الضئيلة. كانت مبالغ ضئيلة وفوق ذلك كان عليه أن يقوم بتوزيعها بين بعض الموظفين وخاصة هؤلاء الذين يتولون التقارير السرية بشأن المرضى من ذوى الحالات الحرجة. لكنه مبلغ يعتبر عزاء لطريد لا مستقبل له ويحاول العيش ما أمكنه هو وزوجته وطفليه بمرتب بسيط جداً.

كانت لاثارا دافيس - زوجته - أكثر واقعية إذ كانت مولدة من سان خوان فى يويرتوريكو. قصيرة وممتلئة لون بشرتها مثل لون الكرملة فى حالة ترسب. لها عينا كلبة جريئة، كانتا تتسقان اتساقاً طيباً مع طبيعتها. تعرفت على زوجها فى قسم خدمة المرضى المعوزين فى المستشفى حيث كانت تعمل كمساعدة فى الشؤون العامة وذلك بعد أن أتى بها أحد أصحاب الأموال من بلادها للعمل كمربية وبعد ذلك تركها رهن الظروف فى جنيف، تزوجا على الطريقة الكاثوليكية، ورغم أنها كانت أميرة فى بلادها كانا يعيشان فى منزل مكون من صالة وحجرتى نوم فى الطابق الثامن وهو مبنى مخصص للمهاجرين الأفارقة ليس به مصعد، لها ابنة تبلغ التاسعة من العمر اسمها باربارا وطفل فى السابعة يدعى "لاثارو"، تظهر عليه الأعراض الطفيفة للتخلف العقلى.

لاثارا دافيس امرأة ذكية، سيئة الطبع لكنها ذات قلب طيب. كانت تعتبر نفسها المثال الصادق لمواليد برج الثور. إيمانها

مطلق بالتنبؤات . ومع ذلك لم تحقق حلمها بكسب لقمة العيش من خلال عملها كقارئة للطالع لأصحاب الملايين ، ورغم هذا تسهم فى ميزانية المنزل ببعض الأموال التى تأتىها عرضاً ، وأحياناً ما تكون مبالغ جيدة . كان ذلك من خلال إعدادها موائد العشاء لبعض السيدات الغنيات اللاتى يتباهين أمام المدعوين متظاهرات بأنهن أعددن هذه الأطباق الخاصة بمنطقة الكاريبى ، أما هوميرو فهو إنسان خجول للغاية ولم يستطع أن يفعل أكثر مما يقدمه ، إلا أن زوجته لم تتصور الحياة بدونه ، وذلك لطهارة قلبه وذكورته - سارت أحوالهما فى البداية بشكل جيد ، لكن بدأت تسوء الأمور شيئاً فشيئاً بينما الأطفال فى نمو مستمر . وبالتالى فإن هوميرو عندما اكتشف وجود الرئيس بين المرضى المهمين فى المستشفى أخذت تحدوه آمال تتجاوز المعقول .

لم يتأكدا تماماً مما سيطلبانه منه ، وبأى حق سيفعلان ذلك . فكرا فى البداية أن يبيعا له إتمام إجراءات الجنازة بالكامل بما فى ذلك التحنيط وإعادة الجثة إلى الوطن . لكنهما أخذا يعيان شيئاً فشيئاً بأن الموت لا يبدو وشيكاً مثلما تصورا فى البداية . كان الشك يأكلهما من الداخل يوم تناول طعام الغداء .

الحقيقة أن هوميرو لم يكن أبداً زعيماً للألوية الجامعية ، أو أى شىء من هذا القبيل ، وفى المرة الوحيدة التى شارك فيها فى الحملة الانتخابية كانت لحظة التقاط الصورة ، التى عثر عليها فيما يشبه المعجزة وسط الملابس . والشىء الحقيقى الوحيد كان حماسه

لدرجة أجبر معها على الفرار من البلاد لمشاركته فى المقاومة الجماهيرية للانقلاب العسكرى، إلا أن السبب الوحيد الذى جعله يواصل العيش فى جنيف بعد مرور أعوام طويلة هو فقره الروحى. وعلى ذلك فإذا ما كذب كذبة أخرى لن تتغير الأمور، فالهدف هو الفوز بكرم الرئيس.

كانت أول مفاجأة لكليهما هو أن الطريد الشهير يعيش فى فندق من الدرجة الرابعة فى الحى الفقير "لاجروت" محاطاً بالمهاجرين الآسيويين وفتيات الليل. وكان يأكل وحده فى مطاعم الفقراء فى الوقت الذى نجد فيه جنيف مليئة بالمساكن الفخمة التى تليق بالسياسيين المتقاعدين. شاهدته هوميرو وهو يكرر ما فعله ذلك اليوم خلال الأيام السابقة. فقد رافقه ببصره وأحياناً ما كان قريباً منه بدرجة تزيد عن التصرف الحكيم سواء فى نزهاته الليلية بين الحيطان الكثيفة وأصص النباتات الصفراء اللون فى المدينة العتيقة. رآه وهو مستغرق فى التفكير أمام تمثال "كالفيانو"، وصعد خلفه، خطوة بخطوة، ذلك السلم الحجرى الذى تملؤه رائحة الياسمين الخائفة، وذلك ليتأمل لحظات الغروب البطيئة من على قمة "بورج لوفور" رآه ذات ليلة وهو تحت أول قطرات المطر دون معطف وشمسية تقيه ضمن طابور من الطلاب ليشاهد حفلاً موسيقياً "لروبينتين" "لست أدري كيف لم يصب بالبرد" قال هذه العبارة لزوجته. وعندما بدأت أحوال الطقس تتغير يوم

السبت الماضى رآه وهو يشتري معطفاً له رقبة من جلد " الفيزون " الصناعى ولم يشتر المعطف من المحلات ذات فترينات العرض الكائنة فى شارع/ رون حيث المكان المعتاد الذى يقوم الأمراء الهاربون بشراء احتياجاتهم منه، بل اشتراه من " سوق لاس بولجاس " .

-إذن ليس هناك ما يمكن عمله - قالت لاثارا متعجبة عندما قص عليها هوميرو ذلك - إنه بخيل بخلاً رهيباً وهو قادر على قبول دفنه فى مقبرة خيرية جماعية . ولن نخرج منه بشيء .
- ربما كان فقيراً بالفعل - قال هوميرو - بعد أن قضى أعواماً طويلة دون عمل .

- آه، أيها الأسود، هناك فرق بين أن تكون من برج الحوت الأصيل وبين أن تكون جباناً - قالت لاثارا - فكل الناس يعرفون أنه استولى على ذهب الحكومة وأنه الطريد الأكثر غنى فى مارتينيك .

كان هوميرو الذى يكبر زوجته بعشرة أعوام قد ترعرع وهو يعيش تحت تأثير المقولة التى تتحدث عن أن الرئيس درس فى جنيف وكان أثناء الدراسة عامل بناء، أما لاثارا فقد تربت على الفضائح التى تنشرها الصحافة المعادية والتى تضخم منها الحوارات فى منازل الأسر التى تتهيج سياسة معادية له . وكانت على هذا

الحال منذ نعومة أظافرها، تقوم بتربية الأطفال، لذلك فإن هوميرو عندما جاء متهللاً لتناول طعام الغداء مع الرئيس لم تقتنع زوجته بأنه تناول الغداء في مطعم مرتفع المستوى. فقد ضايقها أن هوميرو لم يطلب من الرئيس شيئاً مما كان يحلم هو به مثل الحصول على منحة دراسية لولديه، أو الحصول على وظيفة أفضل في المستشفى. وبدا في نظرها أن ما حدث إنما يؤكد شكوكها في أن الرئيس يفضل أن يلقوا بجثته إلى النسر بدلاً من إنفاق الفرنكات على إجراءات جنازية لائقة وعودة كريمة إلى أرض الوطن. وما زاد الطين بله هو الخبر الذي فضل هوميرو أن يطرقه في النهاية والمتمثل في دعوته للرئيس لتناول الأرز بالجمبرى مساء الخميس في المنزل.

- هذا ما كان ينقصنا - صاحت لاثارا - وهو أن يموت هنا بالتسمم من جراء تناوله الجمبرى المحفوظ ويكون من المحتم علينا أن ندفنه وندفع في سبيل هذا مدخرات الأطفال.

كان وفاؤها كزوجة هو العنصر الأساسي الذي حسم الموقف، فقد طلبت من إحدى جاراتها ثلاثة أطقم مائدة من المعدن المطفى، وطبقاً للسلطة مصنوعاً من الزجاج. وطلبت من جارة أخرى ماكينة القهوة الكهربائية، ومن ثلاثة مفرشاً مطرزاً وطقم صيني لتناول القهوة، كما قامت بتغيير الستائر القديمة ووضعت الجديدة مكانها، وانتزعت الكسوة من على قطع

الأثاث، وأمضت يوماً كاملاً وهي تنظف البلاد وتزيل الأتربة وتغير أماكن محتويات المنزل، ووصل بها الأمر إلى نتائج عكسية إذ كان من الأولى بها إثارة استعطاف الضيف بديكور الفقر.

وفى مساء الخميس صعد الرئيس الأدوار الثمانية، وبعد أن استرد أنفاسه توجه إلى الباب وهو يرتدى المعطف الجديد القديم والقبعة ذات اللون المائل للخضرة التي تنسب إلى أزمنة مضت، يحمل في يده زهرة واحدة ليقدمها إلى لاثارا. تأثرت هي كثيراً بوسامته كرجل وتصرفاته كأمر، أضف إلى ما سبق أنها رآته على نفس الحال الذي تصورته، أى مزيقاً وانتهازياً. بدا لها قليل الحياء، فقد كانت تطهو الطعام فى المطبخ والنوافذ مفتوحة حتى لا يملأ بخار طهى الجمبرى جو المنزل، وكان أول شيء فعله عند الدخول هو أن أخذ شهيقاً عميقاً وكأنه فى حالة انتعاش مفاجئة وصاح متعجباً وهو مغمض العينين ويفرد ذراعيه: "آه، إنها رائحة بحرنا" بدا لها أكثر بخلاً مما تصورت ذلك أنه أتى لها بوردة واحدة سرقها - بلا شك - من الحقائق العامة. وبدا لها أنه سليط وذلك لنظرته التي تحمل معنى الاحتقار لقصاصات الصحف التي تتحدث عن مآثره عندما كان رئيساً وكذا رموز وأعلام الحملة الانتخابية التي قام هوميرو بتثبيتها على حوائط المنزل بروح تعكس طيبة القلب. بدا لها أنه غليظ القلب فهو لم يقم بتحية لاثارو أو أخته بربارا رغم أنهما قاما بشراء هدية له، كما أنه أثناء تناول

طعام العشاء تحدث فى موضوعين لا يمكن لها تحملها: الكلاب والأطفال . كرهته، ورغم ذلك تغلبت عليها طبيعة أهل الكاريبى فى إظهار الاحترام والود، وها هى قد لبست الحذاء الأفريقى المعتاد فى ليالى الفرح، كما لبست الأساور والأطواق التى تحمل صور القديسين، ولم تفعل أو تتلفظ بكلمة واحدة تزيد عن الحد طوال العشاء، كانت فى وضع لا تلام فيه على شىء: تصرفت تصرفاً سليماً.

والواقع أن طبق الأرز بالجمبرى ليس من الأطباق التى تحسن إعدادها، لكنها أعدته بكل ما تملك من استعداد، وكان طبقاً جيداً جداً، فلقد تناول الرئيس أكثر من طبق، وبالف فى الإطراء على الطعام وأعجبته شرائح الموز المقلية وكذا سلاطة الأفوكاتو. إلا أنه لم يتفق معها فى الحديث عن الأيام الخوالى. تحملت لاثارا الاستماع لحديثه حتى حان موعد تقديم الحلو وذلك عندما دخل هوميرو فى حارة مسدودة - دون أن يكون هناك مبرر- تتعلق بوجود الله.

- نعم أنا أؤمن بالله - قال الرئيس - لكن هذا ليس له صلة بالبشر- فدائرة اهتمامه أكبر من ذلك.

-أنا أؤمن فقط بالفلك - قالت لاثارا وحاولت جس نبض رد فعل الرئيس - فى أى يوم ولدت سيادتك؟

- الحادى عشر من شهر مارس.

- لابد أن يكون ذلك اليوم - قالت لاثارا بقفزة فيها انتصار
وسألت بتؤدة- ألن يكون هناك تجاوز عندما يجلس اثنان من برج
الحوت على نفس المائدة؟

ظل الرجال يتحدثون عن الله عندما دخلت المطبخ لتعد
القهوة، قامت برفع أواني الطعام وكانت شديدة الأمل فى أن
تنتهى الليلة على خير، وعندما عادت إلى الصالة وهى تحمل
القهوة سمعت عبارة نطق بها الرئيس جعلتها تشعر بالحيرة.

- لا يخالك شك فى هذا يا صديقى العزيز: إن أسوء
شئ كان يمكن أن تمر به بلادنا هو أن أكون أنا رئيسًا.

. رأى هوميرو لاثارا وهى على الباب تحمل فناجين الصينى
وماكينة القهوة التى استعارتها من الجيران، فظن أنها على وشك
السقوط لفقدانها التوازن. كما حدث فيها الرئيس أيضًا " لا
تنظرى إلى بهذا الشكل يا سيدتى " قال العبارة بنغمة مرحة "إننى
أتحدث من قلبى " ثم توجه إلى هوميرو قائلاً:

- الحمد لله أننى أدفع سعرًا عاليًا لتهورى.

قامت لاثارا بصب القهوة وأطفأت اللبنة المضاءة فى وسط
المائدة ذلك أنها كانت تشكل عائقًا بضوئها لمواصلة الحوار،
فاكتست الصالة بضوء ضعيف حميم. ولأول مرة تبدى اهتمامها
بالضيف الذى لم تغط خفة روحه على حزنه. فزاد فضول لاثارا

عندما انتهى من تناول القهوة وقلب الفنجان فوق الطبق ليقرأ طالعه .

قص الرئيس عليها بعد تناول العشاء أنه اختار جزيرة مارتينكا لتكون ملاذًا له وذلك لصداقته للشاعر/ حاييم قيصر الذى نشر مؤخرًا " كراسة العودة إلى مسقط الرأس " وساعده على أن يبدأ حياة جديدة، ثم قام هو وزوجته باستخدام ما بقى لهما من مال ورثته زوجته واشتريا منزلاً مصنوعاً من الأخشاب الجيدة فى تلال "فورت دى فرانس" تغطى نوافذه شباك معدنية وله شرفة تطل على البحر وقد امتلأت بالزهور البرية حيث كان النوم وسط صوت الحشرات الليلية والنسمة المحملة برائحة العسل والرون المصنوع من قصب السكر الذى يبيعه الجائلون نوعاً من المتعة . وظل هناك هو وزوجته التى تكبره بأربعة عشر عاماً والتى أخذت تعاني من المرض منذ ولادتها الوحيدة . وقد تحصن ضد الزمن بقراءة شغوفة ومتكررة للكلاسيكيين من اللاتين باللغة اللاتينية وكان على قناعة بأن ما يفعله هو آخر مرحلة فى حياته، وظل لأعوام طويلة يقاوم الإغراءات فى القيام بمغامرات يوحى له بها زملاؤه المهزومون .

- لكنى لم أفض أى رسالة - قال - وذلك بعد أن اكتشفت أن أكثر الرسائل استعجالاً كانت لا تستحق ذلك فى الحقيقة - بعد مرور أسبوع وأنه بعد مرور شهرين لم يعد ذلك الذى أرسلها يتذكر فحواها أو أنه حررها .

نظر إلى لاثارا وهى تشعل سيجارتها وسحبها بسرعة من بين أصابعها وأخذها ثم حبس الدخان فى حلقه. شعرت لاثارا بالمفاجأة فأخذت العلبة والكبريت لتشعل سيجارة أخرى، لكنه أعاد السيجارة المشتعلة إليها، "دخنى سيادتك بكل راحة، الأمر هو أننى لم أستطع المقاومة" قال لها، لكن سرعان ما أخرج الدخان من فمه فقد كان على وشك التعرض للكحة.

- لقد أقلعت عن هذه العادة منذ سنوات عديدة، لكنها لم تقلع عنى بالكامل - قال - فقد استطاعت هزيمتى فى بعض الأحيان، مثلما هو الحال الآن.

هاجمته الكحة مرتين. ها هو الألم قد عاد، نظر الرئيس فى ساعة الجيب وتناول القرصين ثم نظر إلى قاع الفنجان: لم تتغير الأمور، لكنه لم يشعر هذه المرة بالقشعريرة.

- هناك بعض من أنصارى تولوا الرئاسة من بعدى - قال.
- إنه "ساياغو" قال هوميرو.

- هو وغيره - قال الرئيس - وكلهم مثلى : قمنا باغتصاب شرف لا نستحقه بأن مارسنا مهنة ولم نكن ندرى ماذا نفعل فيها. فهناك البعض الذين يريدون السلطة لكن أغلبهم يبحثون عما هو أقل من ذلك وهو الوظيفة.

شعرت لاثارا بالغىظ.

- هل تعرف سيادتك ما يقولونه عنك؟ سألته.

شعر هوميرو بالخرج فتدخل

- إنها أكاذيب .

- هي أكاذيب وليست كذلك - قال الرئيس بهدوء سماوى
- فإذا ما كان الموضوع هو الرئيس فإن أسوأ شيء يمكن أن يتمثل
فى اجتماع النقيضين: الكذب والصدق .

كان قد عاش فى مارتينيك كل أيام المنفى ولم يكن له أى
صلة بالعالم الخارجى إلا من خلال الصحيفة المحلية الرسمية،
وأخذ يعيش من عائد مادى يحصل عليه من دروس بالأسبانية
واللاتينية فى مدرسة رسمية، وكذلك من خلال الترجمات التى
كان يكلفه بها حايم قيصر .

الحر لا يحتمل فى أغسطس، يظل فى السرير حتى منتصف
النهار وهو يقرأ تحت المروحة الكائنة فى غرفة النوم. أما زوجته
فكانت تعنى بالعصافير التى كانت تربىها وهى طليقة. ورغم ذلك
فعندما تشتد وطأة الحر تحمى نفسها باستخدام قبعة من القش ذات
أجناب عريضة تزينها الفواكه الصناعية والزهور الحمراء. وعندما
تنكسر موجة الحر كان من المناسب الترويح عن النفس بالجلوس
فى الشرفة. كان يحملق دائماً فى البحر حتى يغرق فى الظلام،
أما هى فكانت على سريرها المعلق المصنوع من الخيزران وتضع
على رأسها قبعة مهلهلة، كما تضع الإكسسوارات فى كل

أصابها، وتتأمل السفن المارة " هذه السفينة ذاهبة لترسو فى ميناء بويرتوسانتو " كانت تقول، " وهذه الأخرى لا تستطيع مواصلة الإبحار لثقل حمولتها من الغينيين من أهالى " بويرتوسانتو " تقول: الأمر أن كل السفن التى تعبر كانت، فى نظرها، من بلادها. أما هو فقد كان يتصنع عدم القدرة على الاستماع، ورغم ذلك استطاعت أن تنسى وتكون فى وضع أفضل منه إذ فقدت ذاكرتها فى النهاية.

كانا على هذا الحال حتى مغيب الشمس ثم يدخلان الدار وقد أصابهما الإعياء بسبب طنين الناموس. وأثناء ليلة من ليالى شهر أغسطس وبينما كان يقرأ الصحيفة فى الشرفة قفز الرئيس قفزة استغراب.

- عجبًا - قال - لقد واثنى المنية فى استوريل.

فزعت زوجته للنبا وهى جالسة تخفف عن نفسها وطأة الحر. ورد النبا فى ستة سطور على الصفحة الخامسة من الصحيفة التى تطبع على الناصية المجاورة. كما كان ينشر فيها ترجماته. وفوق هذا كان رئيس تحريرها يتردد عليه لزيارته بين الحين والآخر. والآن يقول النبا أننى توفيت فى مدينة استوريل لشبونة، المكان الذى يرتاده الطاعنون فى السن فى أوروبا للاصطياف، كما أنه لم يزر هذا المكان وربما كان المكان الوحيد فى العالم الذى لا

يرغب أن يموت فيه . وبالفعل توفيت الزوجة بعد عام من هذا التاريخ ، وكانت فى أيامها الأخيرة تعيش حالة هوس تتمثل فى الابن الوحيد الذى كان قد شارك فى الإطاحة بوالده وقام شركاؤه بإطلاق النار عليه بعد ذلك .

تنهد الرئيس : " هكذا نحن ولا شىء يمكن أن يغيرنا " قال " إنها قارة مليئة بـ بحثالة الدنيا كلها وليس فيها لحظة حب : إنهم أبناء الاختطاف والاعتصاب والمعاملة الدنيئة والخداع والأعداء مع الأعداء " ثم نظر إلى عيني لاثارا الأفريقيتين ، حيث كانت تتفحصه بلا رحمة وحاول تهدئتها بوسائله وهو العجوز المحترف .

- إن كلمة المهجن تعنى خلط الدموع مع الدم الذى يجرى ، فما الذى يمكن أن نأمله من هذا الكوكبيل الكريه ؟

تركته لاثارا جامداً فى مكانه ، وذلك بصمت القبور الذى أصبحت عليه . لكنها استطاعت أن تتحامل على نفسها قبل منتصف الليل بقليل وودعته بقبلة رسمية . عارض الرئيس أن يقوم هوميرو بمرافقته إلى الفندق ، لكنه لم يحل دون مساعدته له فى الحصول على تاكسى . وعندما عاد هوميرو إلى المنزل وجد امرأته فى شدة الغيظ .

- إن هذا هو أفضل رئيس تمت الإطاحة به فى العالم - قالت - إنه ابن قحبة .

ورغم ما بذله هوميرو من جهد لتهدئتها ظلاً الليل بطوله دون نوم، اعترفت لاثارا أنه واحد من أجمل الرجال الذين رأتهم ولديه قدرة هائلة على المغازلة وفحولة واضحة "إذا كان هذا هو ما عليه من الشيوخوخة وسوء الأحوال فلا بد وأنه أسد فى السرير" قالت لكنها كانت تظن أن هذه العطايا الإلهية لن يساء استخدامها بأن تكون غطاءً مظهرياً.

لم تتحمل هوسه بأنه كان أسوأ رئيس لبلده - ولم تتحمل تظاهره بالورع، بل كانت على يقين بأنه يملك نصف ما على ظهر مارتينيك. لم تتحمل أيضاً نفاقه فى تحقيره للسلطة، وكان واضحاً عندها أنه على استعداد للتضحية بكل شىء ليعود للرئاسة ولو للحظة، وذلك حتى يجعل أعداءه يلحسون التراب.

- كل هذا - اختتمت عبارتها - من أجل أن يرانا راكعين على قدميه.

- ما الذى يمكن أن يجنيه من وراء هذا؟ قال هوميرو.

- لا شىء - قالت - كل ما فى الأمر هو أن الدلال خصلة لا ترتوى أبداً.

كان غيظها شديداً لدرجة أن هوميرو لم يتحملها فى السرير معه، فذهب ليقضى ما تبقى من الليل على كنبه فى الصالة وهو يلتحف البطانية. نهضت لاثارا هى أيضاً عند الفجر، وكانت عارية تماماً كما هى عاداتها فى النوم عندما تكون فى المنزل.

أخذت تتحدث مع نفسها . وفى لحظة محت من ذاكرتها ومن ذاكرة الإنسانية كل ما يتعلق بذلك العشاء غير المرغوب فيه . فأعادت الأشياء المستعارة إلى جاراتها . وغيرت الستائر الجديدة وعادت لوضع القديمة ، ووضعت قطع الأثاث فى مكانها حتى أصبح المنزل على حالة الفقر والبساطة - كما كان قبل الليلة السابقة ، وأخيراً انتزعت القصاصات الصحفية والصور والمرايات والرموز الخاصة بالحملة الانتخابية البغيضة - وألقت بكل شئ فى سلة الزبالة - وهى تصيح :

- إلى الجحيم .

بعد أسبوع من دعوة العشاء وجد هوميرو الرئيس وهو ينتظره عند مدخل المستشفى رجاه أن يرافقه إلى الفندق . صعدا الأدوار الثلاثة حتى وصلا إلى فراغ عليه قبة تفصل المبنى عن السماء الملبدة ، كما يمر من تحت هذه القبة جبل غسيل عليه بعض الملابس .

كان هناك أيضاً سرير كبير يشغل نصف المساحة الخالية ، وكرسیاً بسيطاً وإبريقاً لغسل الأيدي ، وحوضاً صغيراً متنقلاً لغسل الأرجل ، وكذلك دولاباً متواضعاً به مرآة قديمة ، لاحظ الرئيس ما على وجه هوميرو من انطباع .

- إنه نفس المكان الذى عشت فيه سنوات دراستى - قال هذه العبارة وكأنه يعتذر - وقد احتفظت به منذ "فورت دى فرانس" .

أخرج شنطة من القטיפه وفرش على السرير آخر ما معه من موارد: عدة أساور ذهبية مطعمة بعضها بالأحجار الثمينه، وعقدًا من اللؤلؤ بثلاث أفرع، وعقدان آخران من الذهب والأحجار الثمينه، وثلاثة سلاسل ذهبية معلق بها ميداليات تحمل صور القديسين، وزوج من الحلقات الذهبية المطعمة بالزمرد، وزوج آخر من الماس وثالث من الياقوت الأحمر، وقطعتان من القطع الأثرية وعلبة من المعادن الثمينه لحفظ خصلات الشعر، وإحدى عشرة قطعة حلى بها أنواع مختلفه من المعادن الثمينه. وكذا تاج من البرلنت لابد وأنه كان للملكه. وأخرج بعد ذلك عليه علبه أخرى بها ثلاثة أزواج من الأزرار المصنوعة من الفضة وزوجين آخرين من الذهب ولكل واحد منها المشبك الخاص برابطة العنق، وساعة جيب مطلية بالذهب الأبيض. وأخيراً أخرج من صندوق للأحذية النياشين الستة التى حصل عليها: اثنين من الذهب وآخر من الفضة، أما الأخرى فهى من المعادن العادية.

- هذا كل ما تبقى لى فى هذه الحياه - قال.

لم يكن أمامه مخرج آخر إلا بيع كل ما يملك من أجل سداد مصاريف العلاج، وكان يريد أن يقوم هوميرو بهذه المهمه فى سرية مطلقة، ومع ذلك شعر هوميرو بعدم قدرته على المساعدة طالما أنه لا توجد لديه الفواتير الرسميه.

شرح له الرئيس أن هذه هي متعلقات زوجته التي ورثتها عن جدتها من العصر الاستعماري، وهذه الأخيرة كانت قد ورثت مجموعة من الأسهم في أحد مناجم الذهب في كولومبيا. أما الساعة والأزرار والدبايس الخاصة برابطة العنق فهي لى. ومن المعروف أن النياشين لم تكن لأحد قبله.

- لا أعتقد أن أحداً يمكن أن تتوفر لديه فواتير بهذا الشكل - قال.

أصر هوميرو على موقفه.

- فى هذه الحالة - قال الرئيس بتمعن - لن يكون أمامى إلا مواجهة الموقف بنفسى.

أخذ يجمع قطع الحللى بهدوء محسوب " أرجوك أن تعذرنى يا صديقى هوميرو وذلك أنه ليس هناك فقر أسوأ من الفقر الذى عليه رئيس ". قال له " لدرجة أن محاولة التغلب على مصاعب الحياة تكتنفها التنازلات " ، وفى هذه اللحظة، رق له قلب هوميرو وأسلم له قياده.

عادت لاثارا متأخرة إلى المنزل ذلك المساء، ورأت الحللى وهى تعكس ضوء حجرة الطعام، وتغيرت ملامحها كأنها رأت عقرباً فى سريرها.

- لا تكن فظاً أيها الأسود - قالت مفزوعة - لماذا توجد هذه الأشياء هنا؟

زاد كلام هوميرو وشرحه من قلقها، وجلست لتأمل الحلوى واحدة بعد الأخرى وكأنها أحد خبراء هذه المصنوعات، تنهدت في لحظة "لابد وأن المقابل مبلغ ضخم" ثم أخذت تنظر إلى هوميرو بعد ذلك وهي لم تجد بعد مخرجاً لهذا الارتباك.

- يا للمصيبة - قالت - ما الذى يمكن أن يفعله المرء حتى يتأكد من أن كل ما يقوله هذا الرجل هو الحقيقة؟

- ولم لا؟ قال هوميرو - لقد رأيته منذ وقت قصير وهو يغسل ملابسه ويتركها لتجف فى الحجرة مثلما نفعل نحن بتعليقها على السلك.

- لأنه بخيل - قالت لاثارا.

- أو لأنه فقير - قال هوميرو.

عادت لاثارا لتتفرج على الحلوى، لكن بدرجة اهتمام أقل ذلك أنها كانت تشعر بالهزيمة. وعلى ذلك فصباح اليوم التالى ارتدت أفضل ما لديها من ثياب ووضعت الحلوى التى بدت أغلى شئ فى نظرها ووضعت أكثر من خاتم فى كل واحد من أصابع يديها بما فى ذلك الإبهام، وكذلك بعض الأساور فى كل ذراع

وذهبت لتبيع كل ذلك . " لنرى من الذى سيطلب من لاثارا ادفيس فاتورة " قالت وهى خارجة وقد غمرتها ابتسامة فيها شموخ . اختارت محل الذهب المناسب ، ظاهره الفخامة لكنه ليس شهيراً ، وكانت تعرف أن عمليات البيع والشراء تتم دون أسئلة كثيرة . دخلت المحل وهى تشعر بالفزع لكنها ثابتة الخطا .

قام أحد البائعين الذين يرتدون الزى الخاص بالمحل بإيماءة مسرحية مقبلاً يدها . كان رجلاً نحيفاً وشاحب اللون . ووضع نفسه فى خدمتها . كان داخل المحل واضحاً وضح النهار وذلك بفضل الفترينات والأضواء الكثيرة . بدا المحل كأنه من الماس . واصلت لاثارا طريقها إلا داخل المحل دون أن تنظر إلى الموظف خوفاً من أن يكشف هذه التمثيلية .

دعاها الموظف للجلوس أمام واحد من المكاتب الثلاثة من طراز لويس الخامس عشر والتى تستخدم كفترينات فردية . ثم قام بفرد منديل نظيف فوق المكتب وجلس فى مواجهة لاثارا وانتظر .

- ماذا يمكن أن أقدم لك يا سيدتى ؟

أخذت تخلع الحلوى من الخواتم والأساور والعقود والأقراط وكل ما كانت تضعه وتضع كل ما تخلعه على المنضدة فى ترتيب كأنه قطع شطرنج . إن الشيء الوحيد الذى أريده - قالت - هو معرفة القيمة الحقيقية لكل هذا .

وضع بائع الحلوى العدسة على عينه اليسرى وأخذ يفحص
الحلوى فى صمت كأنه فى عيادة. وبعد وقت ليس بالقصير، ودون
أن تتوقف عملية الفحص سأل:

- من أين أنت يا سيدتى؟

لم تكن لاثارا تتوقع سؤالاً مثل هذا.

- آه يا سيدى - تنهدت - من مكان بعيد جداً.

- أتصور ذلك - قال.

عاد إلى صمته بينما تقوم لاثارا بتفحصه بعينيها الذهبيتين
الحادتين بلا رحمة. أولى الجواهرجى اهتماماً خاصة بالتاج الماسى
ووضعه فى مكان خاص بعيداً عن باقى الحلوى. تنهدت لاثارا.

- إنك يا سيدى من برج العذراء - قالت.

لم يتوقف الجواهرجى عن فحص القطع.

- وكيف تعرفين؟

من خلال كينونة المرء - قالت لاثارا.

لم يعلق بشيء حتى انتهى من عملية الفحص وتوجه إليها
بنفس درجة الاحترام التى بدأ بها.

- ما هو مصدر كل هذا؟

- إنه ميراث من جدتى - قالت لاثارا بصوت متوتر -
ماتت العام الماضى فى باراماريو عن عمر يناهز السابعة
والتسعين .

عندئذ نظر الجواهرجى فى عينيها " أنا شديد الأسف " قال
لها " إن الشيء الوحيد الذى له قيمة فى كل هذا هو الوزن " وبعد
ذلك أخذ التاج بأطراف أصابعه فأخذ يعكس الضوء الشديد
المنبعث من المحل .

- ما عدا هذه القطعة - قال - إنها قديمة جداً - وربما
كانت مصرية، وبالتالي قد لا يمكن تقدير ثمنها اللهم إلا بسبب
الحالة السيئة التى عليها الماسات، على أى الأحوال لها قيمة
تاريخية .

أما باقى الأحجار المرصعة بها قطع الحلى الأخرى، من
الزمرد والجمشت والأوبال والياقوت إلى غيرها فكلها فالصو " ومما
لا شك فيه أن القطع الأصلية كانت ممتازة " قال الجواهرجى وهو
يجمع القطع لإعادتها إليها، لكن مع توالى الأجيال ذهبت القطع
الأصلية وأخذت تحل محلها قطعاً زجاجية . شعرت لاثارا بالغثيان
القوى فأخذت نفساً عميقاً وسيطرت على فزعها . أخذ البائع
يهدئ من روعها .

- هذا يحدث كثيراً يا سيدتى .

- أعرف ذلك - قالت لاثارا وهى تشعر بعودة الهدوء إلى نفسها - ولهذا أريد التخلص منها.

عندئذ شعرت أنها تجاوزت حدود التمثيلية وأخذت تسترد سيطرتها على نفسها. وبدون المزيد من اللف والدوران فتحت شنطتها وأخرجت الأزرار والساعة الذهبية ومشابك رابطة العنق والقلادات الذهبية والفضية ووضعت كل شىء على المنضدة.

- وهذا أيضاً؟ سأل الجواهرجى؟

- كل شىء - قالت لاثارا.

كانت أوراق العملة من الفرنكات السويسرية جديدة لدرجة أنها خشيت أن تتسخ أصابعها من أحبار هذه الأوراق. أخذت النقود دون عدها، وودعها الجواهرجى حتى الباب بنفس الطريقة التى استقبلها بها. وعندما أصبحت على الباب وهو يمسك الضلفة الزجاجية ليفسح لها الطريق قال:

- هناك شىء آخر يا سيدتى - قال - أنا من برج الدلو.

عند حلول المساء ذهبت كل من لاثارا وهوميرو إلى الفندق ومعهما ثمن الحلى. وبعد القيام بعمليات حسابية كان قد تبقى مبلغ صغير للوفاء بالمصاريف، وعلى ذلك أخذ الرئيس يستزع بعض الحلى التى يضعها ويلقى بها على السرير بادئاً بدبلة الزواج وساعة الجيب والدبوس الخاص بالكرافات الذى كان يستخدمه.

أعادت إليه لاثارا الدبلة .

- ليس هذا - قالت لاثارا - فتذكر مثله لا يمكن بيعه .

قبل الرئيس ذلك ، ووضع الدبلة ، أعادت إليه لاثارا ساعة الجيب التى كان يضعها فى الصدىرى " وهذا أيضاً " قالت - لم يكن الرئيس على اتفاق معها فى هذا لكنها وضعت له الساعة فى مكانها .

- من هو ذلك الذى يفكر فى بيع ساعات فى سويسرا؟

- لقد بعنا واحدة - قال الرئيس .

- نعم لكن ليس لأنها ساعة بل لما فيها من ذهب .

- هذه أيضاً ذهبية - قال الرئيس .

- نعم - قالت لاثارا - يمكن لك ألا تجرى العملية ولكن لا يمكن لك ألا تعرف كم الساعة .

ولم تقبل أن يبيع الشبر الذهبى لنظارتة رغم أنه كان لديه نظارة أخرى . وضعت القطع فى يدها كأنها تزننها ثم وضعت نهاية للشكوك .

- كما أن ما معى - قالت - يكفى للوفاء بالمبلغ المتبقى .

قبل أن تخرج قامت بأخذ الغسيل دون أن تأخذ رأيه وذهبت به لتجففه وتقوم بكيه فى المنزل . ركبا الدراجة البخارية .

كان هوميرو يقوم بالقيادة أما هي فقد ركبت على الشبكة الخلفية وهي تحتضنه، ومنذ فترة قصيرة أضيئت الأنوار في الشوارع في ذلك المساء البنفسجي. كانت الرياح قد قضت على آخر الأوراق الجافة وأضحت الأشجار كأنها حجريات متتوفة الريش، وكانت هناك شاحنة تمر من شارع / رودانو وفيها مذياع مرتفع الصوت أخذ يملأ الشوارع بالموسيقى. كان المغنى هو "جورج براسنى" وتقول كلمات الأغنية بالفرنسية:

يا حبيبى اقبض على عصاك جيداً، سوف يمضى الزمن من هناك، هذا الزمن البربرى من هو من نوعية أتيللا، عندما يمر حصانه لا يندفع الحب.

كان هوميرو ولائارا يجريان فى صمت وقد أسكرتهما الأغنية ورائحة الزهور الحمراء، بعد هنيهة بدت وكأنها استيقظت من حلم.

- يا للكارثة - قالت

- ماذا؟

- إنه العجوز المسكين - قالت لائارا - يا لها من حياة

تعسة!

ويوم الجمعة التالى الموافق السابع من أكتوبر أجريت للرئيس جراحة استمرت خمس ساعات، وكانت المحصلة أن كل شيء ظل على ما هو عليه سابقاً، وكان عزاؤه الوحيد هو أنه لا زال حيّاً، وبعد مرور عشرة أيام نقلاه إلى غرفة مشتركة مع بعض المرضى الآخرين وأمكن لهما زيارته. كان إنساناً آخر. فقد بعض إدراكه وبه هزال وأصبح شعره واهناً لدرجة أنه كان يتساقط عندما يلامس المخدة. ولم يبق له من قدراته السابقة إلا مرونة الحركة فى يديه.

كانت حالته مثيرة للأسى عند أول محاولة للسير على عكازين صُممما لهذا الغرض. وكانت لاثارا تقضى الليل إلى جواره لتوفر عليه نفقات ممرضة ليلية. فى الليلة الأولى أخذ أحد المرضى فى الحجرة يثن بصوت عال طوال الليل خوفاً من الموت، وقد أدت الليالى التى لا تنتهى إلى ضرب المعاول فى مقاومة لاثارا.

خرج من المستشفى بعد أن قضى أربعة أشهر فى جنيف. قام هوميرو الذى كان يشرف إشرافاً دقيقاً على مدخراته الضئيلة، بسداد مصاريف المستشفى وحمله فى سيارة الإسعاف ومعه بعض الموظفين ليساعدوه فى الصعود به إلى الدور الثامن. وهياؤا له حجرة الأولاد اللذين لم يتعرف عليهما أبداً. وأخذ بعد ذلك يستعيد وعيه بالواقع المحيط. أخذ يهتم بتمرينات العلاج الطبيعى

متبعاً نظاماً صارماً حتى عاد للسير مستخدماً عكازاً واحداً فقط .
ورغم أنه عاد لارتداء أفضل الملابس الخاصة به إلا أنه لم يعد أبداً
إلى سابق عهده سواء فى الشكل العام أم فى الطباع . فقد أصبح
شديد الخوف من الخريف الذى أخذ يعلن عن نفسه بقسوة ، وكان
أقسى خريف تمر به المدينة منذ بداية القرن . قرر العودة إلا بلاده
على متن سفينة تبصر من مرسيليا يوم الثالث عشر من ديسمبر .
كان القرار مخالفاً لنصائح الأطباء الذين رغبوا فى الإشراف عليه
لمزيد من الوقت ، لكن المال الذى معه لم يكف لكل هذا ، فأرادت
لاثارا أن تزيد المبلغ المتبقى بشئ آخر ، ولو ضئيلاً ، من المدخرات
المخصصة للأبناء ، غير أنها وجدت فى الحصلة أقل مما كانت
تتوقع ، وعندئذ اعترف لها هوميرو بأنه أخذ بعض النقود خلسة
لاستكمال مصاريف المستشفى .

- حسن - قالت لاثارا مستسلمة - لنقل أنه كان الابن
الأكبر .

فى الحادى عشر من ديسمبر ذهبوا به إلى المحطة ليأخذ
القطار المتجه إلى مرسيليا ، كانت هناك عاصفة ثلجية عاتية .
عندما عادا إلى المنزل وجدوا رسالة وداع موضوعة على الكومود
الخاص بحجرة نوم الأطفال . ترك معها ديلة الخطوبة لباربارا ومعها
ديلة زوجته التى توفيت ، والتى لم يحاول بيعها أبداً ؛ كذلك
الساعة من أجل لاثارا . ولما كان يوم الأحد فإن بعض الجيران من

أبناء الكاريبي عرفوا بالسر وذهبوا إلى محطة القطار "كورنافين" وهم يحملون بعض الآلات الوترية من "بيراكروث" لم يكن الرئيس فى حالة معنوية جيدة. كان يرتدى المعطف غير المهندم وشالاً رفيعاً ملوناً يلفه حول رقبته أهده إياه لاثارا. ورغم هذا ظل فى آخر. كان فى العربة الأخيرة يودعهم ملوحاً بالقبعة تحت ضربات العاصفة الثلجية. أخذت سرعة القطار فى الازدياد فى الوقت الذى أدرك فيه هوميرو بأن العصا لا زالت معه فجرى حتى آخر الرصيف وقذف بها بقوة حتى يلتقطها الرئيس وهى تطير فى الهواء. لكنها سقطت بين عجلات القطار وتحطمت. كانت لحظة رعب. كان آخر شىء رآه لاثارا هو اليد المرتعشة التى امتدت لتلتقط العكاز. ولم تستطع أبداً نسيان تلك الصورة وكذلك صورة عامل القطار الذى استطاع أن يمسك العجوز بواسطة "التلفيحة" بعد أن غطاه الثلج وأنقذه من السقوط. جرت لاثارا، وقد أصابها الهول لما رأت، لتلحق بزوجها محاولة الابتسام بعد الدموع.

- يا إلهى - صاحت - هذا الرجل لا يموت من شىء. وصل سليماً معافى وذلك طبقاً لتلغراف شكر مطول أرسله، وطوال أكثر من عام لم يعرف عنه شىء، بعد ذلك وصلت رسالة مكونة من ست صفحات مكتوبة بخط اليد، كان من المستحيل التعرف عليه، فقد عاودته الآلام بنفس القوة والشدة المعهودتين سابقاً، إلا أنه قرر ألا يوليها أى اهتمام وأن يكرس

نفسه للحياة كيفما اتفق . وقام الشاعر حاييم قيصر بإهدائه عكازاً آخر مطعماً بالصدف ، لكنه قرر ألا يستخدمه . أمضى ستة أشهر وهو يتناول اللحم بشكل منتظم كما كان يتناول بعض الرخويات البحرية وكان قادراً على تناول ما قد يصل إلى عشرين فنجان قهوة يومياً ، لكنه لم يعد يقرأ طالعه في الفنجان ، ذلك أن توقعاته تؤتى العكس تماماً . ويوم أن بلغ الخامسة والسبعين من العمر ، تناول عدة كئوس من رون مارتينيكا الممتاز كان لها تأثير طيب عليه . كما عاد للتدخين ، لم يكن يشعر بتحسن ، لكنه أيضاً لم يشعر بأن حالته تسوء . السبب الذي جعله يكتب هذه الرسالة هو إبلاغهما برغبته في العودة إلى بلاده ليكون على رأس حركة تجديد في سبيل قضية عادلة ووطن أهل للكفاح من أجله رغم أن ذلك قد يكون الدافع من ورائه هو الفخر التعس بأنه لم يمت في سريره من الشيخوخة .

انتهت الرسالة مشيرة إلى الاتجاه الجديد ، وكأن رحلته إلى جنيف كانت بمثابة النبوءة بما سيحدث .

ريح الشمال

(١٩٨٢)

رأيت مرة واحدة فى كباريه " بوكاكثيو " أحد الكباريات الحديثة فى برشلونة . كان ذلك قبل ساعات من انتهاء حياته بشكل درامى . إذ كان يطارد بعض من الشبان السويديين فى محاولة منهم لإجباره على الذهاب معهم فى الثانية فجراً لقضاء بقية السهرة فى " كاداكيس " كان عددهم أحد عشر فرداً من الصعب تمييزهم عن بعضهم ذلك أن الأولاد والبنات كانوا يشبهون بعضهم البعض ، يتمتعون بالجمال والسيقان غير الغليظة والشعر الطويل الذهبى اللون . أما هو فعمره لا يزيد على عشرين سنة تقريباً ، شعره مجعد ، وفى خصلات مرتفعة كأنها عرف الديك ، أما بشرته فهى تميل إلى السمرة والنعومة التى عليها أهل الكاريبى الذى عودتهم أمهاتهم ألا يعرضوا أنفسهم للشمس . ونظرته هى تلك النظرة العربية التى تخلب لب السويديات وربما بعد السويديين أيضاً . جعلوه يجلس على طاولة البار وكأنه دمية من تلك التى يستخدمها الكوميديون وكأنها تتحدث ، وأخذوا يغنون له الأغانى الشهيرة وهم يصحبون غنائهم بالتصفيق بالأيدى ، وذلك حتى يذهب معهم . كان يشعر بالفزع وهو يشرح لهم الأسباب التى من أجلها يرفض الذهاب . تدخل أحد ما صائحاً

ومطالبًا بأن يتركوه لحاله، فما كان من أحد السويديين إلا الوقوف في وجهه وهو يموت ضحكاً.

- إنه لنا - صباح - لقد وجدناه في صفيحة الزبالة.

كنت قد دخلت قبل تلك اللحظة بقليل، وكان معي بعض الأصدقاء بعد أن حضرنا الحفل الموسيقي الأخير الذى قدمه / دافيد أويستراك فى قصر الموسيقى . Palau de la prusi واقشعر بدنى مما عليه السويديون من عدم تصديق لما يقول. الأسباب التى يذكرها الفتى مقدسة عنده، فقد عاش فى "كاداكيس" حتى الصيف الماضى، وهناك تعاقدوا معه ليغنى أغانى الكاريبى فى أحد الكانتينات من تلك التى على الموضة، واستمر فى ذلك هزمته ريح الشمال، واستطاع الفرار فى اليوم التالى وهو عازم ألا يعود إليها أبداً سواء مع هذه الرياح أو بدونها، فقد كان على يقين من أنه لو عاد فإن الموت فى انتظاره. كان ذلك يقيناً من ذلك النوع الذى عليه أهل الكاريبى، ومن المستحيل على "شلة" من أهل شمال أوروبا العقلانيين أن يستوعبوه وخاصة إذا ما كان مرح الصيف قد أخذ عقولهم وساعد فى ذلك النبذ القطلانى القوى والذى كان يبرز حبوبه المجنونة فى القلوب.

إننى كنت أفهمه كما لم يفهمه أحد. "كاداكيس" هى واحدة من القرى الجميلة على شاطئ "كوستابرابا" ظلت تحافظ على غطيتها وهذا يرجع - فى جزء منه - إلى أن الطريق الموصل

إليها هو طريق الكورنيش الضيق والمتعرج الذى يطل على هاوية بلا قرار لدرجة أن على المرء أن يكون متماسكاً وقوى الأعصاب وهو يقود بسرعة خمسين كيلومتراً فى الساعة. المنازل كالعادة بيضاء وغير مرتفعة وهذا شأن كل المنازل فى قرى الصيادين فى حوض البحر الأبيض المتوسط. أما البيوت الحديثة فقد صممها مهندسون مشهورون احترموها فى تصميمهم الانسجام بين الوحدات القديمة والحديثة. وعندما تبدأ تبشير الصيف وهى قادمة من الصحراء الأفريقية الموحدة على الشاطئ المقابل، كانت "كاداكيس" تتحول إلى "بابل الجحيم" إذ تغص بالسياح القادمين من كافة أنحاء أوروبا، ويظل الحال على هذا النحو، فى مقاتلتهم لأهل البلدة من أجل جنتهم وكذا مقاتلة هؤلاء الأغراب الذين استطاعوا شراء منزل هناك مقابل سعر معقول فى الزمن الذى مضى، أما أثناء الخريف والربيع كانت "كاداكيس" أكثر جاذبية، حيث الناس يفكرون وهم خائفون فى ريح الشمال الآتية من أراضى قاسية لا ترحم، وهى رياح طبقاً لأهل البلدة، وبعض الكتاب الذين أصابهم مكروه منها، تحمل معها بذور الجنون.

منذ خمسة عشر عاماً كنت أنا واحداً من الحريصين على زيارة البلدة حتى تدخلت ريح الشمال فى حياتنا. ولقد شعرت بها قبل أن تهب. كان ذلك يوم الأحد عند ساعة القيلولة. حيث واتانى هاجس غير مفهوم بأن شيئاً سيحدث. إذ هبطت معنوياتى

وشعرت بالحزن دون سبب واضح ، وواتانى أيضاً الإحساس بأن
أبنائى - الذين كانت أعمارهم آنذاك تقل عن عشر سنوات -
يسيرون خلفى فى المنزل بنظرات عدائية . دخل البواب بعد ذلك
بقليل وهو يحمل صندوقاً به بعض العدة وبعض الحبال الخاصة
بالملاحة البحرية لتأمين الأبواب والنوافذ . لم تكن حالتى النفسية
مفاجأة له .

- إنها ريح الشمال - قال لى - فستهب بعد ساعة من
الآن .

كان قديماً يعمل فى البحار ، طاعناً فى السن ، يحتفظ من
مهنته القديمة بالجأكيت الواقى من المطر وطاقية البحار وكذا
" الغليون " وجلده الذى تجعد من كثرة ملامسته للسمياه المألحة فى
العالم . يستغل ساعات الفراغ فى لعب الـ (Petanca الجلة) فى
الميدان مع بعض من خاضوا حروباً خاسرة فى الماضى ، ويتناول
المشهيات مع السياح فى حانات الميدان إذ من سماته قدرته على أن
يفهمه الآخرون وهو يتحدث بقطلايته المتفجرة مهما كانت اللغات
التي يتكلمون بها . هو شديد التباهى بمعرفته كل موانئ الدنيا لكنه
لا يعرف أى مدينة من المدن الداخلية " ولا حتى باريس عاصمة
فرنسا بكل ما لها " - يقول - فهو لا يؤمن بأى وسيلة انتقال غير
البحر .

ظهرت عليه علامات الشيخوخة فجأة خلال السنوات
الأخيرة ولم يعد يخرج للشارع إذ أخذ يقضى معظم الوقت وهو

جالس فى الجحر المخصص للبواب، كان يعيش وحيد الروح، كعادته فى العيش دوماً. يطبخ طعامه فى علة يضعها على موقد كحولى، وهذا كان يجعلنا نتذوق جميعاً أشهى ما فى المطبخ القوطى. يولى اهتمامه بالسكان مع شروق الشمس. هو رجل خدوم للغاية لم أعرف مثله أبداً، وطيب طيبة لا إرادية، وبه الحنان الحشن للقطلانيين. قليلاً ما يتحدث، لكن أسلوبه مباشر وصادق، وعندما يتوفر لديه الوقت يقوم بملء المطبوعات الخاصة بمسابقات الكرة لكنه نادراً ما يذهب لإيداعها بشكل رسمى.

وبينما يقوم فى ذلك اليوم بإحكام إغلاق الأبواب والشبابيك فى محاولة لاتقاء الكارثة تحدث معنا عن ربح الشمال وكأنها امرأة بغضة، لكن حياته تفتقر لمضمون بدونها، والمفاجأة عندى تتمثل فى أن رجلاً من رجال البحر يعمل ألف حساب لرياح تهب من الداخل.

- الأمر هو أن الريح أقدم - قال.

كان يعطى الانطباع بأن العام الذى يعيشه لا ينقسم إلى أيام وأشهر بل ينقسم إلى عدد المرات التى هبت فيها ربح الشمال. "خلال العام الماضى، وبعد ثلاثة أيام من ربح الشمال الثانية، تعرضت لآلام" قال لى ذات مرة، وربما كان ذلك يفسر عقيدته القائلة بأن الإنسان تظهر عليه علامات الشيخوخة بعد كل هبوب لهذه الرياح وكأنه تقدم به العمر عدة سنوات، أدى هوسه بهذه

الرياح إلى إيقاظ رغبتنا الشديدة في معرفتها في زيارة قاتلة ولذيذة.

لم ننتظر طويلاً، فلم يكد يخرج البواب حتى سمع صفيراً أخذ يزداد حدة وقوة في كل مرة، وتحول بعد ذلك إلى ما يشبه صوت هزة أرضية، وعندها بدأ هبوب الريح، أخذت في البداية شكل نوبات متباعدة ثم زادت في توالي إيقاعها حتى جاءت نوبة مستمرة بدون توقف أو سكون. كانت تتسم بالقوة والفظاعة لدرجة يحسب المرء معها أن بها شيئاً غير عادي. كانت شقتنا في مواجهة الجبل، وهذا عكس المنزل الذي كان لنا في الكاريبي، وربما يرجع هذا إلى المزاجية الغربية التي عليها القطلانيين الخالص الذين يحبون البحر لكنهم لا يرونه. والخلاصة أن الرياح تضرب المنزل من الناحية الأمامية وتهدد بالقضاء على الاستحكامات المتخذة لجعل النوافذ مغلقة.

الشيء الذي لفت انتباهي هو أن الطقس ظل على حالة من الجمال الأخاذ إذ كانت الشمس ذهبية والسماء صافية. وعلى ذلك قررت الخروج إلى الشارع وبرفتي الأطفال لنرى حالة البحر، ولا خشية في ذلك فهم تربوا على زلازل المكسيك وأعاصير الكاريبي، وإذا ما كانت هناك رياح أقل أو أكثر شدة، فهذا في نظرنا ليس مثيراً للقلق. مررنا بجحر البواب ونحن على أطراف أصابعنا ورأيناه ثابتاً في مكانه وأمامه طبق الفاصوليا والنقانق يتأمل الريح عبر النافذة. لم يرنا ونحن خارجين.

استطعنا السير فى حماية جدران المنزل، لكن عندما وصلنا إلى الناصية المؤدية إلى البحر كان علينا أن نحتضن بعضنا البعض وكأننا قطعة واحدة حتى لا تجرفنا الرياح بقوتها. ظللنا هكذا نتأمل بإعجاب البحر الساكن الصافى وسط هذه الرياح العاتية حتى جاء البواب ومعه بعض الجيران وأنقذونا. فى هذه اللحظة فقد أدركنا أن المسلك المنطقى السليم هو أن نظل فى المنزل إلى أن يشاء الله. ولم يكن لدى أحد أى فكرة عن متى تحدث هذه المشيئة.

بعد يومين كان لدينا انطباع بأن هذه الرياح العاتية لم تكن ظاهرة أرضية بل كانت نوعاً من العدوانية الشخصية ترتكب ضد فرد. كان البواب يزورنا عدة مرات فى اليوم وهو قلق على حالتنا المعنوية " ويأتى لنا بفواكه من فواكه الموسم، وكعكاً للأطفال، وفى طعام الغداء يوم الثلاثاء أهدانا أفضل شىء فى الأطلعمة القطلانية وهو طبق أعدته فى الصحيفة التى كان يطبخ فيها: إنه طبق الأرناب بالكاراكول. كانت حفلة بهيجة وسط الرعب.

كان ذلك الأربعاء هو أطول أيام حياتى. لم يحدث فيه شىء إلا الرياح وهى تهب، لكنه ربما كان بمثابة الظلمة التى تسبق الفجر الصادق. فبعد منتصف الليل استيقظنا جميعاً فى لحظة واحدة وقد هزنا صمت مطبق ليس له مثيل إلا صمت الموت. حتى أوراق الشجر لم تكن تهتز واستمتعنا بسماء الفجر بكل

نجومها المتألثة، وكذا بالبحر الفوسفورى. ورغم أن الساعة كانت قبل الخامسة بقليل فقد كان الكثير من السياح يروحون عن أنفسهم على أحجار الشاطئ وبدأوا فى إعادة تركيب قلاع المراكب بعد ثلاثة أيام من اللاحركة.

عندما خرجنا لم يجذب انتباهنا أن حجرة البواب مظلمة. لكن عندما عدنا إلى المنزل كان للهواء نفس الطابع الفوسفورى الذى عليه البحر ولا زال جحر البواب مظلمًا. استغربت وقرعت الباب مرتين، ولما لم يجب أحد دفعت الباب. أعتقد أن الأطفال رأوه قبلى وصاحوا صيحة فزع، كان البواب العجوز معلقًا من رقبته بحبل مربوط فى الدعامة الأفقية للسقف، وجثته لا زالت تتأرجح من جراء الزوبعة الأخيرة لتلك الريح. يرتدى كل ما عنده من ملابس البحارة ويعلق على ياقة الجاكتة كل ما حصل عليه من نياشين.

تركت القرية قبل الوقت المحدد ونحن فى أوج المتعة ونعيش حالة اشتياق مبكرة. وقد عزمنا على ألا نعود إليها أبدًا. كان السياح قد عادوا إلى الشارع مرة أخرى وملاأت الموسيقى الميدان الذى يؤمه الطاعنون فى السن والذين لم تكن حالتهم المعنوية جيدة ليعاودوا ممارسة لعبتهم المفضلة. ومن خلال الزجاج المترب لبار "مارتيم" استطعنا أن نرى بعض الأصدقاء الذين ظلوا على قيد الحياة وقد بدأوا الحياة مرة أخرى فى الربيع الوضاء لرياح الشمال. لكن كل هذا أصبح جزءًا من الماضى.

لهذا السبب قضى الفجر الحزين فى كباريه "بوكاكثيو" ولم
يستطع أحد أن يتفهم أكثر منى حالة الفزع التى يشعر بها إنسان ما
وهو يعود إلا "كاداكيس" ذلك أنه متأكد من موته. ورغم ذلك
لم تجد أية طريقة حتى يقلع السويديون عن رغبتهم، وانتهى بهم
الأمر بأن أخذوا الفتى معهم بالقوة بغية أن يعالجوه من هذه
الحزعلات الأفريقية التى يؤمن بها. ووضعوه وهو يضرب بقدميه
علامة على الرفض فى شاحنة صغيرة مليئة بالسكارى وسط
تصفيق وصفير الجمهور الذى انقسم على نفسه بين مؤيد
ومعارض، وبدأوا فى تلك اللحظة الرحلة الطويلة إلى كاداكيس.
أيقظنى جرس التليفون صباح اليوم التالى. كنت قد نسيت
إغلاق السيارة عندما عدت من الحفلة ولم أكن أعرف كم الساعة،
لكن حجرة النوم كان يملؤها ضوء الصيف. أيقظنى الصوت الذى
يصلنى عبر التليفون وبه نبرات جزع ولم أستطع التعرف عليه.
- أتذكر ذلك الفتى الذى أخذه معهم ليلاً إلى كاداكيس؟
لم أسمع أكثر من هذا حتى أخمن ما حدث له بل وأكثر
درامية ما تصورت. فزع هذا الفتى لأن العودة وشيكة وانتهاز
فرصة تلهى فيها هؤلاء السويديون المعتوهون وألقى بنفسه فى
الهوة السحيقة والشاحنة تسير، فى محاولة منه للهرب من موت
محقق.

الفهرس

مدخل	3.....
الإذعان الثالث (١٩٤٧)	31.....
عينا كلب أزرق (١٩٥٠)	45.....
ليلة طيور الكروان (١٩٥٣)	57.....
الأمسية المدهشة التى قضاها بـلنتنار (١٩٦٢)	67.....
قيلولة الثلاثاء (١٩٦٢)	83.....
جنازة الأم الكبرى (١٩٦٢)	97.....
الموت الدائم فيما وراء الحب (١٩٧٠)	123.....
الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب	
«إيرينديرا» وجدتها القاسية (١٩٧٤)	137.....
الصيف السعيد للسيدة / فوريس (١٩٧٦)	223.....
جئت لأتصل بالتليفون فقط (١٩٧٨)	245.....
رحلة طيبة يا سيدى الرئيس (١٩٧٩)	273.....
ريح الشمال (١٩٨٢)	317.....

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت . أحمد درويش
٢- الرثنية والإسلام	ك. مادهو بانتيكار	ت . أحمد فؤاد بليغ
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	ت . شوقي جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتكوف	ت . أحمد الحفصى
٥- ثريا فى عيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت . سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لرسيان غولدمان	ت . يوسف الأنطكى
٨- مشعل الحرائق	ماكس هريش	ت . مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت . محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت . محمد متصم وعبد الجليل الأزنى وعمر طحى
١١- مختارات	فيسوفا شيمبيريسكا	ت . هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت . أحمد محمود
١٣- بيانة الساميين	روبرتسن سميت	ت . عبد الوهاب غلوب
١٤- التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نورل	ت . حسن المودن
١٥- الحركات الفنية	إدوارد لويس سميت	ت . أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثينة السرداء	مارتن برنال	ت . بإشراف أحمد عثمان
١٧- مختارات	فيليب لاركين	ت . محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت . طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت . نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت . يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١- خرخة وألف خوخة	محمد بهرنجى	ت . ماجدة العناتى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت . سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت . سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت . بكر عباس
٢٥- مثنى	مولانا جلال الدين الرومى	ت . إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦- بين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت . أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت . نخبة
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	ت . منى أبو سنه
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الدين
٣٠- الرثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانتيكار	ت . أحمد فؤاد بليغ
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الطوجى / عبد الوهاب غلوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هويكتز	ت : أحمد فؤاد بليغ
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	ت . حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت . خليل كلفت

٢٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت . حياة حاسم محمد
٢٧- راحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت . جمال عبد الرحيم
٢٨- نقد الحداثة	آلن تورين	ت . أنور معيث
٢٩- الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت . ميرة كروان
٤٠- قصائد حب	ان سكستون	ت . محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت . عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ملحد
٤٢- عالم ماك	بشامين بارير	ت . أحمد محمود
٤٣- الذهب المزدوج	أوكتايفيو پاث	ت . المهدي أحريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت . مارلين تادرس
٤٥- التراث المغفور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت . أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	هابلو نيرودا	ت . محمود السيد على
٤٧- تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا بوما	ت . ماهر جويجاتى
٤٩- الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت . عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : مصدر رادة وعثمانى المياد ويوسف الأسكى
٥١- مسار الرواية الإسبانية الأمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م بينيا ليستى	ت . محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسى التدميمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج	ت . لطفى فطيم وعادل دمرداش
	روجسيفيتز وروجر بيل	
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . النجتون	ت . مرسى سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت . محسن مصيلحى
٥٥- ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت . على يوسف على
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت . محمود على مكى
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت . محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت . محمد أبو العطا
٥٩- المعبرة	كارلوس مونييث	ت . السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت . صبرى محمد عبد الغنى
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف محمد الجوهري
٦٢- لغة النص	رولان بارت	ت . محمد خير البقاعى .
٦٣- تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	الان رود	ت . رمسيس عوض .
٦٥- فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت . رمسيس عوض .
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت . عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات	فرناندو بيسوا	ت . المهدي أحريف
٦٨- تناشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسيوتين	ت . أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت . أحمد فؤاد متولى وهريدا محمد فهمى
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج روبريجت	ت . عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرعى	داريو فو	ت . حسين محمود

- ٧٢- السياسى المحوز ت . س . إليوت ت . فؤاد محلى
- ٧٣- نقد استجابة القارئ جين ب . توميكنز ت . حسن ناظم وعلى حاكم
- ٧٤- صلاح الدين والممالك فى مصر ل . ا . سيمينوفا ت . حسن بيومى
- ٧٥- فن التراحم والسير الذاتية أسريه موروا ت . أحمد درويش
- ٧٦- چاك لاكان واعواء التحليل النفسى مجموعة من الكتاب ت . عبد المقصود عبد الكريم
- ٧٧- تاريخ النقد الألبى الحديث ٢ رينه ويليك ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ٧٨- العولة النظرية الاجتماعية والثقافة الكوية رونالد رويرتسون ت . أحمد محمود وبورا أمين
- ٧٩- شعرية التأليف يوريس أوسيفسكى ت . سعيد الغانمى وناصر حلاوى
- ٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع» ألكسندر بوشكين ت . مكارم العمري
- ٨١- الجماعات المتخيلة بندكت أندرسن ت . محمد طارق الشرقاوى
- ٨٢- مسرح ميغيل ميغيل دى أونامونو ت . محمود السيد على
- ٨٣- مخفارات غوتفريد بن ت . خالد المعالى
- ٨٤- موسوعة الأدب والنقد مجموعة من الكتاب ت . عبد الحميد شيحة
- ٨٥- منصور الحلاج (مسرحية) صلاح زكى أقطاى ت . عبد الرازق بركات
- ٨٦- طول الليل جمال مير صانقى ت . أحمد فتحي يوسف شتا
- ٨٧- نون والقلم جلال آل أحمد ت . ماجدة العنانى
- ٨٨- الابتلاء بالتقرب حلال آل أحمد ت . إبراهيم السوقي شتا
- ٨٩- الطريق الثالث أنتونى جيدز ت . أحمد زايد ومحمد محبى الدين
- ٩٠- رسم السيف ميغل دى تريانس ت . محمد إبراهيم مبروك
- ٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق بارير الاسوسيتكا ت . محمد هناء عبد الفتاح
- ٩٢- أساليب ومضامين المسرح
- الإسبانى أمريكى المعاصر كارلوس ميغل ت . فادية جمال الدين
- ٩٣- محدثات العولة مايك فيذرستون وسكوت لاش ت . عبد الوهاب علوب
- ٩٤- الحب الأول والصحة سميريل بيكيك ت . فوزية الشماوى
- ٩٥- مخفارات من المسرح الإسبانى أنطونيو بوورو بايخو ت . مبرى محمد محمد عبد اللطيف
- ٩٦- ثلاث زنبقات ووردة قصص مختارة ت . إدوار الخراط
- ٩٧- هوية فرنسا مج ١ فرنان برودل ت . بشير السباعى
- ٩٨- الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى نماذج ومقالات ت . أشرف الصباغ
- ٩٩- تاريخ السينما العالمية ديشيد روينسون ت . إبراهيم قنديل
- ١٠٠- مساعلة العولة بول هيرست وجراهام تومبسون ت . إبراهيم فتحى
- ١٠١- النص الروائى (تقنيات ومناهج) بيرنار فاليط ت . رشيد بنحور
- ١٠٢- السياسة والتسامع عبد الكريم الخطيبى ت . عز الدين الكتانى الإدريسى
- ١٠٣- قبر ابن عربى يليه آباء عبد الوهاب المؤهب ت . محمد بنيس
- ١٠٤- أوبرا ماهوجنى بروتوات بريشت ت . عبد الغفار مكارى
- ١٠٥- مدخل إلى النص الجامع جيرارچينيت ت . عبد العزيز شبيل
- ١٠٦- الأدب الأندلسى د . ماريا خيسوس روبييرامتى ت . د . أشرف على دعور
- ١٠٧- صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر نخبة ت . محمد عبد الله الجعيدى

- ١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي
١٠٩- حروب المياه
١١٠- النساء في العالم النامي
١١١- المرأة والجريمة
١١٢- الاحتجاج الهادئ
١١٣- راية التمرد
١١٤- مسرحيتا حصاد كويجى وسكان المستنق
١١٥- غرفة تخص المرأة وحده
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)
١١٧- المرأة والجنوسة في الإسلام
١١٨- التهضة النسائية في مصر
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الحلاق
١٢٠- الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط
١٢١- الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية
١٢٤- الفجر الكاذب
١٢٥- التحليل الموسيقى
١٢٦- فعل القراءة
١٢٧- إرهاب
١٢٨- الأدب المقارن
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة
١٣٠- الشرق يصعد ثانية
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)
١٣٢- ثقافة العولة
١٣٣- الخوف من المرايا
١٣٤- تشريح حضارة
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت
١٣٦- فلاحو الباشا
١٣٧- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
١٣٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل
١٤٣- قضايا التنظير في البحث الاجتماعي
١٤٤- صاحبة اللوكاندة
- مجموعة من النقاد
جون بولوك وعادل درويش
حسنه بيجوم
فرانسيس هيندسون
أرلين علوى ماكليود
سادى پلانت
رول شرينكا
فرجينيا وولف
سيثيا نلسون
ليلى أحمد
بث بارون
أميرة الأزهرى ستيل
ليلى أبو لغد
فاطمة موسى
جوزيف فروجت
نيل الكسندر وفنادولينا
جون جرائ
سيدريك ثورپ ديفى
قولفانج إيسر
صفاء فتحى
سوزان باستيت
ماريا دولورس أسيس جاروت
أندرية جوند فراتك
مجموعة من المؤلفين
مايك فيذرستون
طارق على
بارى ج. كيمب
ت. س. إليوت
كينيث كوتو
جوزيف مارى مواريه
إيقلينا تارونى
عاطف فخرول
هربرت ميسن
مجموعة من المؤلفين
أ. م. فورستر
ديريك لايدار
كارلو جولدوني
- ت . محمود على مكى
ت . هاشم أحمد محمد
ت . منى قطان
ت . ريهام حسين إبراهيم
ت . إكرام يوسف
ت . أحمد حسان
ت . نسيم مجلى
ت . سمىة رمضان
ت . نهاد أحمد سالم
ت . منى إبراهيم ، وهالة كمال
ت . ليس النقاش
ت . بإشراف/ رؤوف عباس
ت : نخبة من المترجمين
ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
ت : منيرة كروان
ت : أنور محمد إبراهيم
ت . أحمد فؤاد بليغ
ت . سمحه الخولى
ت . عبد الوهاب علوب
ت . بشير السباعى
ت . أميرة حسن مويرة
ت . محمد أبو العطا وآخرون
ت . شوقى جلال
ت . لويس بقطر
ت : عبد الوهاب علوب
ت : طلعت الشايب
ت . أحمد محمود
ت . ماهر شفيق فريد
ت . سحر توفيق
ت . كاميليا صبحى
ت . وجيه سمعان عبد المسيح
ت . أسامة إسبر
ت . أمل الجبورى
ت : نعيم عطية
ت : حسن بيومى
ت : عدلى السمرى
ت . سلامة محمد سليمان

١٤٥- موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت . أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء	ميجيل دى ليمس	ت . على عبدالرؤوف البمبي
١٤٧- حطبة الإدارة الطويلة	تاتكريد نورست	ت . عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إتريكى أندرسون إمبرت	ت . على إبراهيم على منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عدد إلبرت وأونيس	عاطف فضول	ت . أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج ليتمان	ت . منيرة كروان
١٥١- هوية فرنسا مج ٢ ، ج ١	فرنان برودل	ت . بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهند وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت . محمد محمد الخطايبى
١٥٣- غرام القراءة	فيولين فاتويك	ت . فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت . خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت . أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال والآن وأوبيت فيرمو	ت . مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	ت . عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا مج ٢ ، ج ٢	فرنان برودل	ت . بشير السباعى
١٥٩- الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت . إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت . حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإسباني	اليخاندر كاسونا وأنطونيو جالا	ت . زيدان عبدالعليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسوى	ت . صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت . مجموعة من المترجمين
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	ت . نبيل سعد
١٦٥- حكايات القلرب	أ ن أفانا سيفا	ت . سهير المصايفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت . محمد محمود أبو غدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندراناث طاغور	ت . شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت . شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت . شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق	ميفيل دليبيس	ت . بسام ياسين رشيد
١٧١- رضع حد	فرانك بيجو	ت . هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس	مختارات	ت . محمد محمد الخطايبى
١٧٣- معنى الجمال	واتر ت. ستيس	ت . إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت . أحمد محمود
١٧٥- التلفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت . وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت . جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ثروايا	ت . حصة إبراهيم المتيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليرناني الحديث	نخبة من الشعراء	ت . محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب	أيسوب	ت . إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت . سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى	فتمسنت ب. ليتش	ت . محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوة	و.ب. بيتس	ت . ياسين طه حافظ
١٨٣- جان كركتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت . فتحى العشرى

١٨٤- القاهرة... حالة لا تنام	هانز إيندورفر	ت: دسوقي سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنود	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة	بُنْدُجْ علوى	ت: علاء منصور
١٨٨- موت الأدب	الفين كرنان	ت: بدر الديب
١٨٩- العصى والبصيرة	بول دى مان	ت: سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت: محسن سيد فرجاني
١٩١- الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت: مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بيك ج١	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
١٩٣- عامل المنجم	بيتر أيزاهامز	ت: محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت: محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة	فالتين راسبوتين	ت: أشرف الصباغ
١٩٧- الفاروق	شمس العلماء شبلى التعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	ادوين إمزى وآخرون	ت: إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لاندواى	ت: جمال احمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف جمال
٢٠٠- ضحايا التنمية	جيرمى سبيروك	ت: فخزى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا روس	ت: أحمد الأنصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث ج٤	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	الطاف حسين حالى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شاراز	ت: أحمد محمود هريدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافالى- سفورزا	ت: أحمد مستجير
٢٠٦- الهولوية تصنع علما جديدا	جيمس جلايك	ت: على يوسف على
٢٠٧- ليل إفريقي	رامون خوتاستدير	ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨- شخصية العربي فى المسرح الإسرائيلى	دان أوربان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فرديناند توسوسير	جوناثان كلر	ت: محمود حمدي عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزيان	مرزيان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ انوم نالين حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت: سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيندنز	ت: محمد محمود محي الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بيك ج٢	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧- عولة السياسة العالمية	جون بايلس وستيث سميث	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨- رايولا	خراير كورتازان	ت: على إبراهيم على منوفى
٢١٩- بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠- الهولوية فى الكون	بارى باركر	ت: على يوسف على
٢٢١- شعرية كلافى	جريجورى جوزداتيس	ت: رفعت سلام

٢٢٢- مرار كافكا	روبالد جرای	ت نسیم مجلی
٢٢٣- العلم فی مجتمع حر	بول فیرابر	ت السيد محمد مفادی
٢٢٤- دمار یوسلافیا	برانکا ماحاس	ت منى عبدالطاهر إبراهيم السيد
٢٢٥- حکایة عریق	حابريل حارثيا مارکث	ت السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى	دیغید هریت لورانس	ت طاهر محمد علی التبریزى
٢٢٧- المسرح الإنسانى فی القرن السابع عشر	موسى مارديا ديف مورکى	ت السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الحمالية وعلم اجتماع الفن	جانبیت وولف	ت مارى تيرير عبدالمسیح وحالد حسن
٢٢٩- مارق البطل الوحيد	بورمان کيمان	ت أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاکوب	ت مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١- الدرافيل	خایمى سالوم بيدال	ت جمال أحمد عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستینر	ت مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣- فكرة الاضمحلال	ارثر هومان	ت. طلعت الشایب
٢٣٤- الإسلام فی السودان	ج. سبنسر تریمنجهام	ت فؤاد محمد عکود
٢٣٥- دیوان شمس التبریزى	جلال الدین مولوى رومى	ت إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	میشیل تود	ت أحمد الطیب
٢٣٧- مصر أرض الوادی	روین فیرین	ت عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولة والتحریر	الانکتاد	ت یاسر محمد خادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربى فی الأدب الإسرائیلی	جیلارافر - رایوخ	ت نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والعرب وإمكانية الحوار	کامى حاقظ	ت صلاح عبدالعزيز محمود
٢٤١- فی انتظار البرابرة	ج . م کویتز	ت: ابتسام عبدالله سعيد
٢٤٢- سبعة أبطاط من العموض	وليام إمبسون	ت صبرى محمد حسن عبدالنبي
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية ج١	لیفی بروفنال	ت' علی عبدالرؤوف البعبی
٢٤٤- العلیان	لاورا إسکیبیل	ت' نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إلیزابیتا ادیس	ت توفیق علی منصور
٢٤٦- قصص مختارة	جابريل حارثيا مارکث	ت: علی إبراهيم علی منوفى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٦٠٧٥ / ٢٠٠٠



تضم هذه المختارات اثنتى عشرة قصة قصيرة : ثلاث منها تنسب للمجموعة الأولى : «عينا كلب أزرق» و «الإذعان الثالث» و «ليلة طيور الكروان» ، وثلاث أخرى تنسب إلى المجموعة القصصية الثانية وهى : «قيلولة الثلاثاء» التى يعتبرها ماركيث أفضل قصصه القصيرة على الإطلاق ، و «الأمسية المدهشة التى قضاها بـلـتـنـار» و «جنازة الأم الكبرى» . أما المجموعة الثالثة فقد اخترنا منها قصتين : «الموت الدائم فيما وراء الحب» وقصة «الحكاية العجيبة والحزينة لطيبة القلب إيرينديدا وجدتها القاسية» . أما القصص الأربع الأخرى فقد جاءت من مجموعته القصصية «اثنتا عشرة قصة فى ترحال» على اعتبار أنها جزء من نسيج فكر فيه المؤلف بعناية ، وحاول أن تكون هناك بعض الروابط بين قصص المجموعة التى تدور حول رؤية جارتيا ماركيث - أو إن شئت الدقة الراوى - للثقافة الأوروبية واعتمادها الكامل على العقل .

هذه المختارات القصصية تعكس تناغماً عجيباً بين عناصر الواقع سواء الممكنة الحدوث أو المستعصية .. وتناغماً عجيباً ببساطة مثيرة بين تأثير الثقافة الإسبانية والأوروبية والثقافة المحلية وهضمها كلها وإخراج عمل ينطق بأصالة الإبداع . هو السر الأساسى - بالإضافة إلى عناصر أخرى - فى الشهرة التى طبقت الآفاق والتى استحقها عن جدارة ماركيث إلى جوار كتّاب آخرين من أبناء أمريكا اللاتينية .

